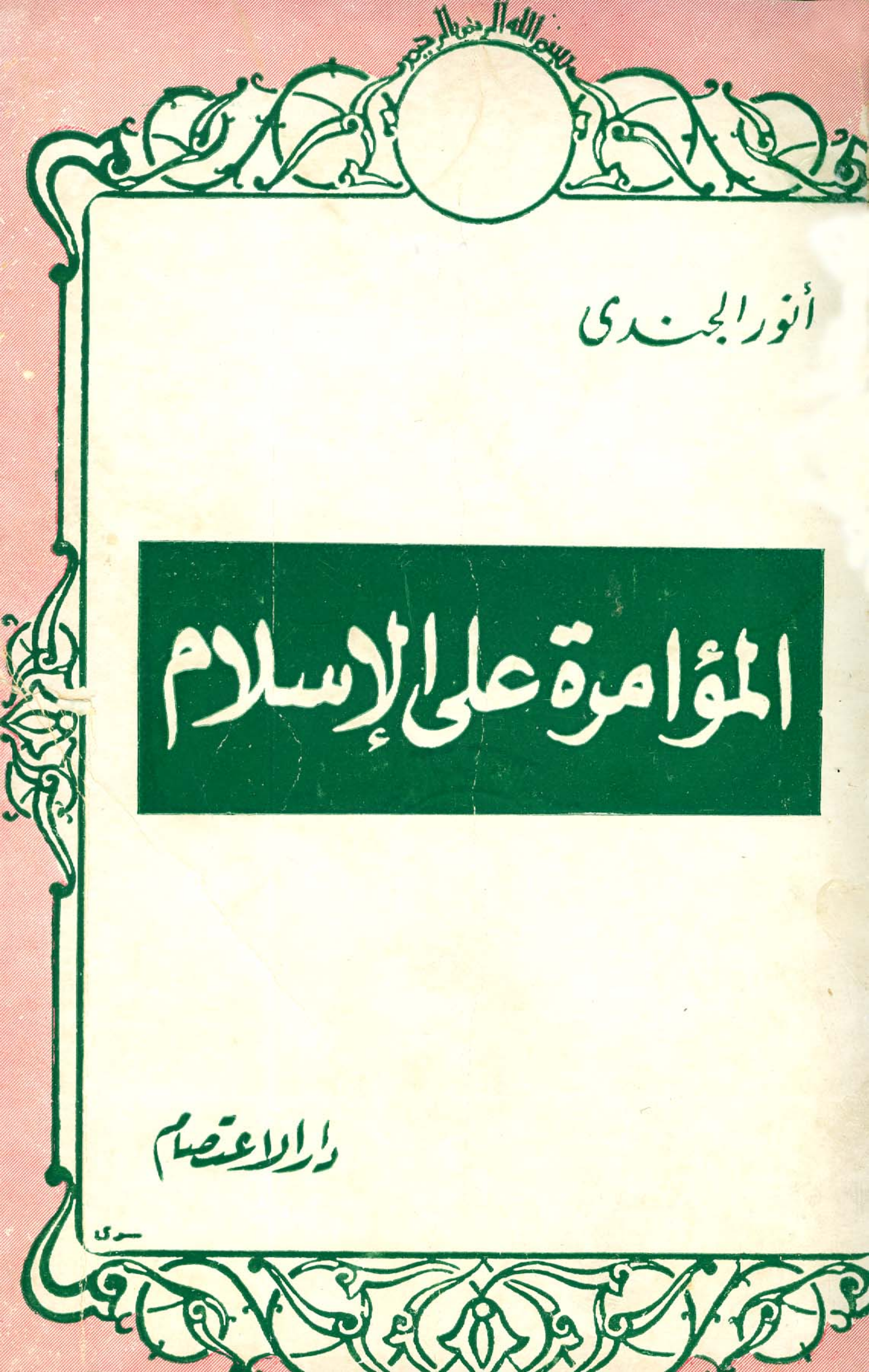

بسم الله الرحمن الرحيم
أنور الجندى
المؤامرة على الإسلام
دار الاعتصام

معالم تاريخ الاسلام

المؤامرة على الاسلام

أنور الجندي

دار الاعتصام

آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى البحث

إن من أخطر التحديات التي تواجه الإسلام في العصر الحديث . ابتعاث الفكر الوثني والغنوصي القديم الذي كان معروفاً قبل ظهور الإسلام في البيئات الشرقية والغربية على السواء والذي تشكل في صورة جامعة من بعد في الأفلاطونية الحديثة وهو الفكر البشري الذي ظهر باسم الغنوصية في الشرق وباسم الفلسفة اليونانية في الغرب .

هذا الفكر الذي يجمع بين الوثنية والإلحاد والتعدد والإشراق والمادية والذي عرفه العرب والمسلمون بعد ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وظهر أثره في الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والدعوات الباطنية المتجددة من المجوسية وغيرها . ولقد كان هـــذا الفكر البشري الفلسفي القائم على نظريتين أساسيين :

١ — نظرية العقل والحس في الفكر اليوناني الهلينتي .

٢ — نظرية الحدس والإشراق في الفكر الغنوصي الشرقي .

وقد قامت بعد ترجمة الفلسفات معركة ضارية في مواجهة النظريات والأفكار والشبهات التي طرحتها الفلسفات الوافدة في أفق الفكر الإسلامي انتهت بهزيمة الفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفي والفكر الباطني وتألقت الأصالة الإسلامية التي تتمثل في مفهوم أهل السنة والجماعة . هذا المفهوم الذي استطاع استيعاب الإيجابيات المستمدة من مفهوم التوحيد في مختلف

هذه الدعوات ، كما استطاع نفى وإسقاط السلبيات التى تتنافى مع جوهر الإسلام وعقيدته السمحة . وبذلك أخذ الفكر الإسلامى من جديد طابعه الأصيل المستمد من جوهره الأول ومنابعه الأساسية .

وذلك بعد أن امتدت هذه المعركة قرنين من الزمان وشارك فى تصحيح مفاهيمها وتحريرها من الزيف والشبهات والأخطاء والتحديات عدد كبير من أعلام الفكر الإسلامى فى مقدمتهم : الأئمة الشافعى وأحمد بن حنبل والأشعرى وابن حزم والغزالى وابن تيمية وابن القيم ، هذه القضية يمكن أن نطلق عليها مؤامرة « احتواء الاسلام » .

واليوم تحاول حركة التغريب والغزو الثقافى إثارة هذه المعركة على نحو أشد عنفا وفتح باب الفتنة من جديد فى محاولة لطرح هذه الشبهات والسموم التى سبق النظر فيها ودحضها والرد عليها مرة أخرى فى أفق الفكر الاسلامى وبأسلوب عصرى وفى أغلفة من الفكر الغربى الحديث وفى أطر من أساليب التفسير المادى للتاريخ وفى تصور خادع يستل حلقات ونقطا ومواقف من بين أحشاء هذه المعركة فى محاولة لتصوير هذه الحلقات على أنها صور مستقلة يمكن عرضها والنظر فيها بذاتها بصرف النظر عن عصرها وارتباطاتها بالمشكلة كلها التى تعددت جوانبها وتشعبت فروعها .

ومن ذلك مثلا مايثار اليوم حول « الاعتزال » ومحاولة تصويره على أنه منهج إسلامى للفكر يمكن اقتطاعه عن قضية احتواء الاسلام بكل أبعادها ، وعرضه على أنه منهج عقلانى يتفق مع روح العصر ويصلح لأن يكون منطلقاً لتبرير الحضارة الحديثة وأوضاع المجتمعات البشرية اليوم .

والواقع أن هذا التصور ليس سليما ولا صحيحاً . ذلك لأن الاعتزال لا يمثل الاسلام بنظريته الجامعة المتكاملة التى تربط بين العقل والوجدان فضلا عن أن الاعتزال نفسه لم يكن فى داخل قضية « احتواء الاسلام »

إلا خيطاً من خيوط كثيرة متشابكة ، وأنه عجز فى إبان استعلائه عن أن يكون تعبيراً صادقاً بل لقد كان استعلائه خطراً كبيراً أحدث أسوأ الأثر فى مصادرة الرأى والنأى عن الحق .

كذلك فإن ماتحاول حركة التغريب إثارته من إعادة كتابة تاريخ القرامطة والزنج وغيرهم من الحركات الضالة وتصويرها على أنها ثورات عدل وحرية، هو من تلك المحاولات الماكرة التى يراد بها إلقاء هذه السموم فى أفق الفكر الاسلامى الحديث مرة أخرى كذلك فإن ماتحاول بعض الجهات من إعادة نشر كتب التصوف الفلسفى واخبار الحلاج وابن عربى وطبع كتب الوجود والحلول والاتحاد هو واحد من هذه المحاولات فى ذلك الاتجاه وحدة الخطير .

وتتعدد المحاولات اليوم فى هذا الاتجاه بحيث تخلق صورة جديدة لاحتواء الاسلام أو المؤامرة عليه تتمثل فى تجديد صفحات هذا الركام المضطرب الذي عجز عن تحقيق شيئاً ما فى الماضى وسيكون اليوم أعجز عن أن يحقق شيئاً إلا إثارة الشبهات فى نفوس الأجيال الجديدة التى هى بطبيعة ثقافتها وتعليمها عاجزة عن أن تعرف أبعاد المؤامرة المراد فرضها عليهم أو تتبين الخلفية التى تختفى من وراءها المؤامرة .

ذلك لأن الحديث عن الاعتزال والتصوف والفلسفة ، هو فى مفهوم الإسلام حديث يتكامل مع مختلف وحدات الفكر الإسلامى، وحيث لا يكون حين يستقل بنفسه ممثلا للاسلام الجامع ، وأن كل وحدة من هذه الوحدات لا تفهم فهماً صحيحاً إلا فى إطار التكامل ولا تؤدى دورها إلا بالارتباط فى توازن وموائمة مع الوحدات الأخرى ، وأن النظرة العقلية ، أو النظرة الروحية ، لا تستطيع وحدها أن تقدم تصوراً إسلامياً صحيحاً وأن كل هذه

الوحدات لابد أن تتلاقى فى تكامل لتمثل منظوراً جامعاً متكاملا للاسلام يضم العقل والروح ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة .

وإذا كنا نجد اليوم من يحاول أن يتصور أن التراث الاسلامى يمكن تجزئته وأن خير مافيه هو عقلانية المعتزلة ، فإن ذلك يختلف مع النظرة الاسلامية الجامعة التى لاترى هذا الرأى .

وفى نفس الوقت لاترى استعلاء الدعوة إلى روحانية التصوف كمنطلق إلى مفهوم الاسلام وأن هذه المحاولات التى تعلى من شأن هذا الجانب أو ذاك ليست سليمة ولاصحيحة وأن محاولات زكى نجيب محمود بتحسين كتابات الاعتزال وابن الراوندى ، أو كتابات عبد الرحمن بدوى بإعلاء التصوف الفلسفى والحلول والاتحاد ، أو كتابات محمود إسماعيل بإعلاء حركات القرامطة والزنج أو اتجاه الدكتور محمود الشنيطى إلى إحياء ابن عربى ، أو طه حسين إلى إحياء إخوان الصفا أو ماسينون وصلاح عبد الصبور إلى إحياء الحلاج أو عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوى وطه حسين إلى تفسير تاريخ إحياء الاسلام تفسيراً ماركسياً أومادياً كل هذه المحاولات تدخل فى نطاق المؤامرة على الاسلام أو إعادة محاولة « احتواء الاسلام » الأولى . كذلك فإن الدعوات القاديانية والبهائية والروحية الحديثة هى أيضا محاولات جديدة على نفس الطريق .

(٢)
أهداف المؤامرة على الإسلام

لا ريب أن الهدف من المؤامرة على الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى هى نفس هدف محاولة احتواء الإسلام فى القرن الرابع الهجرى : النيل من الإسلام وإسقاط دولة واذابته فى أتون الأممية ، ونجد اليوم من وراء

المحاولة الجديدة قوى خطيرة أبرزها «الاستعمار الغربى» الذى يحمل خصومة الدين ومطمع السيطرة الاقتصادية، والذى يضمر فى أعماقه كراهية ضخمة للإسلام الذى غزا أوربا تحت لواء الدولة العثمانية، «والصهيونية» الطامعة فى العودة إلى السيطرة على فلسطين وبيت المقدس باسم الوعد الذى زيفته التوراة، و«الشيوعية» التى تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان وهدم الأخلاق، هذه القوى الثلاث الكبرى.

أما تلك الفرق والدعوات والمذاهب القديمة فإنها قد ماتت منذ وقت بعيد، ولكن انبعاثها وإحياءها هو هدف يرمى إلى تمزيق جبهة الإسلام حتى يحال بينها وبين الوحدة الشاملة القادرة على مواجهة الغزو الخارجى، وإقامة دولة الإسلام بالحق فى أرض الله.

وهى واحدة من سلسلة المؤامرة المتصلة على الإسلام عن طريق خصومه وفى مقدمتهم اليهودية التلمودية، التى تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية على أرض الإسلام وأهله، وهى تحقيق للغرض الذى دعا إليه لويس التاسع بهزيمة المسلمين فى فكرهم ودينهم وعقائدهم قبل هزيمتهم فى أرضهم وبلادهم.

إن هدف المؤامرة هو إحياء الفكر البشرى القديم قبل الإسلام، والمتجدد إبان حملة الترجمة مرة أخرى فى قوالب جديدة وأساليب عصرية لنفس الهدف: لنفس الغاية، غاية الهدم والهزيمة والتمزيق لجبهة الإسلام التى لم يبق على وجه الأرض غيرها فى طريق التوحيد الصحيح.

وتحاول حركة المؤامرة على الإسلام اليوم أن تتبع نفس الأساليب القديمة فهى تهاجم أصول القيم الإسلامية وجذور المفاهيم الأساسية، وتهاجم تاريخ الإسلام واللغة العربية وتدعو إلى تفسيخ القيم الخلقية الإسلامية بالدعوة

إلى إذاعة المجون والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى ، وهو نفس الأسلوب الذى اتخذته حركة احتواء الإسلام ، كان ذلك فى الماضى لحساب المجوسية الفارسية ولتمكين القرامطة والباطنية من السيطرة على الدولة الاسلامية واليوم يجرى نفس المخطط لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية .

وكما كان أخطر سلاح فى الحركة القديمة هو وضع الكتب الزائفة المليئة بالمغالطات والأباطيل والانحراف فى ثوب براق ، وتزييف كتب التاريخ حتى يجهل أبناء الأمة الاسلامية أمجادهم وبطولاتهم وكذلك إعداد طبقة من أتباعهم الحاقدين وتزويدهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون أن يتعمقوا فيها حيث تؤدى بهم هذه التربية الناقصة إلى الغرور والقدرة على الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع إلى موضوع مبالغة فى خداع الناس وإيهامهم بالعلم الفياض فإن الحركة الجديدة تتبع نفس الأسلوب .

وهذا الذى يصف به السيد أبو الحسن الندوى حركة احتواء الاسلام القديمة نجده واضحاً تماماً فى محاولة المؤامرة على الاسلام الجديدة ونجد أسماءاً بعينها تقوم على هــذا المخطط يمكن حصرهم وتسميتهم ، على نحو أبو نواس وبشار وحماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان فى الشعر وابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى والرازى ، ونجد تماماً عصبة الزنادقة وعصبة المجان ودعاة الانحلال الاجتماعى ، ومهاجمة القيم الأخلاقية ، ونجد أمثال حماد الذى هاجم أهــل التقوى والورع فسبهم بأقذع ألوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم مستهدفاً نشر الفساد بين أبناء المجتمع ومجرىء الشباب على السخرية من أهل العلم والخلق ، كذلك نجد أمثال حماد عجرد الذى عرف بالتهتك واللسان البذىء ، وأمثال

أبى نواس فى الترويج للشر وحث الناس عليه تحت ستار التظاهر بالعصرية والتقدم .

(٣)

بدأ « الاستشراق » هذا المخطط فى إحياء الفكر اليونانى والغنوصى كجزء من خطته فى إثارة الشبهات والسموم فى وجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وكمحاولة لتمزيق جبهة هذا الفكر والحيلولة دون التقاء المسلمين على وحدة الفكر الجامعة التى وصل إليها الفكر الاسلامى ، بعد مؤامرة الاحتواء التى قام بها الفكر الباطنى والفارسى والمجوسى إبان حركة الترجمة . إن هدف الاستشراق هو تمزيق جبهة الوحدة الفكرية الاسلامية الجامعة . ذلك المعروف أن هذه المذاهب والفرق قد تلاشت وانتهت منذ وقت بعيد ، ولم يبق من وجوه الخلاف إلا ما يعرف بالخلاف فى الفروع بين السنة والشيعة . وإن كان هذا الخلاف أيضاً مستحدث قد عمل الاستعمار والقوى الغربية على تعميقه بإثارة الصراع بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة التركية العثمانية منذ القرن التاسع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ولا ريب أن خطة إحياء الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى والباطنى وتجديده وإثارة قضاياه التى قام بها الاستشراق كانت بهدف التأثير على صميم فكرة التوحيد الأساسية التى هى عقيدة المسلمين جميعاً بعد أن صفيت مختلف القوى التى كانت تحمل اسم الاعتزال أو التصوف الفلسفى أو الفلسفة وانصهارها فى مفهومه الأصالة السنى الجامع ، ومحاولة إحياء هذه القضايا بشبهاتها وشكوكها ووجهات نظرها المستمدة من الفكر الفارسى الغنوصى القديم ، أو الفكر اليونانى الهلينى أو الفكر الهلستينى المتمثل فى الأفلاطونية الحديثة ، كل هذا لا يراد به إلا طرح هذه الشبهات والشكوك والسموم مرة أخرى فى أفق الفكر الاسلامى فتنقسم الآراء حوله ، وبذلك يبعد

المسلمون عن وحدة فكرهم الجامعة المتكاملة ، ويعودون مرة أخرى إلى صراع الفرق فضلا عما يؤديه طرح هذه المفاهيم من إفساد لجوهر الاسلام نفسه .

ويجرى مع هذا الاتجاه القول المضلل بأن مفهوم السنة والجماعة ليس إلا واحداً من جملة مفاهيم يمثلها الاسلام ، منها مفهوم الاعتزال، والفلسفة، والتصوف ، والباطنية مع أن هذا ليس صحيحاً ، فلم تكن هذه الفرق بمثابة فرق متصارعة مع المفهوم الجامع ، ولكنها كانت وسيلة إليه وعندما قام هذا المفهوم كانت قد سقطت كل هذه الفرق تماماً ، فقد استطاع المفهوم الجامع أن يصهر في داخله كل حسنات الفرق ، فجعل للارادة الحرة أهميتها وهو خير ما في الاعتزال وجعل النظرة المنطقية أسلوباً في الفهم وهو خير ما في الفلسفة وجعل الأخلاقية طابعاً أساسياً للقيم وهو خير ما في التصوف وجعل حب آل البيت جزءاً من عقيدة الايمان وهو خير ما في الباطنية وهكذا .

ولذلك فإنه من الزيف المسموم القول بأن في الاسلام عدة مفاهيم يحتملها جميعاً والواقع أن الاسلام مفهوم جامع متكامل والنظرة العقلية جزء منه والنظرة الوجدانية جزء منه وإن واحدة منهما لا تستطيع بحال أن تكون ممثلة للاسلام بمفردها . وأن فكرة العقلانية أو فكرة الوجدانية لا يمكن أن تتقدم منفصلة عن سياقها التاريخي وعن حركة المواجهة التي قام بها الفكر الاسلامي إزاء حركة احتواء الاسلام كلها التي قامت من بعد .

وقد وجدت المؤامرة على الاسلام مواجهة صحيحة وصريحة وقوية في العصر الحديث كما حدث ذلك كلما تعرضت مفاهيم الإسلام لمحاولة الاحتواء والتزييف ، وعندما بدأت هذه الحركة في القرن الثاني للهجرة وجدت معارضة بعيدة المدى كشفت زيفها وشبهاتها وأبانت عن أنها حركة

معادية للإسلام ناشئة من وجهة أجنبية خارجة ضد الإسلام والعرب ترمى إلى هدم الدولة الإسلامية بهدم قيم الإسلام ومفاهيمه ، وقد تبين أن هناك معاهدات وعقود بين دولة الروم وبين هذه القوى كما تبين أن بين الحلاج والقرامطة معاهدة مكتوبة وكشف الباحثون أن الذين وضعوا أسس الباطنية والشعوبية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم . وقد أنكرت السنة التى حملت لواء الأصالة الإسلامية : التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعطلين ملحدين ، كما حرص أهل السنة على تعقب الملحدين والكشف عنهم ، كذلك عارضت الأصالة الإسلامية إخضاع الإسلام للجدل العقلى ودعت إلى الأخذ من المعين الأول والمنبع الأصيل : القرآن والسنة ورفضت إلهيات أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها كانت معارضة أشد التعارض مع مفهوم التوحيد الخالص .

وقد وقف الشافعى والأشعرى والغزالى وابن تيمية بصدق أمام أطراف المحاولة وكشفوا قضايا الفلاسفة وعلماء الكلام والمعتزلة والصوفية الفلسفية والباطنية وقرروا أن [منهاج السنة : الأصالة الإسلامية] ليس واحداً من هذه بل هو غيرها وعلينا اليوم أن نقف نفس الموقف وأن نحرر مفاهيم الإسلام من الاسرائيليات القديمة والجديدة ، ومن الوثنيات المتجددة التى يقومون على بعثها اليوم ، ولكى يكون منطلق الفهم واضحاً ، فإن علينا أن نفهم أساساً :

أولا : أن الإسلام فى كلمة هو التوحيد الذى يرتفع عن الوثنيات والتثنية والتعدد وعن الشرك جميعاً وتختلف كلمة إسلام عن كلمة دين فى المعنى العام المتعارف فالإسلام دين من حيث أنه يرسم العلاقة بين الله والإنسان وهو منهج حياة من حيث أنه يرسم أيضا وفى تكامل العلاقة بين الفرد والمجتمع وقد أوجد الإسلام صيغة من التكامل والتوازن والإلتقاء بين الفردية

والجماعية على نحو يحقق ذاتية الفرد وحريته وكرامته ويحقق فى نفس الوقت إيجابية المجتمع ودور الفرد فى بنائه وهو نظام متكامل فيه جذور كل الدعوات التى عرفها العصر من حرية وعدالة ومساواة وتكافل اجتماعى وله فى هذه القيم مفهومه الواضح السمح الخاص به .

ويسمح الإسلام بالاجتهاد والتأويل على نحو لا يتعدى أصوله العامة وقيمه الأساسية التى أقرها ، وكذلك يؤمن الإسلام بالثبات أصلا وبالحركة فى إطار الثبات ولا يقول الإسلام بالتطور المطلق .

ويفرق الإسلام بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو ما أثبتته التجارب الحسية والمعملية ثبوتاً قاطعاً ، وهذا يقره الإسلام أما الفلسفة فهى أمور نظرية يراها المفكرون فى بيئة من البيئات وعصر من العصور فهى ليست ثابتة ولا عامة ، كذلك يفرق الإسلام بين الثقافة والمعرفة فالمعرفة عامة كالعلم وهى ملك البشرية كلها أما الثقافة فهى خاصة وهى مرتبطة بمزاج الأمة ووجدانها وليست قابلة لأن تنقل من تربة إلى تربة .

ولقد كان الفكر الإسلامى مفتوحا دوما يقبل كل ما يراه صالحاً من ثقافات وفكر الأمم فى الشرق والغرب ولكنه كان دوماً قادراً على امتلاك ذاتيته الخاصة وحريصاً على ألا يفسدها أى فكر زائف أو وافد .

ثانياً : إن الإسلام بمفهومه فى التوحيد الخالص قد أنشأ فكراً له طابعه الاستقلالى الكامل ومفاهيمه الواضحة الخالصة التى لا يمكن أن تختلط بمفاهيم الفلسفات وخاصة فيما يتصل بالوثنيات الإغريقية ومفاهيم الفلسفات الهندية والفارسية القديمة ، ولذلك رفض الإسلام العقلانية المطلقة ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ولقد خاض الإسلام معركة ضخمة فى مواجهة الفلسفة اليونانية والوثنيات المجوسية والفارسية والهندية ومواجهة ما دس عليه من إسرائيليات وقاوم ذلك كله ببنائه منهج متكامل مستمد من القرآن نفسه فى مجال تحقيق الحديث

(البخارى ومسلم) وبناه الفقه (مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل) وفى تصحيح المفاهيم (ابن حزم والغزالى وابن تيمية) .

وقد خرج الفكر الإسلامى من هذه المعركة الضخمة بمفهوم أهل السنة ناصعا صافيا مبرءاً من الوثنية ومفاهيم الفلسفات الهلينية والمجوسية .

وبعد فإن هذه المراجعة الواسعة تستطيع أن تعطى الباحث المسلم أرضية صلبة لمعرفة النصوص المختلفة وردها إلى التيارات المتعددة التى صاولت العقيدة الإسلامية فى حلقات التآمر المتصل على الاسلام خلال العصور وتكشف عن كيف واجهتها الأصالة الاسلامية وردت زيفها وأبانت فساد منطلقاتها ثم كيف استطاعت الأصالة الاسلامية دائماً أن تلتمس جوهر العقيدة وأن تتمسك بأصولها وأن ترد كل زيف تجرى المحاولة إلى إضافته إليها.

ولقد كان من أبرز هذه المفاهيم أن كل قيم الفكر الاسلامى الأساسية قد تقررت قبل أن يختار ﷺ الرفيق الأعلى ، جامعة بين العقل والوجدان والدين والعلم والروح والمادة لا إنفصال لأحدهما ولا استعلاء ، وأن هذه الأصول هى التى تقررت يوم أنزل على الرسول من ربه [اليوم أكملت لكم دينكم] فلم تتغير ولم تجر أى إضافة إليها من بعد وكل ماجاء من بعد فهو تفسير أو تفصيل وفق قاعدة الاجتهاد التى أقرها الاسلام لمواجهة تغير العصور والبيئات .

وللاسلام قانونه الذى لا يتخلف أبداً هو أنه يتجدد من داخله ويتحرر من أعماقه، فعندما تهب رياح الجمود أو الجبرية أو الانحراف لتحجب جوهر مفهومه فإنه يكون قادرا إلى (التماس المنابع) ولقد كان لابن حزم والغزالى والأشعرى وابن تيمية وابن القيم مواقف مشهودة فى الكشف عن هذه الشبهات وتلك الاتهامات وتصحيح المفاهيم والتماس مفهوم الاسلام الأصيل .

واليوم نمر بنفس المعركة مرة أخرى ولكن فى شراسة الخصوم وعنفهم وقد تجددت قوى علماء الاسلام ومفكريه للرد على هذه الشبهات ومواجهتها والادالة منها .

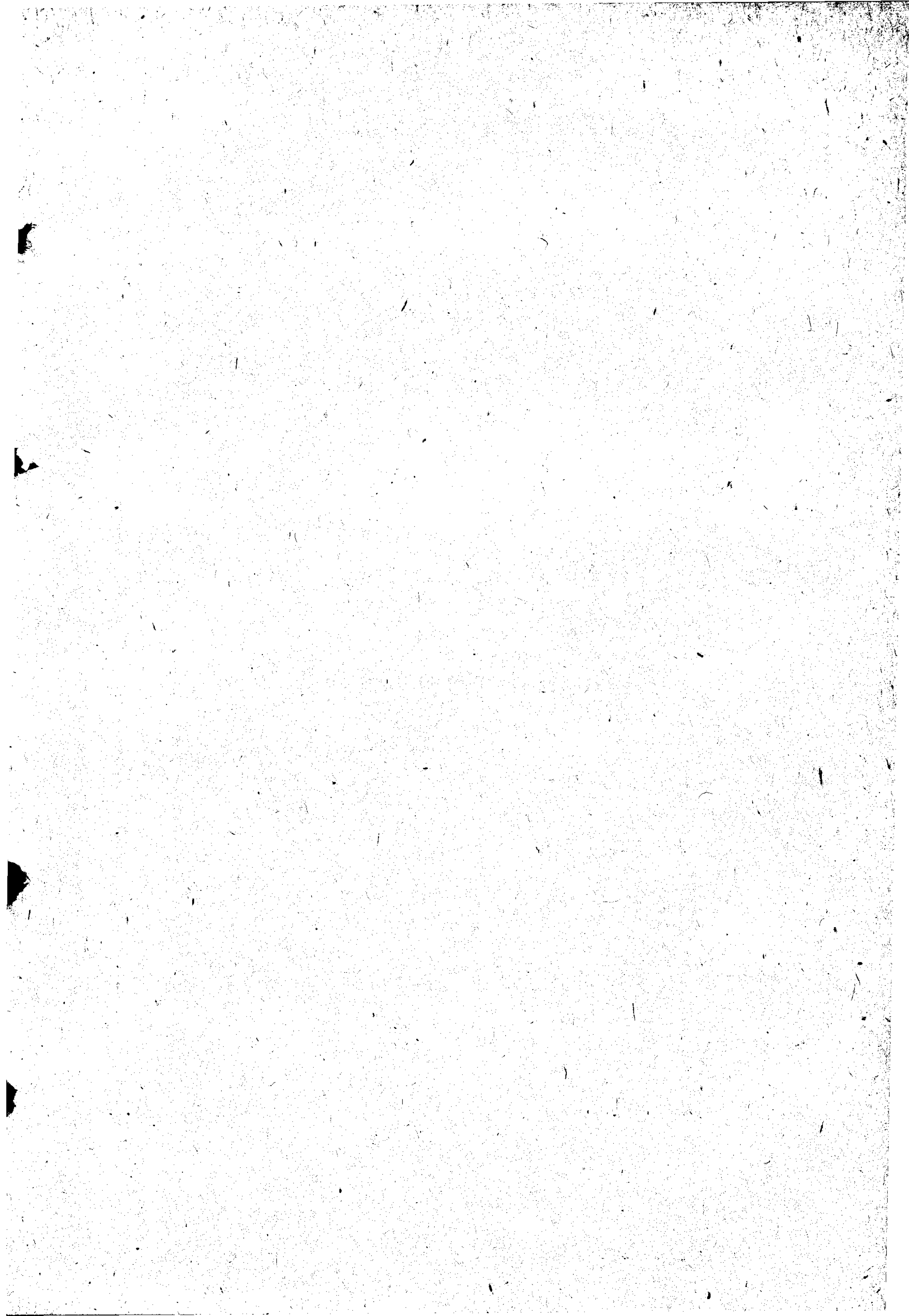
والله من وراء القصد .

المراجع

الامام الغزالى : فضائح الباطنية
« الشافعى : كتاب الأم
« ابن تيمية : الرد على المنطقيين
« أبو الحسن الأشعرى : مقالات الاسلاميين
« ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل
ابن الجوزى : تلبيس إبليس
الشهرستانى : الملل والنحل
أبو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر
الحسن بن عثمان الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندى
مصطفى عبد الرازق : مقدمة فى الفلسفة الاسلامية
مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين
الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام
الدكتور محمود قاسم : الحلاج والباطنية
أنور الجندى : القيم الأساسية للفكر الاسلامى
« : المساجلات والمعارك الأدبية
« : الشبهات والأخطاء الشائعة

الباب الأول

إحياء الفكر المعتزلى



(١)
الإسلام والاعتزال

اهتم الاستشراق ودعاة التغريب والغزو الثقافى بالاعتزال والمعتزلة :
ووصفهم المستشرقون وكتاب التغريب بأنهم اغارقة الاسلام الحقيقيين ،
أو المعتزلة العظام ونعى هؤلاء وهؤلاء على الخليفة المتوكل الذى أعاد السنة
ووصفوا هذه العودة بأنها ردة فى حرية الفكر التى أقامها دعاة الاعتزال
وقال الأستاذ أحمد أمين أن المسلمين ضعفوا وتخلفوا لأنهم لم يأخذوا
بأسلوب المعتزلة العقلانى وأطلق على جمال الدين ومحمد عبده المعتزلة الجدد
وكتب عن هذا كثيرون والف الدكتور البير نصرى نادر كتابا عن المعتزلة
فقال أن أبرز مفاهيمهم وجود العقل وقيام الأخلاق على العقل دون الوحى ،
وقد أعلن المعتزلة سلطان العقل وأيدوه فى مختلف المسائل .

ولما كان الفكر الغربى هو الصورة التى يستمد منها المستشرقون ودعاة
التغريب مثلهم الأعلى فهم يحاولون أن يجعلوا من الدعوة العقلانية مثلا
وشبيها بما جرى فى عصر النهضة حين جرى الفصل بين الدين والعلم واستعلاء
شأن العقلانية واللادينية والعلمانية والمادية وغيرها . غير ناظرين إلى الفوارق
البعيدة بين التفسيرات الغربية للمسيحية التى حالت بين الغرب وبين اقتحام
مجالات العلم والانحباس فى نصوص الجمود والرهبانية والتقليد والجبرية
والفرق واضح تماماً بين ذلك وبين الإسلام الذى حمل منهج المعرفة الجامع
المتكامل الذى يستمد طرائفه ومناهجه من جماع العقل والروح ، ويرى
أن بينهما ترابطاً عضوياً لا سبيل إلى فصمه .

ولعل الاستشراق والتغريب يجدان فى الاعتزال والمعتزلة منهجاً وافداً
له صلته بالفكر اليونانى فهم يعلون من شأنه لهذا الغرض ويرون مدى أثره

فى إفساد الفكر الإسلامى وبلبلة الآراء والحيلولة دون قيام الوحدة الجامعة فهم يجددونه ليكون له فى العصر الحديث نفس الأثر القديم .

ولاريب أن فكرة الاعتزال جاءت أصلا من الفلسفات الهندية واليونانية والفكر الوثنى القديم وأنها حين حاولت فى أول الأمر أنه تواجه المتكلمين فى الديانات السالفة للاسلام استطاعت أن تحقق نتائج طيبة ولكنها حين استقلت بنفسها وخرجت عن حدودها لتقيم لنفسها منهجاً عقلانياً خالصاً يستعلى على مفهوم الإسلام الجامع فإنها قد انحرفت انحرافاً شديداً وأخطأت خطأ بالغاً .

ولكن الفكر الإسلامى لم يلبث أن تجاوزها إلى منهجه الأصيل بما أعلنه الأشعرى حيث أدار أسلوب العقل فى دائرة الوحى .

وكان أخطر ما أحدثه المعتزلة هو الاتصال بالحكم وفرض مذهبهم الفكرى على الدولة وبذلك دخلت المعتزلة تلك المرحلة الخطرة التى عرضت مئات العلماء والباحثين إلى الامتحان والعقوبة خلال حكم ثلاثة من الخلفاء هم المأمون والمعتصم والواثق وخلال ستة عشر عاماً كانت من أقسى أعوام مصادرة الرأى وكان ذلك فى أمر لايدخل فى إطار الشريعة الإسلامية ولا فى الأصول العامة للاسلام ولكن فى أمر محدث لم تعرفه السنة الصحيحة وبما دخل إلى الفكر اليونانى والوثنى القديم وكان موقف الإمام ابن حنبل فى ذلك الأمر غاية فى القوة فى معارضة هذا الخطر حتى انكشف فساده وعاد الأمر إلى الأصالة التى هى المذهب الجامع .

وكانت هذه هى نهاية المعتزلة : وهى نهاية مظلمة .

(٢)

ماهو خطأ المعتزلة فى مجال الفكر :

اعتمدت المعتزلة العقل ولو خالف ظاهر النقل وبذلك خرجوا عن مفهوم السنة الأصيل .

« فلقد كان القرآن هو المصدر الأصيل يرجع إليه الباحثون وإلى السنة لا يصدرون عن غيره ولا يطمئنون إلى سواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب وهي بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء وإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور لله » .

غير أن المعتزلة خالفوا هذا المنهج وحكموا العقل في كل شيء وجعلوه أساس بحثهم .

٢ — كذلك فان انشغال المعتزلة بمنازلة خصومهم من الزنادقة والروافض والثنويه وغيرهم قد أخذوا بطرق محاربيهم في القتال وكانوا يعتدون بأسلحتهم وهكذا فانهم تأثروا بخصومهم وأخذوا عنهم بعض مناهجهم قال ينبرج : من نازل عدواً عظيما في معركة فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله ويلزمه أن يلاحق عدوه في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله وكذلك الأمر في معركة الافكار .

لقد مضى المعتزلة في الاستدلال العقلي فإذا بدأ خلاف في ظاهر النصوص بين رأي يقرونه ورأي لا يقرونه أولوا النص بما لا يخرج من معناه ولا يخالف رأيهم . وإن هذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل وللعقل نزوات وغيره . ولذلك وقعوا في كثير من الهنات دفعتهم إليها نزعتهم العقلية .

٣ — وقد وجد كثيرون من خصوم الإسلام في المعتزلة عشا يفرخون فيه بمفاسدهم وأرائهم ويطلقون من قنواته سمومهم على الإسلام والمسلمين .

(٣)

ولعل أخطر مقولاتهم : هي قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة

الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع ، يقول السيد أبو الحسن الندوى : أسرف المعتزلة فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الإنسانى وقد لاحظ الدكتور أحمد أمين وكان من المنتصرين لهم - ان نقطة الضعف فيهم أنهم أسرفوا فى تمجيد العقل والإيمان بقوته واقتداره يقول : (رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله (تعالى) فلا حدود للعقل إلا براهينه) .

والرأى : إن العقل أضعف من ذلك وإن استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشأنه هو ، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله تعالى وصفاته .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الإنسان وإخضاع الله تعالى لقوانين العالم ، وقد ألزموا الله مثلا بالعدل كما يتصوره الإنسان وكما هو نظام دنيوى وفاتهم أن معنى العدل - حتى فى الدنيا - معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ونحن فى أعمالنا ننظر إلى عالمنا والله تعالى رب العالمين ينظر فى أعماله إلى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نخضع الله لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا » .

ويقول : هذا هو خطل الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة والذى كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد وحقائق له ، ولا ريب أن قياس الغائب على الشاهد إتجاه خطر على الإسلام وفتح باب فساد عظيم فى المجتمع الإسلامى ، لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملى الذى جاء به الرسول ، والذى يستسيغه العقل البشرى بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها وأساغتها كثير من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ،

وإضعافاً للايمان وإثارة الشبهات والشكوك وعدم الثقة بما يقوله النبى مما يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل على وجوده . وفى العالم ما أكثر ما يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل عليه » .

(٤)

وعيب المعتزلة وقصورهم - إنهم نقلوا « الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، والدين خلاف الفلسفة ، وقد وصل بهم تقدير العقل إلى ما يشبه تقديس العقل وكان استخدامهم المنهج الجدلى من شأنه أنه يعطى براعة فى التفكير ولكنه يظل مع ذلك عاجزاً عن إعطاء الروح ما يرضيها ويسد حاجتها فالى براعة التفكير كان هناك ضعف الروح ، والمغالاة فى تقدير العقل والقصور فى جانب العاطفة ، كانت البراعة الفائقة فى الكلام قد أعطتهم القدرة على الكلام فى الشيء وضده والمعنى ونقيضه بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الاقناع كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع .

(٥)

ولا ريب أن المعتزلة قد عجزوا عن إدراك تكامل الإسلام الجامع بين العقل والوجدان . ودفعهم تعصبهم للعقل على تجاهل الجانب الآخر لمنهج المعرفة الإسلامى ، بل إنهم ذهبوا إلى حد اضطهادهم لكل من يرى غير رأيهم ، وغفلوا عن عجز العقل وحده عن إعطاء حاجات النفس البشرية الجامعة : حاجة الوجدان وعالم الغيب من قدرات حسيه وعاطفية مختلفة . يصور هذا المعنى الدكتور عماد الدين خليل حين يقول :

تظاهرات المعتزلة الفكرية وتشبثهم المتشنج بالعقل واضطهادهم المذهبى لكل معارض وهم يقرأون ما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعاً فى القرآن دعوة لأعمال الفكر البشرى فى كل صغيرة وكبيرة وفى تحريك العقل لحل

المشاكل الأساسية وهم يقرءون فى نفس الوقت أن العقل وحده ليس بقادر على إنتشال الانسان من معضلاته الكونية وإنه لو كان قادرا حقا لانتفت الحاجة أساساً لمجىء الأديان وإنزال القرآن ويدركون من خلال عشرات المواضيع القرآنية إن وراء العالم يمكن للعقل أن يتعامل مع عالم غيبى شامل بعيد ، خفى محيط يأبه عن قدرات الإنسان الحسية والعقلية ، ولكنه حق واقع ، كما أن علم الطبيعة الملموس حق واقع وإن الإيمان به والتسليم بوجوده يجىء بمثابة حجر الزاوية لكل إيمان حقيقى كامل. لقد قدم كتاب الله المسألة بطرفيها فلماذا نجتح ونغادر الموقع الوسط الشامل المتوازن » .

وأخطر ما يقف منه المعتزلة موقف التحدى هو « الوحى » :

والوحى ظاهرة غيبية صرفه لاتخضع للاختبار العقلى وإن مجرد التسليم بسائر ما ينبثق عنها من وقائع عينية موثقة وردت فى سيرة الرسول .

ولاريب إن كل هذا مما تنتفع به حركة التغريب والغزو الثقافى فى توهين اكتمال الرسالة الإسلامية وتعدد جوانبها وعمق صلتها بعالم الغيب ، ودفع الناس إلى الظواهر والمحسوسات والمعقولات وحدها . وبذلك ينقطع ذلك التكامل الجامع من المادة والروح والعقل والقلب وبذلك يفقد الإسلام ميزته الربانية الأساسية ويصبح شبيها بالنحل والمذاهب البشرية . وهم لايقفون عند هذا الحد بل إنهم يعملون فى المجال الآخر : مجال التصوف العقلى ووحدة الوجود وشطحات الروح والخيال ويغذونها حتى ينشئوا لها أنصاراً وأعواناً وبذلك يفقد هؤلاء أيضا تكامل الإسلام الجامع بين العقل والروح وبذلك يصبحوا موهومين منطلقين وراء الأهواء . ولا أن ريب العالم قبل الإسلام كان منقسما إلى فريقين : العقلانيين اليونانيين ومن تابعهم وفريق الغنوصيين الاشرافيين وكل منهما يرى أن أسلوبه هو وحده الأسلوب الصحيح وكلاهما مضلل فى وجهة نظره ، انشطارى فى نظرته

وعقيدته ، ثم تجدد هذا الأسلوب مرة أخرى بعد ترجمة الفلسفات ويتجدد اليوم مرة أخرى ليمزق جبهة المؤمنين بالله إلى عقلانيين ووجدانيين ولكى يقيم بين هؤلاء وهؤلاء تلك الحواجز العالية والأسوار الضخمة حتى يتصارعوا ويتمزقوا ولا يصلوا إلى حقيقة الإسلام التى تجعل المسلم عقلانياً ووجدانياً فى نفس الوقت ، استمداداً من جوهر مفهوم القرآن والسنة وبعيداً عن المغالاة والانحراف ، وتحرراً من الفكر الوافد الوثنى والمجوسى والمادى الذى هو من صنع العقل البشرى .

(٦)

أخطر ما عمد إليه المعتزلة فتح باب التأويل على مصراعيه فأولوا الدليل النقلى إذا لم يتفق مع ما انتهوا إليه فى بحثهم العقلى واستشهدوا به إذا كان يتفق مع القيمة العقلية التى خلصوا إليها ، بل أنكروا الدليل العقلى فى مجال الأحاديث النبوية إذا لم يجدوا وسيلة إلا ذلك فهم أمام العقل يسلمون ما وافق منها البرهان العقلى ويؤولون ما خالفه فالعقل هو الحكم فى الآيات المتشابهات وهو الحكم على الحديث ليقرر عدم صحته إذا لم يوافق العقل ويحتمل التأويل .

وقد تطرق المعتزلة فى التأويل العقلى حتى بلغوا نفى الصفات الإلهية ومنها وصلوا إلى التعطيل وهذا أسوأ ما وصل إليه غلو المعتزلة ، وكان أخطر قرارتهم : ترجيح المعقول على المنقول ، وما المنقول إلا السنة التى هى من عطاء الرسول إلى جوار الوحى : وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين قال :

« أوتيت هذا الكتاب ومثله معه » : يعنى السنة .

وهكذا نجد المعتزلة حين اتخذوا البراعة فى الكلام هدفاً ، يتكلمون فى

الشىء وضده بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الإقناع قد خرجوا عن الحق الذى كانوا يدعون إليه وقد شغلهم هذا حتى تفننوا فى استعمال الألفاظ على نحو يؤيد دعواهم مهما بلغ ذلك من الخروج عن الحق الأصيل وكأنهم خرجوا من مدافعة خطر الرد على الزنادقة وكيدهم إلى ابتداع كيد أشد خطراً هو الانحراف إلى الجانب العقلى وحده وترك مفهوم الإسلام الكامل الجامع وقد وصل ذلك إلى محاولة إخضاع العقائد الإسلامية للعقل وكان هذا اتجاهاً شديد الخطر على الإسلام وانحرافاً به عن مفهومه الجامع بين العقل والقلب .

(٧)

تعد فكرة خلق القرآن من أخطر ماوصل إليه المعتزلة من استعلاء عقلى وهى فى نفس الوقت مقتلهم ومصدر هزيمتهم الساحقة . وذلك بعد أن استطاعوا الاتصال بالحكام وأعلنوا التعصب الحاد وصمموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام وتبنى قاضى القضاة أحمد بن أبى داود هذا الاتجاه ، وجعلوا مدخلهم إلى هذا النفوذ والسلطان مسألة خلق القرآن فقد وصف المعتزلة القرآن بالمخلوق اختلافاً ومعارضة مع مايراه مفهوم الإسلام الأصيل من أن القرآن هو كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق . وإن إثارة هذه المسألة بدعة لم يقل بها النبى صلى الله عليه وسلم ولاصحابته ، وأنه إذا تردد فى العامة أن القرآن مخلوق لم يبق فى نفوسهم له أى تقديس أو إجلال ولكن المعتزلة أصروا على فرض هذه النظرية الوافدة فحملوا عليها الناس وحمل لواء الدعوة إلى ذلك المأمون ودعا إليه علماء المسلمين قبل وفاته بأربعة أشهر عام ٢١٨ وأمر بإقصاء كل من لا يدين بذلك وعقد الامتحان للعلماء فكان ذلك بمثابة محنة كبرى ، وأوصى خلفائه بالاستمرار على هذا الاتجاه حين وفاته .

وقد عجز كثير من العلماء والمشايخ والفقهاء عن مواجهة هذا الموقف والإعلان ببطلانه ماعدا أربعة هم أحمد بن حنبل وسجاده والقواريري ومحمد ابن نوح وقد شدوا فى الحديد ، واستسلم سجادة واجاب القواريري بعد يوم ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد وتركزت المقاومة فى إمام السنة : أحمد بن حنبل وكان قول المعتزلة بخلق القرآن : إنكار لقدسيته وعظمته وجلاله ، وذلك هو مقتلهم وغاية انحرافهم عن منهج الأصالة الإسلامية الجامع بعد أن أعلنوا أن العقل وحده وبدون مساعدة الشرع قادر على معرفة الله تبارك وتعالى وليس هذا منهج الإسلام ولا طبيعة الأمور . ولو كانت للعقل هذه القدرة لما أرسل الله تبارك وتعالى الرسل .

وقد استمرت فتنة خلق القرآن سبعة عشر عاماً : خلال أيام المأمون والمعتصم والواثق ذاق فيها المسلمون كل ألوان التحدى والاضطهاد ، ووقف الإمام أحمد بن حنبل موقف المعارضة والصمود طوال هذه الفترة ، واحتمل التعذيب والاضطهاد والسجن وكان لثباته وشجاعته وإخلاصه أكبر الأثر فى انطفاء فتنة خلق القرآن فقد وقف صامداً كالسد المنيع فى وجه تيار ذلك الخطر الفلسفى اليونانى الذى حاول احتواء عقيدة الإسلام وتوهين أصالة المفهوم الإسلامى الجامع ، والذى عرض كل مقومات الدين من توحيد ووحى ونبوة للخطر وقد اعترف المؤرخون والباحثون جميعاً بأن صمود ابن حنبل ومقاومته وهو الأعزل قد سدت ثلمة الخطر الذى كاد أن يحدث فى الإسلام .

ويشير المؤرخون إلى أن أحمد بن أبى داؤود هو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء فى أمر خلق القرآن وكان المأمون بطبيعته مؤهلا لهذا الاتجاه . وعندما بدأت مرحلة التعصب الشديد والمبالغة فى محاكمة علماء المسلمين

وإرغامهم على قبول هذه الشبهة التى تتعارض مع المفهوم الأصيل للاسلام الذى يتحدد فى أن كلام الله تعالى قديم وغير مخلوق ، وقد نقل المأمون الخلاف إلى دائرة السلطان فتدخل بوصفه الخليفة وأكره الناس على التسليم بوجهة نظر مستحدثة فى أمر من أمور الدين ، « وقد ارتكب بسبب هذه الفكرة من التنكيل بالعلماء مايحمل المأمون وزره ووزر من أتى بعده ومن شاركه فيما يدعو إليه . وقد مضى المعتصم على خطة المأمون فولى منصب قاضى القضاة إلى أحمد بن أبى داؤود ، وكان تأثيره على المعتصم أكبر . ولذلك سار المعتصم فى الفتنة وترك لابن أبى داؤد مناظرة المخالفين والتهجم عليهم واتهامهم بالمروق من الدين ، فقتل من قتل ، وضرب الإمام أحمد بن حنبل من أجل ذلك بالسياط وذلك عام ٢٢٠ هـ .

وفى عام ٢٢٧ جاء المتوكل وجاء معه اعتدال الميزان نحو الأصالة الاسلامية وقد انتقم الله تبارك وتعالى من ابن أبى داؤد انتقاماً شديداً مراً فأصيب بالفالج وصودرت ضياعه وأخذ من ولده مالا بلغ مائة ألف وعشرين ألف دينار وجوهراً بأربعين ألفا وعادت السنة إلى مكانها وعاش أحمد بن حنبل بعد عزل بن أبى داؤد أربعة أعوام ونيف يشاهد تقلص نفوذ وثراء وغنى هؤلاء الذين طمعوا فى أمر الدنيا وخرجوا عن جوهر الدين .

ومنذ أيام الواثق تبين أن المؤامرة فاسدة ، وأن الدعوة باطلة ، وقد جوبه الواثق بحجة دامغة ردعت ابن أبى داود وأعادت للخليفة صوابه وصرفته عن متابعة الأذى بسببها ذلك أنه جىء بشيخ إلى الواثق من أذنة أوردت النجوم الزاهرة قصته وكتبها صاحب كتاب أحمد بن حنبل والمحنة (ولتر مالفيل باتون) على نحو رائع قال : قال الواثق لابن أبى داود : ناظره .

فسأل الشيخ ابن أبىداود إذا كان مذهبه فىخلق القرآن أصلا ضرورياً من أصول الإيمان على المؤمنين أن يقروا به فأجاب ابن أبى داود نعم . ثم

استفسر الشيخ قائلا : بأن الله بعد أن بعث الله محمداً ليبلغ الوحى إلى قومه هل كتم شيئاً من الرسالة التى أبلغها فأقر ابن أبى داوٗد بأن محمـــداً أبلغ الرسالة كاملة ، وعند ذلك سأله مناظرة عما إذا كان النبى وعلى أساس الوحى الذى كان واسطة فى إبلاغه قد دعا الناس إلى الإقرار بأن القرآن مخلوق فلم يحر ابن أبى داود جواباً فطلب الشيخ من الواثق أن يعد هذه نقطة فى جانبـه تؤيد دعواه فأقرة الواثق على هذه النقطة . وكانت الخطوة الثانية من النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية الكريمة « اليوم أكملت لـكم دينكم » وذلك حين سأل الشيخ عن الـكيفية التى يبرز بها استحداث فـكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الآية ولم يحاول ابن أبى داود أن يدافع عن موقفـه إزاء هـذا الهجوم وطالب الشيخ أن تعدهذه نقطة ثانية فى تأييد حجته وسلم الواثق بذلك.

وفى الخطوة الثالثة من المناظرة سأل الشيخ عما إذا كان النبى قد عرف النحلة المذهبية التى دعى الناس إليها فى ذلك الوقت وعما إذا كان النبى قد دعا إلى الإقرار بها فزعم ابن أبى داود أنه قد علمها ، ولـكن لم يجب عما إذا كان النبى قد ألزم المسلمين الإيمان بها أم لا . وهنا طلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة وأخيرة فى تأييد حجته .

بيد أن الشيخ لم يقف عند هذا الحد بل احتج قائلا بأنه إذا سلمنا بأن محمداً علم بهذه النحلة كما علمها الخلفاء الأوائل وأنهم جميعا قد رضوا بالامتناع عن حمل الناس على الإقرار بأن القرآن مخلوق فهل من الواجب على داعيـة جديد أن يشتد فى القيام بما لم يقوموا به ولو فرضنا أن النبى والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية أفما كان الأجدر به أن يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصى من أرائه الخاصة كما صنع السلف بدلا من أن يزعموا الناس على الإقرار بها مثلما عمد هو نفسه إلى ذلك » ا . هـ .

كانت عبارة الشيخ الأذنى : لم لم يدعو الناس كما دعوتهم أنت ، أما يسعيك ماوسعهم ، فدخل الواثق المنزل فاستلقى على ظهره وجعل يكرر

قول الشيخ على نفسه: «أما وسعك ماوسعهم» ، ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده ورفض الشيخ أن يقبل ماوهبه إياه .

وهذا هو نفس ماقاله أحمد بن حنبل حين قال :

القرآن كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق .

لقد كان المعتزلة أسرع الفرق إلى السقوط فى أتون الفلسفة اليونانية ومحاولة صبغها بصبغة إسلامية ، وقد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا إذ حملوا النصوص مالا تحتمل ، وبالغوا فى ذلك مبالغة شديدة ، وكانوا أول من تحطم بها ومنهم خرجت كل الفرق التى وصفت بأنها منحرفة عن مفهوم الأصالة الاسلامية والتوحيد الحق (إتباع جهم بن صفوان وضرار ابن عمرو وبشر المريسى وغيرهم من اتباع الباطنية والمؤامرة المجوسية) .

(٨)

وقف أحمد بن حنبل فى وجه المحنة ثمانية عشر عاماً . سجنه المأمون وحاكمه الواثق وكان مكثه فى السجن منذ أخذ إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهراً وكانت صيحته المدوية فى محاكماته : «أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به: القرآن كلام الله لا أقول مخلوق» وقد أقام صابرا محتسباً أمام المأمون والمعتصم والواثق ووقف سداً منيعاً — كما يقول العلامة أبو الحسن الندوى — فى إتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفى المتهور الذى لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى وعن النبوة المحمدية ولخضعت للفلسفات وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ولانتصرت السياسة على الدين انتصاراً مؤبداً وسلبت حرية الرأى والعقيدة » وهكذا كانت وقفة أحمد ابن حنبل أول ضربه معول فى هذا الإحتواء الخطير الذى اشتشرى حين طمع المعتزلة فى السلطان وغالوا فى نشر مذهبهم وتعصبوا ضد كل من لا يوافق نحلتهم حتى لقد بلغ بهم انه لما حدثت مفاداة

بين الأسرى المسلمين والأسرى الروم فى زمن الواثق ٢٣١ ارسل أحمد بن أبى دؤاد رسولا من قبله يمتحن الأسرى فى ميولهم الدينية حتى لا يفتدى منهم من يقول بخلق القرآن .

وقد أنكر المسلمون بعامة هذه البدعة ووقف مسلمو الأندلس فى وجهها معارضين . وكانت وقفة ابن حنبل إزاء هذا التيار الجارف المتمكن بقوة السلطة أمانا للنفس الإسلامية مما حفظ لها مفهوم الإسلام الأصيل دون تحريف يخرجه عن جوهره وبساطته ومنابعه الأولى ولم يبال فى سبيل ذلك التعذيب والضرب فأخذ وسحب ثم خلع ، وشدت يديه خلعتا ولم يزل يتوجع منهما حتى مات وكان الجلادون يتناوبونه بالضرب ، وكانوا يناقشونه كل ليلة وهو لا يتزحزح عن موقفه . فإذا انصرف أضيف إليه قيد جديد يوضع فى قدمه . قال : لقد ذهب عقلى مراراً فكان إذا رفع عنى الضرب رجعت إلى نفسى وكان يقول : يارب إن كنت على حق فلا تبد عورتى .

وقال له تلميذه المروزدى : ولا تقتلوا أنفسكم، قال يامروزى : اخرج وأنظر فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى والصحف فى أيديهم والأقلام والمحابر فقال لهم المروزى أى شىء تعملون : قالوا : سننتظر مايقول أحمد فنكتبه فدخل إلى أحمد فأخبره فقال : يامروزى : أأضل هؤلاء كلهم ، إذا سكت العالم تقيه ، والجاهل يجهل فمن يظهر الحق .

قال ابراهيم بن مصعب الشرطى : مارأيت أحداً اثبت من أحمد بن حنبل قلبا يوم المحنة .

فلما انكشفت المحنة ، عفا عن كل من أساء إليه ، وأرسلت إليه عطايا المتوكل فردها وكان عيشه من تملك عقاره الذى ورثه عن أبيه وكان يقول :

« ما على رجل الا يعذب الله بسببه حد » .

(٩)

أول من تكلم بخلق القرآن الجعد بن أدهم من دمشق معلم مروان بن محمد وعندما طلب هرب ، ونزل الكوفة تتعلم منه الجهم بن صفوان وقيل ان الجعد أخذ ذلك عن ابان بن سمعان وأخذه ابان عن طالوت بن أعصم اليهودى ، وتأثر الجهم بن صفوان بالجعد وكان ينفى الصفات عن الله تعالى واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن .

وكان لبيد بن أعصم اليهودى فى زمن الرسول فى المدينة يقول بخلق التوراة ويرى بعض الباحثين ان جماعة من اليهود الذين أظهروا الإسلام اندسوا بين المسلمين بالبصرة ، وقد تعرف إليهم واصل بن عطاء وجعل يتردد عليهم ومن قولهم ان الخير من الله والشر من أفعال الإنسان وان القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وان الله تعالى غير مرئى يوم القيامة وان المؤمن إذا ارتكب الذنب فشرب الخمر وغـــيره يكون فى منزله بين بين لا مؤمناً ولا كافراً وان اعجاز القرآن فى الصرفه لا انه فى نفسه معجز أى ان الله لو لم يصرف العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه . فلما تحدث واصل فى هذا فى مجلس الحسن البصرى نهاه الحسن ، فاعتزل وأقام حلقة أخرى فى المسجد وأرسل أصحابه الذين علمهم إلى الغرب واليمن وخراسان والجزيرة والكوفه وارمينية وقد تجمعت طائفة من هؤلاء لدى المأمون الذى كان متأثراً بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم من ناحية والذى كانت نزعته الفارسية التى ورثها عن أمه وبيئته التى تربى بها ذات أثر كبير فى إتجاهه ذاك ..

فقد أباح المناقشة أمامه فى مسائل شائكة منها علاقة الإنسان بخالقه وطبيعته الألوهية كما أباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين أفضل .

وأدنى منه رجلان من أسوأ أهل عصره : بشر المريسى وأحمد ابن أبى داؤد أما بشر المريسي فكان أبوه يهودياً صباغا بالكوفة فى سوق المراضع كما

ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد قال : حدثنى صالح العجلى حدثنى أبى قال رأيت بشر المريسى مرة واحدة شيخاً قصيراً دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر أشبه شىء باليهود .

وكان يدخل المريسى على المأمون وكان الشافعى ، والطوسى يذكر انه فى مجلسه بما يكشف عن فساد رأيه : ثم كان أحمد ابن أبى داؤد ممن قربهم المأمون ، وبذلك استطاعت المعتزلة أن تصبح ذات نفوذ ضخم بعد أن تقبل المأمون رأيهم فى خلق القرآن .

وكان بشر المريسى يقول بخلق القرآن إبان حكم الرشيد الذى توعده : وقال بلغنى ان بشراً يقول القرآن مخلوق والله ان أظفرنى الله به لاقتلنه : واختفى بشر حتى ظهر فى أيام المأمون واستطاع أن يكون من أهل الطول ، قال الخطيب البغدادى انه ظل يدعوا إلى ذلك نحوا من أربعين سنة ويؤالف فيه الكتب .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا إليه تفضيل على على أبى بكر وعمر فاشمأزت النفوس منه ، وقد تحدث المؤرخون عن البدع المأمونية الأربع :

لبس الخضرة وتقريب العلوية ، والقول بخلق القرآن ، وأخذ الجند بالتكبير بعد الصلوات الخمس ، وإباحة زواج المتعة الذى رجع عنه بعد . وقد حمل الناس على القول بخلق القرآن فكانت من أسوأ المواقف فى حياته وأسود الصفحات .

(١٠)

بعد سبعين عاماً من وفاة أحمـــد بن حنبل ظهر أبو الحسن الأشعرى مدافعاً عن [الأصالة الإسلامية] متخذاً نهج أحمد بن حنبل بعد ان أمضى

اربعين عاما فى صف الاعتزال ، ولم يكن أبو الحسن راضياً كل الرضا عن طريقة الاعتزال لغلوها فى التأويل وترجيح المعقول على المنقول .

ولذلك رأى الأشعرى ان الأصالة الإسلامية تقضى ان يسلك طريقا أكثر ملاءمة لمفهوم الإسلام الجامع ، يوفق بين الدليل العقلى وبين الوحى والسنة ، وقد هدى إلى أسلوبه الذى اعتمد على النظر العقلى فى إطار القرآن والسنة ، مقدماً السمع على العقل بعد أن كان المعتزلة يقدمون العقل على السمع وقد كشف أبو الحسن عن إنحراف المعتزلة عن منهج القرآن الجامع وطريق الاسلام المتكامل ، فقال إنهم وجهوا القرآن وجهة تتفق مع تخيلاتهم وأولوه على حسب مذهبهم ، وخلبت التفاسير عقول المسلمين لما حوت من قوة الجدل وطلاوة العبارة وبراعة القدرة على الباس الباطل ثوب الحق ، ولذلك فقد استطاع الأشعرى ان يرد عليهم بنفس أدلتهم الكلامية التى تعلمها منهم فاستطاع ان يدحضها ويرد على الحجة بحجة أقوى ، ومن ذلك قوله :

ان أهل الزيغ تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به من سلطانا ولا رووه عن رسول الله ولا عن السلف المتقدمين وإنما أخذوا تفسيرهم عن ابن الهزيل وابراهيم النظام والفوطى والاسكافى والجبائى والبلخى وغـــيرهم من قادة الضلال » ويقول ان أهم ما أزعجه ان الجبائى (أستاذه) ألف فى تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله وما روى فى كتابه حرفا واحداً عن أحد من المفسرين وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه ولولا انه استقوى بكتابه كثيراً من العوام لم يكن لتشاغلى به وجه » .

وبذلك نرى ان الاسلام يصحح طريقه ويحرر منهجه كلما انحرفت به جماعة أو دعوة تحاول أن تخرجه عن أصالته وتكامله الجامع ، وقد كشف الأشعرى أخطاء المعتزلة فى خلق القرآن ونفى صفات الله والقضاء والقدر ،

وكلها مسائل جاءتهم من الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو الذى فرق المسلمين وفتح باب التأويل فقد أخذ المعتزلة بطرفهم فى التأويل العقلى حتى بلغوا مع نفى الصفات الالهية إلى التعطيل وقالت الكرامية بالتشبيه والتجسيم وقالت الجهمية بالجبر وكلها فروع من مفاهيم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحى .

يقول السيد أبو الحسن الندوى : ظل الأشعرى يتزعم المعتزلة أربعين سنة ثم ثار عقله الكبير و نفسه القلقة على مذهب الاعتزال ، ونشأ فى نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وإمعانهم فى القياس وتحكيم العقل وصار يشعر بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعى وللمقدمات والأصول التى ظنوا وصور لهم ذكاؤهم انها قطعية وتأولوا القرآن على آرائهم واقتنع بأن الحق الصراح هو الذى كان عليه الصحابة رضى الله عنهم وسلف الأمة .

* وقد عكف فى بيته خمسة عشر يوما يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى أطمأنت نفسه واستقر رأيه ورأى انه لا يسعه إلا بإعلان البراءة من الاعتزال والرجوع إلى مذهب السلف. فخرج إلى الناس بالمسجد الجامع بالبصرة ورقى كرسيا ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فانا أعرفه بنفسى أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الأبصار وان أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم .

كان أخطر محاذير الاعتزال الاتجاه إلى تقديس العقل وتحكيمه فى المسائل التى لا تقوم إلا على تعليمات النبوة والايمان بالغيب ، وكان مصدر ذلك هو الفلسفة اليونانية التي وجدت منطلقها فى موجة عارمة كادت

تكتسح الايمان بالغيب والاعتماد على تعاليم الأنبيـــاء . وازدهر الفكر الفلسفى على حساب القلب والعاطفة وعلى حساب العمل .

وقد رد عليهم أبو الحسن الأشعرى وتتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً .

أولا : لم ينكر الأشعرى العقل ولكنه وضعه مكانه الحق . ليس العقل مقدسا وليس سلطة لا تحد وليس له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبيعة .

ثانياً : أعلن أن مصدر العقيدة هو الوحى والنبوة المحمدية والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم وان الكتاب والسنة هو مصدر المسائل التى تتصل بالالهيات وما وراء الطبيعة وليس العقل المجرد والميتافيزيقا اليونانية .

ثالثاً : اثبت القدر لله تبارك وتعالى خيره وشره واثبت صفات الجلال لله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وسمعه وبصره وكلامه وان القرآن كلام الله غير مخلوق وان الله تعالى موجود يرى بالأبصار يوم القيامة وأقر السمعيات كلها وعذاب القبر ومنكر ونكير والصراط والميزان والحوض . وان أسماء الله لا يقال أنها غير الله .

رابعاً : دعا الأشعرى إلى التفويض لله فيما ليس ميسورا تعليله من الغيبيات ونهى عن الجدل والمراء فى الدين والخصومة فى القدرة ويرى ان على المؤمنين الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله والإنتهاء عما نهى عنه واخلاص العمل والنصيحة للمسلمين .

واعلن ان المعتزلة تأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ولا أوضح به برهاناً ولا نقلوه عن رسول الله ولا عقيدة السلف

وانهم اتبعوا أهوائهم فى فهم الدين ولم ينظروا فى الكتاب والسنة مجرداً ولم يتخيروهما اماماً ومصدراً لعقائدهم وآرائهم بل كلها تعارض القرآن مع ما إنتحلوه من آراء وعقائد تأولوا بها القرآن .

هذا وقد تطور مفهوم الأصالة الإسلامية كما رسم الأشعرى على يد الباقلانى والجوينى والغزالى وبذلك سقط مفهوم المعتزلة الذى انكشف إنحرافه وزيفه .

ولم يعد فى الإمكان انبعاثه مرة أخرى بصورته الأولى المحرفة ، التى اعتمدت على فلسفات الأديان وعلى مفهوم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحى والتى توحى بأن وراءها هدف من أهداف إحتواء الإسلام ، وما كان فى الإمكان فصل هذا المفهوم الذى قاومه أحمد بن حنبل ثم كشف عن زيفه الأشعرى وتابعه رجال أمثال الجوينى والغزالى ما كان فى الإمكان فصله عن سياقه للدعوة إليه مرة أخـــرى فى العصر الحديث باعتباره مفهوماً فلسفياً أو نظرية مجردة بينما لم يكن هو كذلك وفى ضوء ذلك الواقع الأليم الذى فرض فيه المعتزلة مفاهيمهم المضطربة بقوة السلطان والتى لم تستطع مواجهة ضوء الحق ولا نور العلم والتى تخلى عنها الذين حملوها، ما عدا أصحاب المطامع والأهواء ، ثم كيف جاءت الأبحاث الصحيحة ناسفة لكل دعاواهم الباطلة .

أن مطالبه بعض الكتاب والمفكرين بالعودة إلى فهم المعتزلة ، يوحى بما وراء هذا المذهب فى أوله من أهواء اليهودية وخطط الباطنية والمجوسية لهدم الإسلام ، وإعادة اصطناع هذا الأسلوب مجدداً فى العصر الحديث وما فلان وفلان إلا خلفاء المريسى ، وابن أبى دؤاد ، وجهم بن صفوان .

(٢)

الإسلام والعقلانية

قال الإمام الشافعي : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا بتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطوطاليس » . وقد كانت الترجمة هي مصدر استعلاء التيار العقلي الذي كان واحداً من عدة تيارات أخرى ، كالإيمان والوجدان فلما استعلى التيار العقلي بالذات ، كان ذلك ولا ريب راجع إلى أثر الفلسفة اليونانية التي استطاعت إحتواء الفكر اليهودي والفكر المسيحي من قبل وضعت ما سمي باللاهوت المسيحي بحيث أصبح العقل أساساً للإيمان ، أما الإسلام فقد كان له مفهومه الواضح عن العقل كأداة بجوار عدة أدوات أخرى للايمان منها الوجدان والإحساس القلبي .

لقد حاولت المعتزلة الخروج عن فهم الإسلام الجامع بتقديس العقل واعتباره السبيل الواحد في البحث ، ولقد واجهت هذه النظرية معارضة كاملة من الإصالة الإسلامية على مدى العصور وكلما تجدد القول في العقلانية وخاصة في العقل الحديث وكانت حجة الباحثين أن العقل والقلب في القرآن مترادفان ، وأن العقل سراج زيته الوحي ، ولذلك فإن سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة إنما يعني في حد ذاته انتقاص شأن الوحي . ولا ريب أن تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها من شأنه أن ينتقص من تكامل العقل والوحي ، وتلاقي العقل والروح . ولا ريب في تقدير الباحثين أن العقل غير كاف ولا بد من الاحتياج إلى نبي ووحي ، هذا النبي يعاضد العقل يؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد ويكون الوحي مرشداً للعقل وهادياً فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا يدرك العقل حسنها وقبيحها .

كذلك فإن الإسلام لا يقيم فاصلا بين العالمين الروحي والدنيوي ، فليس في الإسلام شيء من قبيل اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، فكل شيء في الإسلام هو لله ، وليس في الإسلام فاصل واضح بين العالمين الروحي والدنيوي .

ولا ريب أن هذا الجو الذي دعا إلى الفصل بين العقل والنقل في المسيحية ليس موجوداً في الإسلام فما يزال النص القرآني موثقاً حياً نابضاً بالحياة لم يعتوره أي تغيير من شأنه أن يجعله موضع الشك كما يحدث في النقل من الفكر الغربي سواء في المسيحية أو اليهودية .

ولقد كان العقل دائماً في الإسلام جارياً في إطار الوحي ، وقد أشار الإمام الغزالي إلى هـــذا المعنى حين قال : وظيفة العقل أن يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز ، فالعقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولكن إذا عرف فهم وصدق فالعقل خادم الدين المطيع وقد أجمعت الأصول العامة كلها على أن الوحي هاد للعقل ، وأن الدين يقود العقل إلى الصواب .

ويتساءل أحد الباحثين فيقول : لماذا لا ينجح العقل الإنساني في أن يكون بديل الحكمة الإلهية في تقرير النظريات الأساسية والأصول التنظيمية في المجتمعات الإنسانية ويجيب على ذلك بقوله : إن الإنسانية تتطلب ممن يقرر أسس نظرياتها وأصول أنظمتها أن يكون فوقها ، لا أن يكون بينها ليهيمن على احتياجاتها من أفق أعلى فإذا كان بينها انحصر أفقه في ثنية بعينها فيمنعه ذلك من استشراف الحقائق العليا ، والإنسانية في حاجة إلى من يطل عليها من فوق فيصل بصره إلى كل شيء ويخترق فواصل الزمان والمكان فيستوعب تقدير العالم كله والعمر كله : عمر العالم ، لا عمر جيل من أجياله والإنسانية كلها على اختلاف شعوبها وقبائلها فهل هذا ممكن للانسان .

هل يمكن أن يكون العقل وحده فى الميدان بعيداً عن رعاية الله ، أن العقل فى شرعنا مناط التكليف ومناط الفهم فى تقبل العقيدة .

والإنسان عقل ونفس . فهب أن عقله قد آمن بالخطأ فهل ترى نفسه قد برئت من الهوى : الحكمة الإلهية وحدها التى تستوعب كل زمان ومكان وسع ربى كل شىء علما ، الحكمة الإلهية هى التى تتنزه عن التحيز أو التحامل لأن صاحبها غنى عن العالمين . العقل المخلوق الذى لم يشهد كيف خلق وكيف خلق الكون . ونحن بهذا لا نهدر العقل الإنسانى بل نحترمه إذ العقل مصباح ينير إذا وصل بمولد الكهرباء ذلك أن العقل يوصل الطاقة إذا وصل بربه وخالقه ، ولكن غيرنا يريد المصباح أن ينير بغير أسلاك .

والمؤمن هو الذى يقوم إيمانه على العقل والوجدان معاً ، أى بين الفكر والشعور ، فالعقل يلتقى مع القلب ، العقل وظيفته النظر فى الغايات والأسباب والمسببات والقلب وظيفته الشعور الباطنى ، ولذلك فإن حصر الدين فى منطقة الوجدان أو فى منطقة العقل زعم غير إسلامى والمعرفة موجهة إلى الباطن وهى معرفة حدسية شعورية ومعرفة علمية موضوعية . والمعرفتان مرتبطتان يكمل بعضهما البعض ويتمم أحدهما الآخر . والعلم الصحيح يقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم ، والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب ، وبرهان وإذعان وفكر ووجدان فإذا اقتصر الدين على أحد هذين الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الأخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين .

وهكذا يقيم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الانسان وليس بين العقل والقلب وحدهما بل بين الروح والجسد أيضا فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما يتكاملان فى الانسان نفسه من حيث هو جسم وروح .

وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو فى المجتمع وبذلك يتفادى الإسلام انحرافات الشطط والتطرف وبذلك يقضى الإسلام على مايسمى بالصراع أو التناقض ويحفظ للانسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الأنطلاق ؛ أو الجمود والتحجر الذى يفرضه الكبت .

كذلك فقد رفضت الأبحاث المتجددة ما أورده بعض المتأثرين بالمعتزلة من أحاديث موضوعة كحديث إقبال العقل وإدباره وأنه أول ماخلق الله . وهو حديث قال بوضعه ابن القيم والسيوطى وضعف روايته كثيرون من الحفاظ فى طليعتهم الحافظ الذهبى .

وقال إنما تكمن خطورته فى الصيغة الرواقية التى تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية ثم فى إيحائه بنظرية العقول العشرة التى لفقها الفارابى وشاعت فى كتابات الفلاسفة المسلمين وقد واجه علماء الإسلام هذه الأحاديث الموضوعة : واجهها الحارث المحاسبى وقد رسم منهجاً كاملا قال فيه أن العقل غريزة أو نور ووافقه فى ذلك الإمام أحمد ، ووافق ذلك الأشاعرة وهو مايقرره العلم الحديث وقد فرق ابن تيمية فى رسالة (الفرقان) بين النظريتين الإسلامية واليونانية فى العقل فقال أنه يراد بالعقل عند المفكرين المسلمين : الغريزة التى جعلها الله تعالى فى الإنسان يعقل بها .

وكذلك أجمعت الأبحاث المتجددة على :

(أولا) : عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية التى جاء بها الوحى الإلهى عن طريق الأنبياء . وعلى العقل أن يتخذ من الوحى هادياً ومرشداً وإلا فإنه يعجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة

(ثانياً) : حاجة العقل إلى المعونة الخارجية لإرشاده إلى الأمور الإلهية التى لايمكنه الاطلاع عليها إلا بطريق الوحى أو الإلهام .

(ثالثاً) قدرة العقل على تفهم المسائل كلها بعد الاطلاع عليها من الشرع ولذلك فإن العقل محتاج إلى الاهتداء بالشرع .

(رابعاً) ثبت عجز العقل بذاته على معرفة الله والتمييز بن الحسن والقبيح والخير والشر .

(خامسا) أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره فى اثنين : الزمان والمكان فيقول متى وأين فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان .

ولذلك فإن العقل لا يستطيع أن حكم على الألوهية ولا على القضاء والقدر ، وكل عمله ينحصر فى فهم نصوص الوحى الذى جاء من خارج العقل .

والعقل محدود ولايستطيع أن يتصور غير المحدود ولايحكم على غير المتناهى والعقل لايتصور الخلود (والله عز وجل غير محدود فالعقل لايستطيع أن يحكم عليه) فاذا حاول العقل الحكم على غير المحدود اختل ميزانه ووقع فى التناقض والعقل لايصح حكمه إلا فى الأمور المادية ، أما (وراء المادة) أى عالم الغيب (الميتافيزيقا) فلاحكم للعقل عليه .

(سابعا) لايحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لاندركها بحواسنا وقد أعطانا الله تبارك وتعالى قوة نصل بها إلى حيث لاتصل الحواس هى قوة الخيال وهذا الذى قاله علماء الإسلام ردده الفيلسوف الألمانى كانت فى كتابه نقد العقل بعد ثمانمائة سنة من تاريخ ما أورده الغزالى فى مؤلفاته وقال برجسون : إن الذهن البشرى وحده لايستطيع فهم حقائق الحياة .

(ثامنا) محاولة الفلسفة لاستخدام العقل وحده فى فهم الكون والطبيعة هى مهمة يقصر دونها العقل ويرجع ذلك إلى محدودية العقل وعدم إحاطته

بعلم الله ، مما يجعله قاصراً فى الحكم على ماهية المصلحة الحقيقية للبشرية لما يراه عقل أحدهما صالحا يراه عقل آخر غير صالح .

ولذلك نرى تخبط البشرية فى فلسفات متناقضة ، نتيجة اختلاف العقول ومقاييساتها فى تحديد وتعيين السلوك الفردى والإجتماعى .

(تاسعا) أطلق الإسلام العقل الإنسانى وجعله حراً ولم يحده وإنما أوضح له العقيدة الصحيحة وإطار الحركة معها حتى لا يخطىء .

(عاشراً) كان الفكر الغربى وجدانيا كليا ، ثم تحول إلى عقليا كليا ، هذا مصدر الاضطراب ومصدر القلق الغربى نتج الآن من التفاوت بين علوم المادة والعلوم الانسانية ، وهو خلاف فى أصله بين القلب والعقل ، استعلى فيه العقل الحديث استعلاءاً حجب به كل شأن من شئون الروح والمعنويات فآمن بالمحسوس وحده ، ووقف عند المادة كمصدر للقوة والسعادة ، وغفل عن أن العقل محدود والمادة ليست كل شيء » .

(حادى عشر) استقلال العقل الانسانى بتوجيه الانسان أمر غير مأمون أما الاسلام فيضع العقل فى إطار هداية الله من الوحى والشرع التى هى صمام الأمن للعقل من الانحراف أو الخطأ أو الميل إلى الهوى الانسانى وتبريره ، أو الاستكانة إلى الشهوات والخضوع لها .

هذا الفهم لا يحول دون المتاع المادى بل يحول دون اقتصار الانسان عليه باعتبار أن هناك متاعا آخر غير مادى يشوق النفس الانسانية فهى تتراوح بينهما ولا تقف عند واحد منهما .

(ثانى عشر) أكبر أخطاء العقلانية المجردة هى اعتبار محيط الذات الانسانية القيمة النهائية والغاية التى يتوقف عليها نشاط الانسان وسعيه فى الحياة ، وإنكار غيرها وماعداها من قيم أخرى تتجاوز حدود الذات

الفردية إلى الذوات الأخرى وإلى المجتمع وإلى الله تبارك وتعالى وإلى متاع الحياة الأخرى وهو ما يطلق عليه اسم القيم العليا .

فالاسلام يحقق القيم الذاتية ويؤكد الفردية ثم يدفع الانسان إلى آفاق أوسع نحو الجماعة ونحو الآخرة . وهو يحقق المتعة المادية ولكنه يدفع الانسان إلى استكمال حقيقة وجوده بتحقيق المتعة المعنوية الروحية . فالنزعة العقلانية هي في ذاتها نزعة مادية لأنها توقف السعي عند الفردية والمادية وحدهما وتحول بين الانسان وبين تحقيق الشطر الثاني من تكوينه وكيانه وهو الجانب الروحي والمعنوي والاسلام يدعو إلى تكاملهما والموازنة بينهما ولا يعلى واحداً منهم على الآخر .

(ثالثاً عشر) سيطرة النزعة العقلية تحبس النفس الإنسانية في جمود المادة ، وظلامها فتحول بينه وبين روح الإيمان والتفاؤل والتطلع إلى الأمل والمسلم لا ييأس من روح الله ولا يعيش أموره على الواقع أو على الحاضر وحده وإنما يرى أن هناك عنصراً آخر وبانيا يغيب عن التقدير المادي والعقلي له قدرته في تغيير الواقع .

« فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً »

فان من أهم الحريات التي يصدها العقل : حرية الأمل وعدم اليأس فالعقلانية في حقيقتها سجن كبير ودائرة موصدة ، وطابع اليأس والتشاؤم التي يتمثل في الفكر الغربي والأدب الغربي مرده في الحقيقة إلى مقايسات العقلانية الصرفة التي تجردت من المعنويات ومن رحمة الله .

(رابع عشر) من شأن النظرة العقـــلانية : حصر البشرية في « خانة » الأنانية والعزلة بمـا يحول دون انفساح آفاق الرحمة والعطاء والبذل . والإنقطاع عن الإنسانية العامة وهذا قصور إزاء أفق عظيم يقدمه الاسلام والدين بعامة وهو بعد وحدة البشرية وتعاطفها وبعد الأمن والرحمة والسلام .

(خامس عشر) ان النظرة الاسلامية هى نظرة إنسانية ونظرة متكاملة وليست نظرة محصورة فى الفردية أو المادية وحدهما ولكنها تجمع بين المادية والروحية والفردية والجماعية دون أن تفقد إحداها عطاءها الصحيح .

(سادساً عشر) يرمى الاسلام إلى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ولما كان العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك مع خالقه فى النفوذ أو التأثير . وقد أودعه الله فى الانسان لا ليعبده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ، ويهتدى به فى الظلمات التى ليس للعقل قدرة فى كشفها إلا فى ضوء الدين والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله .

والعقل ليس له قدرة التفرد بالنظر ، وإنما هو نور مصباح يكشف الظلمات ولكنه ينكف أمام نور الله . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً له فى ميدان العلم والفلسفة فيسير نور العقل وراءه .

(سابعاً عشر) لقد استطاع المفهوم الاسلامى الأصيل أن يقلب مفهوم الاعتزال والعقلانية وان يبين فساد نظريتها لقصورها وجزئيتها وكيف أن العقل لا يتمكن من إقامة البرهان إلا من طريق السمع أى النقل من الوحى، وان العقل له حد يقف عنده وأن فى أمور الدين ما لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق السمع وذلك هو الايمان بالغيب (بما فيه الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار والصراط والميزان والبعث والجزاء) وبما فيه الايمان بالملائكة والرسل والكتب .

فالعقل لم يمنح هذا كما أنه لم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته .

ولقد كان فى إنحراف المعتزلة القدامى والجدد إساءة إلى الاسلام السمح

اليسير وإساءة إلى منهجه القرآني السائغ ولا ريب أن الهدف هو في النهاية إنكار الخالق، والوحي والنبوة .

ومقطع الخطر أن يكون العقل مهيمنا على الشريعة قاضياً فيها بأهواء العصر مبرراً لأوضاع المجتمعات المنحرفة .

والاسلام لا يواجه الواقع أيا كان ليقره، أو يبرره ، وإنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغي ما يلغي وينشيء واقعاً غيره في ضوء الحقائق الأساسية .

الباب الثاني

إحياء الفكر الصوفي الفلسفي

« أسدل الزمان ستار النسيان على كتب التصوف القديمة فظلت فى رمسها حتى جاء المستشرقون ينقبون عن مادة جديدة للفتنة يؤججون بها نيران الخلاف بين المسلمين من جديد فوجدوا ضالتهم فى آثار الصوفية فأقبلوا عليها وقرءوا فى ضوء العقلية المسيحية وطقوس الرهبنة أخبـــار المتصوفين وكتاباتهم واستهوتهم أفكاره فجمعوا من أقوال الصوفية فى فنهم كل شاردة وواردة وعنوا بتنظيم موضـوعاته وترتيبها حتى يمكن القول أن بحوث التصوف الحديثة وكتاباته كلها ترجع إلى عمل المستشرقين الذين اهتموا فوق ذلك بالتعليق على موضوعاته وتوجيه مسائله الوجهة التى يرضونها بما عرف عنهم من مهارة وصبر وإهداف إلى غاية . وهدفهم تشكيك المسلمين فى معتقداتهم ومناهضة تعاليم الإسلام الصحيحة ، بالطعن فيها وترويج الزائف من المفتريات التى قامت حوله ، فعلوا ذلك لحساب المسيحية ودولهم الطامعة فى تراث البلاد وتذرعوا من أجل ذلك بتعليم اللغات الشرقية » .

الإسلام والتصوف الفلسفى

(١)

استهدفت المؤامرة على الإسلام فى العصر الحديث انبعاث الفكر الصوفى الفلسفى ممثلاً فى نظريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفناء والتناسخ والإشراق وهى فى مجموعها مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلامى الأصيل ومستمدة من الفكر الفلسفى اليهودى والمسيحى واليونانى والمجوسى والهندى يستهدف انبعاثها زلزلة مفهومه التوحيد الأصيل وخلق جو من الشكوك والريب فى قلوب المؤمنين لزحزحتهم عن أصول عقيدتهم السمحة القرآنية الربانية القائمة على الفطرة البعيدة عن التعقيدات والتهويمات .

ولا ريب أن الدعوة الملحة إلى إعادة بعث هذه الجوانب من الفكر الصوفى الفلسفى التى أثيرت فى زمن معين وتحطمت واندثرت ، لا ريب أن إعادة الاستشراق لها وتجديدها إنما له غرض مبيت وماكر وخبيث ، وهو الانحراف عن مفهوم الإسلام القائم على الفطرة والتوحيد والجامع بين العقل والقلب ، والقائم على التوحيد الخالص إلى شبهة الرهبانية والخروج عن التكليف والاستسلام للجبرية وبذلك تعزل المسلم عن مجال الحياة العامة وتقصره على الجانب الروحى المهدم المغرق فى التهويم ، وهذا ما يتطلع إليه مخطط المؤامرة على الإسلام من إخراج المسلم من مفهوم الإسلام الجامع إلى مفهوم العبادة والصفاء الروحى ، فالصوفية الفلسفية بمفهوم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود والفناء والاشراق هى بمثابة ضروب من تحريف الاسلام وتدميره وإخراجه من حقيقته الأصيلة وجوهره الخالص إلى مفهوم الوثنيات والنحل التى جاء الإسلام لهدمها وكشف زيفها وإبراز فسادها .

وقد تخصص عدد من المستشرقين لهذا النوع من الفكر الاسلامى أهمهم : ماسنيون وجولدزيهر وجب وبرون وماكدونالدومارجايوث ونيكلسون وفون كريمر ، وقد جرت المحاولات لخلق تيارين مختلفين أحدهما يقول بأن التصوف الفلسفى مصدره الاسلام ويقول الآخر إنه ليس إسلامياً وقد اهتم المستشرقون بدراسة الفرق المنحرفة فدرس ماسنيون التصوف الفلسفى والباطنية والقرامطة والنصيرية واهتم بأهل الباطن والتأويل، واهتم أكثر من غيره بدراسة الاتحاد والحلول والاشراق ووحدة الوجود .

وهم يصدرون عن مفهوم الاعجاب بهذه الانحرافات عن مفهوم الاسلام الأصيل ويرون أن الفقه الاسلامى جاف وأن هذا المفهوم من التصوف هو الذى أعطى الاسلام روحاً لطيفة ، وهم يحللون قضايا التصوف فى ضوء الرهبانية المسيحية وبمقياس رياضيات الهنود وبعضهم يجعل المسيحية أصل الصوفية عند المسلمين ويحاولون فى كل هذا الغض من قدر مفهوم الاسلام الأصيل والادعاء بأنه ليس إلا واحداً من عدة مفاهيم ، وهم فى هذا يطرحون شبهات خطيرة يهدفون منها إلى تزييف الاسلام .

وجرى الكتاب التابعون لحركة التغريب وراء خطط الاستشراق وتوسعوا فيها واهتموا بانبعاث هذه النحل المنحرفة والاذاعة بها وكتب فى ذلك لطفى جمعة فى البلاغ عديداً من المقالات كما كتب توفيق دياب عن تناسخ الأرواح وروجت الجمعية الثيوصوفية لهذه المفاهيم .

وحاول محمد توفيق دياب أن يقول بأن النعيم والعذاب فى الآخرة معنوى بحت ، وتصدى له أحد العلماء فدحض فكرته واستعرض الأدلة القرآنية على أن النعيم والعذاب فى الآخرة حسى ومعنوى معاً .

وما تزال قضايا التصوف الفلسفي تتجدد في الفكر الاسلامي جيلا بعد

جيل وتجد لها فى الجامعات مجالا لدراستها وإثارة صدور الشباب بشكوكها وزيفها تحت اسم العلوم الفلسفية .

ولا ريب أن هناك غاية عميقة وراء تشجيع الغـــرب والغزو الثقافى والتغريب للتصوف الهدام والفلسفى فى بلاد المسلمين بتأليف الكتب عنه ونشر المؤلفات المليئة بمفاهيمه المسمومة وخاصة مؤلفات الحلاج وابن الفارض وابن عربى .

فإنه ولا ريب يفسد مفهوم الاسلام الأصيل ويصرف عن طابعه الحقيقى ويهدم مقوماته وخاصة مفهوم الجهاد والتضحية والبذل والارادة الحرة القوية المناضلة عن الحريات والحق .

ذلك أن هذه المذاهب الصوفية الفلسفية إنما تحاول أن تهدم فى النفس المسلمة أبرز مفاهيم التوحيد الخالص بالدعوة إلى الزهد المبالغ فيه المستمد من آثار المسيحية ، أو بالاتكاء على الجوانب الروحية الخالصة وهو الجامع بين المادة والروح والاسلام لا يقر مذهب القول بحلول الله فى جسد إنسان أو فناء الذات الانسانية فى الذات الالهية ولم يدع الاسلام إلى الرهبنة أو الاعتكاف عن الحياة بل هو صريح فى إنكار الانفصال عن الحياة والمجتمع بل يوجه دعوته إلى العمل والعبادة ومراقبة الله فى العمل والعبادة .

وليس فى الاسلام أهل باطن وأهل ظاهر فالاسلام جامع بين الظاهر والباطن معاً ، وجامع بين الفقه والأخلاق معاً ، فليس هناك فقه جاف وتصوف لطيف ، وتلك كلها مفاهيم غربية ومسيحية استمدها المستشرقون من دياناتهم وثقافاتهم وألقوها كسموم زاعقة فى أفق الفكر الاسلامى ليخدعوا بها البسطاء الســـذج والذين لم يكتمل فهمهم للاسلام الصحيح . والقرآن لم يذكر كلمة الزهد على أنها من الدين ، كذلك فإن الاسلام ينكر الرموز والشطحات والتهويمات الغامضة كلها كما ينكر التأويلات التي قدمها

رجال التصوف الفلسفى النصوص القرآنيـــة لأنها خارجة عن مفهوم الاسلام الأصيل .

وما ورد فى الطواسين للحلاج وفصوص الحكم أو غيره من كتب ابن عربى أو السهروردى أو شعر ابن الفارض ليس أصيل بالنسبة إلى الاسلام .

ولا ريب أن ضخامة هذا العدد من المستشرقين الذين ركزوا على التصوف واشتغال البعض منهم بشخصية واحدة ، زهاء أربعين سنة كما فعل ماسنيون بالحلاج ليكشف عن الغرض المسموم المبيت ، ولا ريب أن ما يقرره نيكلسون وماسنيون من أن المتصوفة المسلمين أخذوا بعض نظرياتهم وتعاليمهم من النصرانية مثل نظرية الحب الالهى أو من الثقافة اليونانية (الأفلوطينية) كنظريات الاشراق والمعرفة والحبور أو ما يراه برون وجولد زيهر وغيرهما من أن الصوفية المسلمين تأثروا بالبوذية والهندية تأثراً كبيراً فى نظرية الفناء ، كل هذا صحيح ، ذلك أن الاسلام فى مفهومه الصحيح ودعوته القائمة على التوحيد والفطرة لا يمكن أن يقر مثل هذه الشبهات المعقدة .

مصادر التصوف الفلسفى هى : الفلسفة الاغريقية ، والديانات الهندية ، والفلسفة الفارسية والبوذية واللاهوت المسيحى :

(أولا) تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة اليونانية الذى يقول بوحدة الوجود والتى لا تفرق بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه ، وإنما ترى أن الوجود كله هو الله .

(ثانيا) تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة الهندية والهندوكية فى التناسخ ، القائل بمجىء النفس الواحدة إلى الحياة مرات متعددة والغاية فى نظرهم من التناسخ أن تتاح فرص متعددة للنفس حتى تتهذب ، كما تسرب إليها من الفلسفة الهندية مفهوم الفناء وهى النرفانا التى هى عندهم حال من فقدان

الشعور تتخلص النفس فى أثنائه من الاحساس بالألم الذى يسببه لها إتصالها بالأجسام. والزفانا ليست وجوداً إيجابياً ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم بها مقام السعادة والتنعم.

(ثالثا) تسرب إلى التصوف الفلسفى من المسيحية: تعذيب النفس وترك السعى فى الدنيا وكذلك فإن الحلول مأخوذ من المسيحية.

(رابعا) دخل التأويل الفلسفى على التصوف من الفلسفة اليونانية، ودخل الحلول والاتحاد والتناسخ من التصوف الهندى ودخلت فكرة قهر الجسد بالتقشف والانقطاع عن التناسل من المسيحية.

(٢)

لا شك التصوف الفلسفى يتعارض تعارضاً تاماً مع مفهوم الاسلام الأصيل والذين قالوا به (الحلاج وابن عربى والسهروردى وابن الفارض وابن سبعين) تأثروا بالأفلاطونية المحدثة وبالعناصر التى أدخلها إخوان الصفا من إغريقية ومسيحية وفارسية الأصل، ومنها المـــذهب المانوى والزردشتى وفلسفة فيلون اليهودى وفلسفة الرواقيين.

وقد دعا الحلاج إلى الحلول والاتحاد وجاء بعده ابن عربى الذى دعا إلى وحدة الوجود.

ودعا السهروردى إلى الاشراق. ولا ريب ان فكرة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والاشراق كلها غريبة على الاسلام.

وأبرز ما تحمله هذه الفلسفات مصطلحات: التجلى والصدور والاشراق ووحدة الوجود والاتحاد والحلول والفناء وكلها مصطلحات دخلت على الفكر الاسلامى من الفلسفات اليهودية والمسيحية والاغريقية والفارسية والهندية.

ومرد هذه المصطلحات والفلسفات إلى الفكر الوافد .

دعا ابن عربى إلى وحدة الوجود ووحدة الأديان مستمداً أصوله من الحلاج ودعا ابن الفارض إلى الاتحاد . وكان ابن عربى وابن الفارض على مفهوم وحدة الوجود الذى يرفضه الاسلام وهو ان الله والعالم شىء واحد ودعا السهروردى إلى الاشراق .

وقد نقد ابن تيمية ابن الفارض وابن عربى وابن سبعين والحلاج وكشف عن زيفهم ورأى أنهم أتوا فى الدين بشىء جديد ليس من جنس كلام الله ولا رسوله ولا الصحابة .

وقد انصهرت أفكار الباطنية فى الشيعة والتصوف ، كما انصهر فيها اللاهوت المسيحى والفلسفة والمنطق الأغريقى والفلسفة الإشراقية المنبثقة من العقائد الآسيوية وفلسفة الحلول المنبثقة من الفلسفة الهلنسية .

ولا ريب أن إعادة صياغة هذه القضايا من جديد فى العصر الحديث يستهدف إضعاف مفهوم الإسلام الأصيل وإثارة الشبهات وتمزيق وحدة المفهوم السنى الأصيل .

أولا : وحدة الوجود

أخطر هذه المذاهب التى أحياها الاستشراق فى التصوف الفلسفى مذهب وحدة الوجود، وهو مذهب هندى برهمى، أصوله ماثلة ومستمدة من كتب الهنود الدينية وأفكارهم الفلسفية . وهو معارض تمام المعارضة لمفهوم الإسلام القائم على الفصل بين الخالق ومخلوقاته . ويعنى مفهوم وحدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله . وهذا هو سر اهتمام المستشرقين بابن عربى والحلاج .

والإسلام يفرق تماما بين الله (جل شأنه) وبين العالم ، وهو ما تقول به الفطرة الصافية والعقل السليم فكلاهما يأبى أن يجعل الله هو العالم كله بما فيه ، وهو قول لا يتفق مع إقامة الأخلاق على أساس وثيق ويحول دون المسئولية والجزاء .

ونظرية وحدة الوجود ليست أصيلة المصدر، وليست مما عرف العرب أو أصحاب الأديان السماوية المنزلة ، إنما هى فكرة ترددت فى الفلسفات البشرية وهى من أهـــواء الإنسان التى تحاول أن تحرر الإنسان من تبعة أعماله ومن مسئوليته الأخلاقية ليندفع لشهواته إلى غير غاية فهى لا تفرق بين الخير والشر ولا بين التقوى والفساد ولا بين الزهد والجشع ولا بين الفضيلة والرذيلة ، وهى فى صميمها دعوة إلى إنكار الله .

ومفهوم الإسلام هو مفهوم الأصالة: إن الله جل شأنه واجب الوجود منزه عن الإتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها والكون شىء غير صاحبه، والعالم شىء غير الله ، ولقد خلق الله الخلق وكلفهم ورتب على التكاليف مثوبات وعقوبات وانزل بذلك كتبا وبعث رسلا ، فالقول بوحدة الوجود نفى للألوهية وإثبات للكائنات وحدها. يقول الأستاذ محمد الغزالى : إن (وحدة الوجود) عنوان آخر للالحاد فى وجود الله وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط وما دام لا يوجد شىء وراء هذا العالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه .

ولو كانت الأرض لؤلؤا ومرجانا ما صح أن تكون ذات الله . إن الصاروخ شىء غير الإنسان الذى أطلقه ، وكذلك فالعالم شىء غير الرب الذى أبدعه وسيره ، الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : لقد غزا مذهب وحدة الوجود

عقول بعض الفلاسفة والصوفية الذين آفتهم أن طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التى يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشرى المخلوق لإدراك النسب بين الكائنات الطبيعية وحدها أولا . فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه كما هو المنتظر ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر وانه يحل فيه وليس له وجود منفصل عنه وهكذا تجد الوثنية التى حاربتها الأديان والفلسفات سندا عظيما من هذه الفلسفة .

وقد أرشدنا النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال فقال : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا .

وخطأ وحدة الوجود القول بأن الكل هو الله أو أن الله هو الكل والحقيقة أن الكل لله . فالله سبحانه وتعالى هو الحقيقة الوحيدة وراء هذا العالم ، حقيقة لانهائية سرمدية ، فالله سبحانه لا يندمج فى العالم ولا يندمج العالم فيه ولا يندمج فى المادة، ولذلك فان قول أصحاب مذهب وحدة الوجود بأن الله والمادة وحدة لا تتجزأ هو خروج عن مفهوم الإسلام الحق الذى يقول بأن كل مسبب لابد له من سبب وكل معلول له لابد له من علة والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة فاذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول .

والله تبارك وتعالى قديم وهو أول وهو آخر ، والحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات والمادة معلولة وحادثة ولها خالق ، فاذا قيل بقدم المادة شاركت المادة الله فى قدمه .

والمسلمون يؤمنون بثنائية الوجود : وهو أن الكون موجود ومنفصل عن الله . وأن لله تبارك وتعالى ذاتية قائمة مستقلة بذاتها عن الكون المادى . والكون كله ملكه وقبضته وهو المتصرف فيه وهو الذى يمسكه لحظة بعد

أخرى ولو تخلى عنه سبحانه لا نتهى وبالجملة فان الإسلام لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله (تعالى عما يقولون علوا كبيرا) هو مجموع هذه الموجودات.

وقد قال بهذا المذهب ابن عربى وتأثر فى ذلك بنظرية افلوطين ونظرية الحلاج فى اللاهوت والناسوت. ولا ريب أن كل مايؤدى إلى وحدة الوجود أو الحلول لا صلة له بمفهوم الاسلام الأصيل، ولم يكن معروفا على عهد السلف الصالح ولم يتكلم عنه كبار الصوفية وقد يؤدى لصاحبه إلى الخروج عن عقيدة الاسلام،

ولقد كان النظر فى التصوف بهذا المعنى كما يقول الدكتور محمد البهى: سببا لبلاء كثير من المسلمين وتكأة لكل إباحى يلتمس السبيل إلى نيل شهواته تحت ستار من العقائد أو ملحد يريد أن يهدم الاسلام بتصيد الشبهات أو معطل يحاول التخلص من تكاليف الكتاب والسنة.

[شخصية ابن عربى = وحدة الوجود]

ابن عربى هو من أجرأ من عرف فى التعبير، وكانت مراوغته أبرز معالم أسلوبه المجازى الذى خدع به الكثيرين وسر ذلك هو خوفه من القتل، وحرصه على إفساد العقيدة وقد فتن به كثيرون ويعد كتابه الفتوحات المكية وفصوص الحكم من أخطر كتاباته وقد استمد نظريته فى وحدة الوجود من (الغنوصية + الافلاطونية المحدثة + المسيحية).

وقد أثارت فكرة وحدة الوجود موجة من الصراع الفكرى العنيف واعتبرها أصحاب الأصالة الاسلامية من المحدثين والفقهاء والمفسرين والصوفية عقيدة متناقضة مع عقيدة الاسلام تناقضا مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بأى وجه من الوجوه وقد سمى اسين بلاسيوس كتابه عن ابن عربى: مفكر الاسلام المتنصر. ولا ريب أن ابن عربى اتخذ من أسلوب التصوير العاطفى والرمز والاشارة والاهتمام على مغربات الخيال فى

الأمير طريقا محفوفا بالشوك بعيد الخطر فى نفث السموم وهو يراوح بين آرائه المسمومة وبين آراء أهل السنة فنخدع بعض الناس ، ويحاول بذلك أن يجد له ملتمسا إذا ما حوكم أو كشف زيفه وهذا أسلوب أكثر خداعا من أسلوب الحلاج .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : محى الدين بن عربى ليس على الاطلاق فى تصوفه الفلسفى صوفيا مسلما إنما يشبه فى التصوف ابن سينا فى الفلسفة، فابن سينا لا يمثل الاسلام فى شىء إنما هو إمتداد للفلسفة اليونانية ، كذلك محى الدين بن عربى ليس صوفيا مسلما وإنما هو فيلسوف لا يمثل الاسلام فى شىء . إن تصوفه ينتهى بسرعة خطيرة إلى مذهب فلسفى يخالف الإسلام ويخالف كل دين،انه ليس رجل دين ولا رجل زهد ،ولا تصوف بل فيلسوف غنوصى صناعى بجمع موفق منسق ، فهو كافلوطين وفيلون وقد بعدت فلسفته النظرية والأخلاقية عن الدين (أولا) إنه بما ذهب إليه من القول (بوحدة الوجود) وما يستلزمه هذا القول من اعتبار العالم كله صورا ومجالى ومظاهر لله الذى وحده الموجود قد أتى الأخلاق من قواعدها ، إذ لا معنى للمسئولية الأخلاقية التى هى مناط الثواب والعقاب لأن الآثم أخلاقياً أن يقول : ما دام الذى اتخذنى مظهر له هو الذى فعل حقيقة ما يظن انه فعل بى فكيف يستقيم أن أكون أنا المسئول .

(ثانيا) يظهر أن محي الدين بن عربى لا يتهيب أن يصل مذهبه إلى هذا الحد فيما يتصل بالأخلاق ، انه يرى أن الذى يصل إلى درجة المحبة الحق يباح له أن يتجاوز حدود ما انزل الله بعد أن لازم زمنا طويلا حفظها ولاريب أن محى الدين بن عربى قد جاوز أصالة الاسلام بهذين الأمرين الذين عدا بهما شريعة الله. وتلك أخطر جوانب دعوته هو أن يجعل ظاهر الشرع من نصيب العامة . وإن لأهل التصوف باطنا خاصا لهم وحدهم وهو فى هذا يصطنع أسلوب التأويل الذى اصطنعته الباطنية .

ثانياً : الحلول والاتحاد

فكرة الحلول والاتحاد استمدها الصوفية من المسيحية التي استمدتها من الهندوكية ، ذلك أن جانباً كبيراً من تعاليم المسيحية — على حد قول البيروني منشأه هندي ويقول ماكس مولر : إن بين الديانة المسيحية والديانة البوذية مشابهة في بعض الوجوه : وخاصة الحلول والتجسد ، وقد استمدت الثيوصوفيا الحديثة نظرية الحلول من المسيحية ، وهناك قرابة وثيقة بين التصوف الهندي والمسيحية المثلثة . وقد تطرق هذا الرأي إلى التصوف الفلسفي من الاسماعيليين القائلين بالحلول وآلهية الأئمة ، ولذلك أخذ الصوفية عنهم القول بالإمام وهو المعروف عندهم بالقطب .

وقد قال الحلاج بالحلول المسيحي واستخدم مصطلحاته وبذلك أدخل إلى الإسلام المفاهيم المعارضة والمناقضة للتوحيد الخالص .

وعنه أخذ محي الدين بن عربي نظرية الحلول الذي أخذها عن المسيحية المتأثرة بالبوذية كما أخذ بن عربي بفكرة التثليث وذكر عبارات الكلمة والحقيقة المحمدية وكلها مفاهيم مستقاة من الفلسفة المسيحية .

وقد أشار آسين بلاسيوس في كتابه عن محي الدين بن عربي إلى تأثير النصرانية في مفاهيمه وقال إن ذلك الأصل المسيحي كانت تشوبه أحياناً بعض أفكار أجنبية أثرت فيه بطريق المجاورة والعدوى ، فتناولها ابن عربي بدون تمحيص ولا انتباه لأصلها ، وهكذا اتصفت صوفيته فوق اتصافها بروحانية النصارى ببعض مظاهر يستند فيها إلى الأفلاطونية المحدثة الاسكندرية وإلى نظريات الغنوص وما فيها من مزيج مضطرب وإلى المزدكية الفارسية بل إلى البوذية الهندية » .

ولا شك أن هذا المفهوم يخرج ابن عربى من دائرة مفهوم الإسلام الأصيل خروجاً تاماً .

وقد ركز المستشرقون حول فكرة الحلول والفناء والحب الإلهى لهذا الغرض ، ولأنهم يرون أن هذه المفاهيم من شأنها أن تخرج المسلمين عن حقيقة دينهم وعن التوحيد الخالص وعن الجهاد فى سبيل الله . ذلك أن الاعتقاد بالحلولية يسقط التكاليف كلها ، ومن بينها الجهاد . ومفهوم الحب الإلهى ، وهو حب الفناء يصرف دعاته عن الاحتفاظ بما يسمى وحدة الجماعة الإسلامية التى يدعو الإسلام إلى صيانتها ودفع الاعتداء إليها ولاريب أن فكرة الحب الإلهى تناقض فكرة الجهاد فى سبيل الله تماماً كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

وقد تنبه المستشرقون إلى مدى خطر إذاعة هذه الآراء وترديدها ، ذلك لأن فكرة الاتحاد إنما هى فى جوهرها تعطيل لأحكام الشرع ، وإنها تنقض رسالة الاسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وصفاته وهى لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله — علا وجل — موجوداً متنقلا وذلك يتنافى مع صفاته جل شأنه وهى البقاء والقيام بالنفس ، كذلك فقد استهدف الاستشراق بالدعوة إلى الحلول والاتحاد الترويج لفكرة المسيحية نحو تأليه عيسى النبى والدعوة إلى شىء لا يقره الاسلام وهو التقاء الألوهية والبشرية أو الالتقاء بين الألوهية والنبوة فى إنسان وهذا ما ينشده رواد المؤامرة على الاسلام وغاية من أكبر غاياتهم .

إن مذهب الحلول يرى خلاف ما يرى الاسلام والدين الحق المنزل من رب العالمين أياً كان ، ذلك أن مذهب الحلول يرى أن الله والعالم امتزجا وأن الله والقوى الداخلية الفاعلة فى العالم مترادفان ، وهذا مايسمى بمذهب الاتحاد بين الله والعالم ، أما الدين الحق المنزل فيرى أن الله والعالم، والخالق

والمخلوق ، والروح والمادة : عنصران اثنان لا عنصر واحد . ولا يقر الاسلام الواحدية التي تقول بأن الله والعالم والمادة والروح والخالق والمخلوق شيء واحد .

وقد رد المسلمون قول ابن عربي الذي قال إن ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتاً واحدة أو إن مظاهر العالم المختلفة هي مظاهر لله تعالى ، أي ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات. والمسلمون يؤمنون بأن الله هو صاحب كل شيء وخالق كل شيء ومالك كل شيء ، ولكنه جل شأنه ليس حالا أو متحداً بهذه الأشياء كلها ولا بالانسان ولا يقر الاسلام مذهباً بحلول الله في جسد الانسان أو الأشياء .

وما قاله ابن عربي من أن الخالق يحل فيهم ، هذا المفهوم أجنبي عن الاسلام والعقيدة الاسلامية ، والعقيدة الاسلامية تغايره كل المغايرة .

يقول الامام ابن تيمية : إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعدد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيلا إلى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتي هي كمال . والتي إذا عدمت كان ذلك نقصاً يتنزه الله تعالى عنه » .

وقد أشار الامام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية إلى فساد فكرة الحلول ووصفها بأنها ضرب من الحماقة ، ذلك أن الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد ، ومهما بلغت روح الصوفي من الصفاء فكيف يمكن أن يدعي أن تكون هي هو ، ولئن سلم أحد بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة فكيف لا يسلم به لجميع النفوس،

وعند ذلك يصبح العالم كله آلهة ، فمن المحال أن يحل الله فى النفس وأن ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فإن ذلك من صفات الأجسام .

وعن فكرة الاتحاد يقول الدكتور محمود قاسم مستشهداً بالإمام الغزالى : إن العقل الذى يبرهن لنا على بطلان فكرة الحلول هو الذى يبرهن لنا على أن فكرة الحلول أظهر بطلاناً لأن قول القائل أن العبد صار هو هو الرب كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات » .

وطريقة البرهنة على فساد ذلك عند الغزالى هو أن يورد ثلاث احتمالات لمثل هذا الاتحاد المزعوم وهى :

(١) إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

(٢) وإما أن تفنى إحداهما وتبقى الأخرى .

(٣) وإما أن يفنيا معاً .

وفى الحالة الأولى لا يكون هناك اتحاد ، وفى الثانية كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاد بين موجود ومعدوم ، وفى الثالثة لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام . فالتناقض واضح فى جميع هذه الاحتمالات .

والعقل هو الذى يقرر وجود هذا التناقض والعقل نفسه هو الذى لا يستسيغ قبول هذا التناقض بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الاتحاد عند النصارى ، فأصل الاتحاد باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز .

[شخصية الحلاج = الحلول] .

وتكشف شخصية الحلاج حقيقة أمره ودعوته .

قال صاحب الفهرست أن الحلاج كان رجلا محتالا مشعبذا يتعاطى مذاهب الصوفية وينتحل ألفاظهم ويدعى عن أصحابه الالوهيـــة والقول بالحلول : وكان يقول « أنا الحق » وقد استغوى الحلاج العامة بمخاريق كان يعتمدها من قبل لنشاطه المستور بهذه الأعمال يقول صاحب الفهرست : كان الحلاج جسوراً على السلاطين يروم انقلاب الدول وقال إمام الحرمين الجوينى : إن الحلاج كان يريد قلب الدولة والتعرض لافساد المملكة . وقال ابن خلكان إنه كان على اتصال وثيق بالقرامطة وكما أكثر التطواف فى بلاد الخلافة الاسلامية وهو يحمل الدعوة الشيعية والدعوة القرمطية وقد عدته الدولة خطراً عليها وأرادت التخلص منه .

والحلاج يقول بالحلول : أى حلول الله فى الانسان ، أى أنه هو والله شىء واحد كما تقول النصارى فى امتزاج الطبيعة الالهية بالطبيعة الناسونية : ولفظ الحلول يقابل عقيـــدة « التجسد » والتجسد يقوم على أساس ثنائية الطبيعة الالهية أو كما يعبر عنه باللاهوت والناسوت الذى وصفت به شخصية المسيح فى المفهوم النصرانى ومن شبهات الحلاج قوله : إن الأولياء أفضل من الانبياء ، وإن من بلغ الغاية القصوى فى الولاية سقطت عنه الشرائع كلها وحلت له المحرمات ولا ريب أن هذا يخرج مفهوم الحلاج عن دائرة الاسلام تماماً ، وقد قال الغزالى عن نظرية الحلاج : إن اتحاد العبد مع الرب هذه قصة مفضوحة عقلا غير مقبولة نقلا .

وقد وصف الحلاج بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسي لينفذ بهم إلى تحقيق غايته فأدى ذلك إلى قتله .

وذكر إمام الحرمين فى كتابه الشامل : أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقي فى قتل الحلاج .

وقد اتهم بمعارضة القرآن .

واعترف نيكسون بأن الشك حام حول الحلاج وأنه كان يدعو للقرامطة ويبشر بمذهبه المؤمنين والكفرة على حد سواء ، ومن هذا كان الحكم عليه بالموت عادلا والمعروف أن الحلاج حوكم أمام الخليفة المقتدر وكانت قائمة اتهاماته هى :

أولا : مراسلاته السرية مع القرامطة أعداء الخلافة والدين .

ثانياً : قوله أن الحج ليس بغرض دينى عام .

ولقد ترك المسلمون الحلاج سنوات طويلة ينادى فى سوق بغداد أنا الله ، أنا الحق ، سبحانى ما أعظم شأنى . مافى الجبة إلا الله ، لقد تركوه فى شطحه يتكلم بهذا فى حالات صحوه .

يقول الدكتور النشار : ولم يقتل الحلاج لأنه أعلن الاتحاد بالله . ولكن الوزير حامد بن عبد العزيز قتله أو طلب من الفقهاء الفتوى بقتله ، بسبب سياسى أو بمعنى أدق بسبب علمى ، أنه فى الفترة الأخيرة من حياته نادى بإيقاف ركن من أركان الإسلام العملية وهو الحج ، نادى الحلاج بالحج بالهمة والحج بالهمة نوع من المعراج الصوفى تنتقل فيه النفس من مكان إلى مكان مخترقة الحجب واصلة إلى سدرتها الأخيرة ، وحين نادى بهذا لم يقتله المسلمون ولكن حين ابتنى كعبة فى بيته ودعا المسلمين أن يحجوا إليها تقدم سيف الشرع إليه فقتله وقد أشار إلى قتله بسبب هذا معظم مؤرخى التصوف بل أننا نجد محى الدين بن عربى يذكر هذا وأفتى الفقهاء بقتله لأنه

أبطل الحج وكان قد طلب أن ترفع إليــــه الزكاة والصدقة وحاول إبطال قواعد العبادات » .

وقد أشار السيد رشيد رضا (المنار حـ ٩ ص ٥٤) إلى مادعى الحلاج من مواطآت كان الغرض أن يلقى فى روع العامة وأشباه العامة أنه من آثرهم الله بعلم الغيب والقدرة على المعجز من الأمور وقال أن أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطئات والمواطئات جمع مواطأة وهى الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر ، والمخاريق جمع مخراق . ومواطآت الحلاج أنه كان يتفق مع أناس من رجاله على مايلبسون به على الناس بدعوى الكرامات وقد اكتشف ذلك فى عصره كما بينه التنوخى فى جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) ومنه أن رجلا بصفة مسترشد وإنما هو مخبر فقال له الحلاج : اشته على ماشئت ، فقال أريد سمكا طرياً وكانوا فى بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتاً خالياً من داره وأغلق عليه بابه وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب زعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال فمضيت إلى البطائح ، فمضيت إلى الأهواز وهذا الطين حتى أخذت هذه .

فقال الرجل : تدعنى أدخل البيت فإن لم تنكشف لى حيلة فيه آمنت بك . فقال : شأنك فدخل وبعد عناء وتنقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم وفيها صنوف الفاكهة والثمار والنوار وفيها ماليس فى وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الأطعمة الناضجة والحوائج لما يجىء بسرعة ورأى فى الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة فى وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه إن حدث أحداً بذلك ولو فى تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل إلا بعد قتله لعلمه أنه لو أمر أحد المفتونين به إن يقتله فإنه يفعل .

ثالثا — الإشراق

٢ ـ مذهب الإشراق مذهب يونانى مستفاد من نظرية الأفلاطونية المحدثة قال به السهروردى ، وهو جماع شطائر من الفلسفة اليونانية الوثنية والفلسفة المجوسية الفارسية ، وجماع آراء وتيارات راجت عند السريان وانتقلت إلى الفكر الإسلامى فى عصر الترجمة وتنسب الحكمة الإشراقية إلى افلاطون ثم إلى دعاة الأفلاطونية الجديدة فى مدرسة الاسكندرية ، ومذهب الاشراق خارج تماما عن مفهوم الإسلام ويعبر عن الله بالنور ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من الله . وهو مالم يقل به القرآن أو رسول الله أو الصحابة .

ولقد اهتمت طائفة من المستشرقين بالسهروردى ونظريته ، ونبشوا الكتب القديمة التى كشف المسلمون عن زيف مفاهيمها وتجاوزوها إبان عصر الترجمة وأعادوها جذعه باحياء هذه المفاهيم مرة أخرى وطرحها فى أفق الفكر الإسلامى لإثارة الشبهات والشكوك فى نفوس بعض المسلمين الذين لم يكتمل مفهومهم الأصيل ، وكان بروكلمن و ا . رتيز، وفادى برج من أوائل هؤلاء ترجموا (هياكل النور) للسهروردى وقام ماسنيون صديق الحلاج بالاهتمام برسائل السهروردى التى جمعها تحت اسم الحكمة المشرقية وأولى ذلك اهتماماً كبيراً باول كراوس وهنرى كوربان وقال هؤلاء أن شخصيته السهرورى وكتبه تمثلان لحظات جوهرية فى تاريخ الفكر الاسلامى .

وتابعهم فى ترجمة ذلك والاهتمام به عبد الرحمن بدوى وابراهيم مدكور وأحمد أمين وقد وصف رجال الأصالة الاسلامية مفهوم السهروردى بأنه زائف ومضلل ووافد وليس من مفهوم الاسلام ونسبوه إلى التعطيل واتهموه بانحلال العقيدة خاصة فى قوله بأن الله قادر على أن يرسل نبيا بعد محمد وانه كان يعنى نفسه .

« ويعتبر المذهب الاشراق فى جملته مذهبا افلاطونيا حمل فى جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الاسلامية السابقة عليه وخاصة كتابات ابن سينا ويدور المذهب حول فكرة الاشراق ، وهو يصف الله جل شأنه بنور الأنوار ، ويستعمل نظرية العقول العشرة : الوثنية اليونانية ، تحت اسم الأنوار . وقد ابتدع عالما أوسط بين العالم الحسى والعالم العقلى اسماه البرزخ ، وأخذ هذا من أفلاطون .

والمذهب خليط من الفلسفة اليونانية والفلسفة الفارسية وكلها وثنية لاتؤمن بالله الواحد وستعارض مع مفهوم التوحيد الاسلامى ، وهناك إتصال واضح بين ابن عربى والحلاج والسهروردى فى الاعتماد على الفكر القديم الهلينى والغنوصى معاً .

وشخصية للسهروردى تعطى المفهوم الحقيق لمذهبه وقد وصفه أحد المدافعين عنه والناشرين لفكره : سامى الكيالى بما يكفى فى تصوير حقيقته قال : لم يكن مظهره مما يلق الهيبة أو الاحترام فى نفوس مستقبليه ، أهمل نفسه أو كاد ، وبلغ به الاهمال حتى كان على حد قول بعض من أرخ له : « ذرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لايغسل له ثوبا ولا جسما ولا يدا ولا يقص ظفرا أو شعرا ، وزادوا على ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه وإن كل من يراه يهرب منه » .

هذه الصورة تدل على العقلية، وتدل على الفكر. ولم يكن دعاة الاسلام يوما إلا مثالا للنظافة والكمال والخلق ، وكان رسول الله يعرف قبل قدومه بريح المسك ، وقد وصفه تلميذه الشهرزورى صاحب كتاب نزهة الأرواح بأنه كان فى مستوى العامة يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة ، وإنه كان يميل إلى السماع وكان يبدى احتقاراً شديد لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية، وقد أثارت كل المصادر التى كتبت عنه إلى « قذارته » ، ومنها آثار البلاد

وأخبار العباد للقزوينى واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ح ٤ وكانت آراءه خارجة على المفهوم الأصيل للاسلام، وقد كشفت مناظراته مع العلماء عن جهل وشك وشعوذة وتضارب حتى اتهموه بالزيغ وانحلال العقيدة .

وقد خلط فى عقله تلك الفلسفات الأغريقية والهندية والفارسية ، وأراد أن يبدع من هذا المزيج ما أسماه الفلسفة الاشراقية .

ولم يكن هذا كله ليضع السهروردى فى الموضع الذى وضع فيه لولا موقفه من خصوم الاسلام وتعاونه معهم ومراساته إياهم .

يقول الدكتور عمر فروح : إن التهمة الظاهرة هى الإلحاد ولكن يبدو أن السبب الحقيقى هو انه أثار شكوك الدولة القائمة بكثرة تطوافه ونشاطه السياسى ، ويروى سيف الدين الآمدى قال اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لا بد أن أملك الأرض فقلت : لعلك تعنى بالعلم . قال لا : وكان لا يرجع عما وقع فى نفسه من أن يملك الأرض فعلا وكان مصدر محاكمته وقتله ٦٣٢ هـ .

ولاريب أن مذهب الاشراق بعيد عن جوهر الاسلام فقد قام مفهوم الاسلام الأصيل على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة واتخذ من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله نموذجاً تطبيقيا لا يتعداه المسلمون إلى هوى أو بدعة ، ولا يطمعون فى زيادة عنه ، مؤمنين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم عن أمته شيئا ما من دين الله وانه جاء ليتمم مكارم الأخلاق وانه هو الذى حذر المسلمين من دخول جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم : يعنى هذه الوثنيات من الفكر البشرى الزائف الذى قدم من الأغريق وفارس والهند .

٣ — نظرية الفناء : فكرة هندوسية ومستمدة من البوذية، وهى تقول

بفناء الناهى فى اللاناهى ، وخطأها أنها تجعل الخالق والمخلوق شيئا واحداً

ويقول الباحثون أن كلام الصوفية فى الفناء أدى بهم إلى القول بالاتحاد دخل إلى الفلسفة الصوفيةمن كتب البوذية التى أثرت فى ابن سبعين السشترى الذى تقول أن المحب يفنى فى محبوبه حتى لا يكون فرق بين محب ومحبوب .

ولا يقر الاسلام مذهبا بفناء الذات الانسانية فى الذات الالهية .

٤ - فكرة الإنسان الكامل تأثر فيها المتصوفة بشعر الفرس وتبنوا ما فيه من نزعات حلولية التقت عندهم بفكرة وحـــدة الوجود اليونانية وتبلورت فى شعر ابن الفارض وابن عربى ، وبلغت نهايتها فى نظرية الإنسان الكامل لابن عربى . وليست فكرة الإنسان الكامل إسلامية المصدر فهى مما ورد فى كلام أرسطو وأفلاطون ثم رددها الفارابى وجماعة إخوان الصفا واستعملها محى الدين العربى فى مؤلفاته ، وهى محور تعاليم البرهمية . ومصدرها المانوية الإيرانية القديمة . كما ترد نفس هذه الفكرة فى فلسفة فيلون وفى الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله .

وتستهدف فكرة الإنسان الكامل إيجاد قطب أو وسيط للوصول إلى الله سبحانه وتعالى ولذلك فإن هذه الفكرة يسقطها الاسلام ويرميها بالزيف والفساد إذ لا يقر الإسلام وجود وسيط بين الخالق تبارك وتعالى وبين الإنسان .

ويتصل بهذه النظرية الكلام عن الحقيقة المحمدية وتصوير النبى ﷺ بصورة غريبة حقاً بعيدة عن الصفة التى يصفه بها القرآن والتى يصفه بها الصحابة وكبار التابعين .

ابن الفـارض :

فهم ابن تيمية مذهب الفارض على أنه وحدة وجودية مبنية على الحلول والاتحاد وعنده : أن مثل القائلين بوحدة الوجود كمثل النصارى .

وأن فى قول هؤلاء من الكفر والضلال ماهو أعظم مما فى قول اليهود والنصارى وقال ابن تيمية أن موقف ابن الفارض لم يكن موافقاً لتعاليم الإسلام ولا ماعرف عن النبي والصحابة والتابعين ومن إلى أولئك جميعاً من السلف الصالح وأن القول بوحدة الوجود والحلول هو من سوء الاعتقاد ماينافى الإسلام الصحيح .

وهذا الذى يراه ابن تيمية فى ابن الفارض هو رأيه فى ابن سبعين والحلاج والكرمانى وعفيف الدين التلمسانى من القائلين بوحدة الوجود التى يصدر أصحابها عن أصلين باطلين يخالفان دين الإســـلام لمخالفتهما للمعقول والمنقول وأحد هذين الأصلين هو أن الحلول والاتحاد ومايقاربهما من قول بوحدة الوجود هو مذهب القائلين بأن الوجود واحد لافرق فى ذلك بين الوجود الواجب للخالق والوجود الممكن للمخلوق .

أما ثانى الأصلين فهو الاحتجاج بالقدر على فعل المحظور . والقدر فى رأى ابن تيمية يجب الإيمان به ولايجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده .

وقد ناقش هذا الاتجاه وأدانه كثيرون منهم ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين ابراهيم البقاعى الذى ألف كتابين تناول فيهما ابن عربى وابن الفارض وأبان عن ضلال مذهبهما وفساد عقيدتهما وانحلال خلقهما .

ـ تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى .

ـ تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد .

وقال عضد الدين الأيجى صاحب المواقف عن ابن عربى أنه كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش وأن قولهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى يعنى أنه لانبى ولارسول ولامرسل ولا مرسل إليه .

وقال أن ابن عربى له خداع كثير غر به خلقاً فاثنى عليه لذلك قوم من المؤرخين خفى عليهم أمره وأن العلماء اتفقوا على تكفيره بحيث أصبح ذلك أمراً إجماعياً ، وقال أنه لم يوجد لابن الفارض فى كل أعصره من ذكره بحالة ثناء عليه بعدالة أو ولاية ولاظهر منه علم من العلوم الدينية ولامدح النبى بقصيدة واحدة مع كثرة سفره فدل بذلك على سوء طويته ، وأن القدح قد نقل فيه نقلا قطعياً عن محبيه ومبغضيه .

وأن شراح تائيته وكلهم من التابعين لطريقته ، والمنتقدون عليه من أهل السنة أن أهل زمانه وكلهم من أهل الشريعة رموه بالفسق والإباحة وقد عدد البقاعى نحواً من أربعين عالماً كلهم من دعائم الدين من عصر ابن الفارض إلى عصر البقاعى وكلهم يرمى الرجل بماينظمه فى سلك الكفر أو الزنادقة أو الملحدين أو الإباحيين ويخرج مذهبه فيسلكه فى عداد المذاهب الضالة والعقائد الفاسدة . ومن هؤلاء عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد وتقى الدين السبكى وبدر الدين بن جماعة وزين الدين الحنفى ويتهم البقاعى ابن الفارض وابن عربى فى خلقهما ويؤيد اتهامه بما أشار إليه صاحب المواقف من أنهما كانا يصطنعان الحشيش ومن أن ماانتهينا إليه من تقريره الوحدة ونفى الأثينية إنما هو ضرب من الوهم والخيال الذى يحصل فى العقل من فعل الحشيش .

وأن ابن الفارض من المعتنقين لوحدة الوجود والقائلين بالاتحاد والحلول ، وهذا يجعله خارجاً على تعاليم الكتاب والسنة . وأن ابن الفارض يضع مايسميه الحقيقة المحمدية فى مقابل الحقيقة الإلهية .

وقال أن نظرية اللاهوت والناسوت التى قال بها الحلاج ، قال بها ابن عربى وابن الفارض وهى تمثل العنصر المسيحى الذى اختلط بالفكر الفلسفى الصوفى ، وأنه ترديد لقول اليعاقبة الذين كانوا يرون أن المسيح هو الله

والإنسان اتحدا فى طبيعة واحدة هي المسيح ، وأن اللاهوت والناسوت لم يردا فى كلام العرب ولا فى الشرع وهى من موضوعات النصارى :

قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم » .

ثم استعملها الحلاج ، استعمل هذا اللفظ وأكثر من استعماله فكان الحلاج بحق ممثلا لهذا الأثر المسيحى فى النصوص الفلسفى ، وصلة ذلك بالأفلاطونية المحدثة .

(ابن الفارض والحب الإلهى : دكتور مصطفى حلمى)

وقد أولى المستشرقون ابن الفارض اهتماماً واسعاً ، وترجم إميل در منجم ما أسماه « خمرية سلطان العاشقين » وقدم لها مقدمة عن التصوف وقال أنها ستلق مالا يقل عما لقيته رباعيات الخيام من الحظوة .

وقد ترجم شعر ابن الفارض إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، وإلى الإيطالية والألمانية والإنجليزية .

(٣)

يحاول التصوف الفلسفى تزييف مفهوم الإسلام فى عدة مواضع :

(أولا) لا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله فى جسد إنسان أو فناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية كما لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله هو مجموع هذه الموجودات والاسلام يقول بأثنينية الوجود أى الله والعالم فالله خالق والعالم مخلوق والله مدبر والعالم مدبَر وليس الله حالا فى العـــالم وإنما هو خالقه ومدبره والله بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم بما يعملون .

(ثانياً) لا يقر الاسلام القول بإسقاط التكليف ورفع فرضية أداء العبادات عن الفرد ـ أى فرد ـ بدعوى أنه من وصل إلى الله تسقط عنه التكاليف .

وهذا قول لم يعرفه المسلمون أيام رسول الله وهم قمة المسلمين فى كل عصر ؛ فقد عاش رسول الله وعاش المسلمون حياتهم يؤدون العبادات والفروض دون أن تسقط عنهم .

(ثالثاً) لا يقر الإســـلام عقيدة الجبرية ولا فكرة الزهد ، بمعنى السلبية والانقطاع عن الجهاد والعمل ، فإن الإسلام يدعو إلى بناء الإرادة والكسب وينكر الانصراف عن الدنيا .

(رابعاً) لا يقر الإسلام دعوة التصوف الفلسفى بالتحول من الخوف من الله إلى الرجاء فيه ، وإنما يقر بقاء الخوف والرجاء معاً فى نفس المسلم يتراوحان ويجيشان .

(خامساً) فساد القول بأن التصوف لغة عالمية أو أن التصوف أدخل مجموعات كثيرة من الوثنيين فى الإسلام أو أعطى الإسلام مادة الطراوة فى مجتمع بلغ غاية الجفاف .

وهذه كلها من سموم الاستشراق والغزو الثقافى ، أما التصوف الذى أدخل الناس فى الإســـلام فهو التصوف الأصيل وليس التصوف الفلسفى الزائف ، أما مسألة الطراوة والجفاف ، فالاسلام لا يعرفها لأنه يجمع بين العقل والقلب .

أما التصوف الذى يقره الاسلام فهو الذى لا ينكر أصلا من أصوله ولا فرعاً من فروعه .

فالاسلام لا يقر الدعوة للانفصال عن الدنيـــا أو تحقيرها أو اعتزال الناس أو تعذيب البدن بتحريم الطيبات كما يحرم فى نفس الوقت الترف والاسراف ، كما لا يقر رفع التكليف أو الغاء الشريعة فى أى طور من أطوار المسلم .

وقد ظلت الفطرة الاسلامية دائماً بمنأى عن تعقيدات التصوف الفلسفى وإن هذه القضايا قد هزمت منذ أثيرت وتحقق فسادها ، وتخلص الفكر الاسلامى منها ومضى فى طريقه ، حتى جاء الغزو الثقافى لابتعاثها من جديد .

(٤)

لا ريب أن هناك شبهات تكمن وراء تاريخ التصوف الفلسفى ، فقد ارتبط هذا التصوف بمواقف سياسية تؤكد أنه كان أسلوباً من العمل لهدم الدولة الاسلامية وكان ستاراً لحركات هادمة من حركات الباطنية أو القرامطة أو الزنج أو غيرهم ، وإنها استهدفت صرف العامة إليهم وقد حاول الاستعمار فى العصر الحديث الاستعانة بالتصوف لمثل هذه الغاية واصرف المسلمين عن حقيقة دينهم وإغراقهم فى جو من الغموض والتكهنات بما يرخى عزيمتهم عن الكفاح لتحرير أوطانهم وعن الجهاد وعن الوضوح الاسلامى فى فهم الأمور وعن القوة . وقد كان مستشرقوا التصوف الفلسفى جزءاً من المخطط السياسى الاستعمارى .

وإذا كان الحلاج والسهروردى قد قتلا فهما لم يقتلا لرأيهما وإنما قتلا لتآمرهما .

(٥)

يقوم المفهوم الاسلامى الأصيل على :

أولا : إن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء واحد لا شريك له . خالق كل شىء سواء أكان ذلك الشىء طاقة من الطاقات المحضة كالمغناطيس والأرواح والملائكة أو مادة من المواد كالجمادات والنباتات والحيوانات .

ثانياً : إن الخالق الأعظم ليس هو جزءاً من مخلوقاته ولا هي جزء منه ولا تماثله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهي مخلوقة بعلمه وإرادته وقدرته .

ثالثاً : إن دلائل وجود الخالق العظيم تبدو في مخلوقاته لأنها من آثار قدرته ومخلوقاته مهما أوتيت من علم فإنها لا تحيط به علما .

رابعاً : دعا الاسلام إلى الأخذ بألوان من العبادات والمجاهدات لتعميق مفهوم التقوى والورع وهذا لا يعني بأي حال الزهادة بمعنى الانصراف عن الدنيا أو الانقطاع إلى العبادة وترك العمل والكسب ولم يحرم الاسلام سوى الانغماس في الشهوات التي تشغل القلب عن ذكر الله .

خامساً : لا يقر الاسلام إسقاط الشرائع والفرائض لأي سبب من الأسباب وما دعا إليه الحلاج من إسقاط الشرائع يخرجه هو عن الإسلام، وليست رسوم الشريعة في الحقيقة مظاهر تختلف عن أعمال القلوب ولكن العبادات لها مظاهرها والتي هي جزء لا يتجزأ من مداخلها .

(٦)

إن فكرة التقاء الأديان أو أن التصوف لغة عالمية هي من أخطر الدعوات وأشدها فساداً ، وأبعدها عن مفهوم الإسلام ، وهي ما يقول به أصحاب وحدة الوجود والتي يروج لها الاستشراق الذي دعا إلى انبعاث الفكر الفلسفي الصوفي في العصر الحديث ، فليس صحيحاً أن الاختلاف في الأديان اختلاف في المظاهر ، وليس صحيحاً أنها جميعاً تسلك طريقاً إلى الله فإن مفهوم التوحيد الخالص الذي يبرأ الله من التعدد والشريك لا يوجد إلا في مفهوم الإسلام .

وكل أشعار جلال الرومى وكتابات ابن عربى فى هــــذا الصدد زائفة ومضللة وليس صحيحاً أن الإيمان والكفر لا يختلفان أو أن أصحاب الأديان وعبدة الأصنام متفقون فى هدف واحد ، أو أن التوراة والقرآن واحدة ، ونحن نعرف أن التوراة كتبها أحبار اليهود وليست هى كتاب الله المنزل على سيدنا موسى .

كذلك فان من أسوأ ما يدعو إليه دعاة التغريب التهويل فى الخلاف بين الصوفية والفقهاء ، وهو خلاف زمنى انتهى وصـــفى ، لم يعد الآن موجوداً كذلك فان القول بتقسيم المسلمين إلى طوائف وجعل أصحاب مفهوم الأصالة الإسلامية طائفة ، هذا لا ريب يمثل مغالطة شديدة فان أهل السنة يمثلون تسعون فى المائة من تعداد المسلمين وهم ليسوا طائفة بمعنى الفرقة ، ولكنهم هى الأغلبية الساحقة التى تمثل جماعة الأصالة الذين يستمدون مفهومهم من القرآن والسنة الصحيحة .

كذلك لا يقر الإسلام المبالغة فى الحديث عن كرامات الأولياء وإتيانهم بالخوارق ، ويرى أن هذه أمور خاصة تتعلق بالأفراد وليس لها أثرها أو تأثيرها فى المجتمع ، وإنها لا تحول مطلقاً دون أداء الفروض العبادية والالتزام بالشريعة ، وإن المسلم مهما بلغ من درجات الإيمان أو الولاية لا يسقط ذلك عنه فرضاً أو التزاما .

(٧)

يقف الإسلام من التصوف الفلسفى موقفه من الاعتزال تماماً فكلاهما لا يمثل الإســـلام ولا يعبر عنه ، فالصوفية يتخذون القلب أداة للمعرفة وقد أنكروا على العقل مقدرته على فهم الألوهية وأسرارها وهم يتحصنون بالقلب فى مواجهة المعتزلة الذى يتحصنون بالعقل .

والواقع أن مفهوم المعرفة الإسلامى الأصيل : يجمع بين العقل والقلب ، فالقلب يدرك الغيب والوحى ، والعقل يدرك الشهادة ويصادق الوحى .

ولا ريب أن الاستشراق ودعوة التغريب والمؤامرة على الإسلام من شأنها أن تفصل بين المفهومين وتجعلهما فى موقف التضارب والصراع فيقف جماعة من المستشرقين إلى جانب المعتزلة يعلون من شأن العقل ويقف جماعة منهم إلى جانب الصوفية يمجدون الحدس والوجدان .

والإسلام فى مفهومه الأصيل يجمع بين القلب والعقل والشريعة والحقيقة وترابط الظاهر والباطن ، ويؤكد أنه ليس هناك معرفة عن طريق القلب مستقلة أو معرفة عن طريق العقل مستقلة أبداً ، وإنما هناك مفهوم جامع هو الإسلام .

ويؤكد الإسلام فكرة الاستواء فى السر والعلن حتى يكون باطن المرء متحققاً فى ظاهره وحتى لا يكون هناك فاصل بين ما يسمى بالباطن والظاهر سواء فيما بين الانسان وبين الله أو بين الانسان والناس ويقرر أن أعمال الباطن مبدأ لاعمال الظاهر وأعمال الظاهر آثار لها دلالتها فان كان الرجل صالحاً كانت الآثار صالحة . يقول ابن خلدون : للشريعة حكما على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم وحكما عليها من حيث باطن أعمالهم ، لا ما يعره به بعض الباطنية ويزخرفونه من أقوال سفسافة ناقضة لمعاقل الشريعة ، فالشارع لم يظهر حكماً ويبطن آخر (تعالى الله عما يقولون علواً عظيما) .

ولا ريب أن طريق الحق واحد ، أما الباطل فسبله كثيرة لهذا اختلفت مذاهب ونظريات الانحراف والمنحرفين وبدا طريق الله واضحاً (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

كما يؤكد الإسلام بشرية الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك البشرية التى توكيد للحقيقة الألهية : حقيقة التوحيد (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد) وقد فرق الإسلام بين الألوهية وبين النبوة ، وفرق بين عصمة الأنبياء وبين قدرات غير الأنبياء مهما كانوا من صالحين وأقطاب وأولياء فهى لا تتسم بالعصمة مطلقاً .

وكذلك ربط الاسلام بين الحقيقة والشريعة فى مفهومه الجامع : يقول الإمام الطرطوشى : زادوا فى الدين أمراً هو هدم للدين ، هو زعمهم أن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر ، فاذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا فى المجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه وفى المنكر أنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه وكأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملتين » .

ولا ريب أن السنة ترشد فى صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة كليهما ينبعان مباشرة من تعاليم الرسول وأنهما متكاملان .

ويصدق هنا القول : بأنه لو كانت هناك تعاليم سرية فى الإسلام تخفى وتطوى لعرف العلماء والفقهاء هذه التعاليم ولتحدث عنها القرآن المجيد .

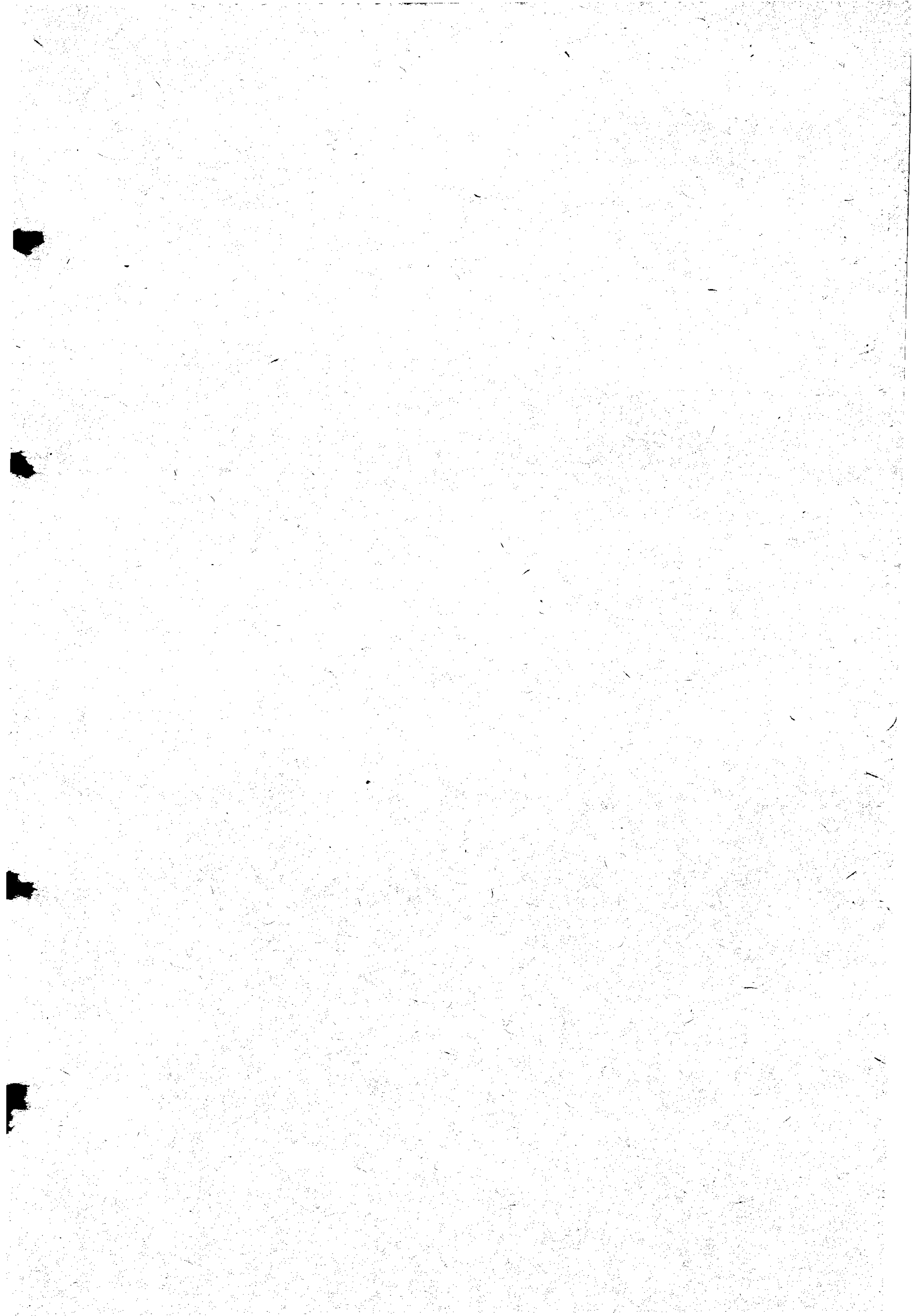
(٨)

هذه المفاهيم أدخلها إلى الإسلام أتباع المجوسية لتحريف الإسلام فى ظروف الضعف والانهيار ، وذلك فى جملة الحقد على قوة الإســـلام وبرغبة هدمه ، وواصل المستشرقون هذه الحملة وأتباعهم من دعاة التغريب لنفس الهدف .

وقد قطع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى هذا الأمر بقوله :

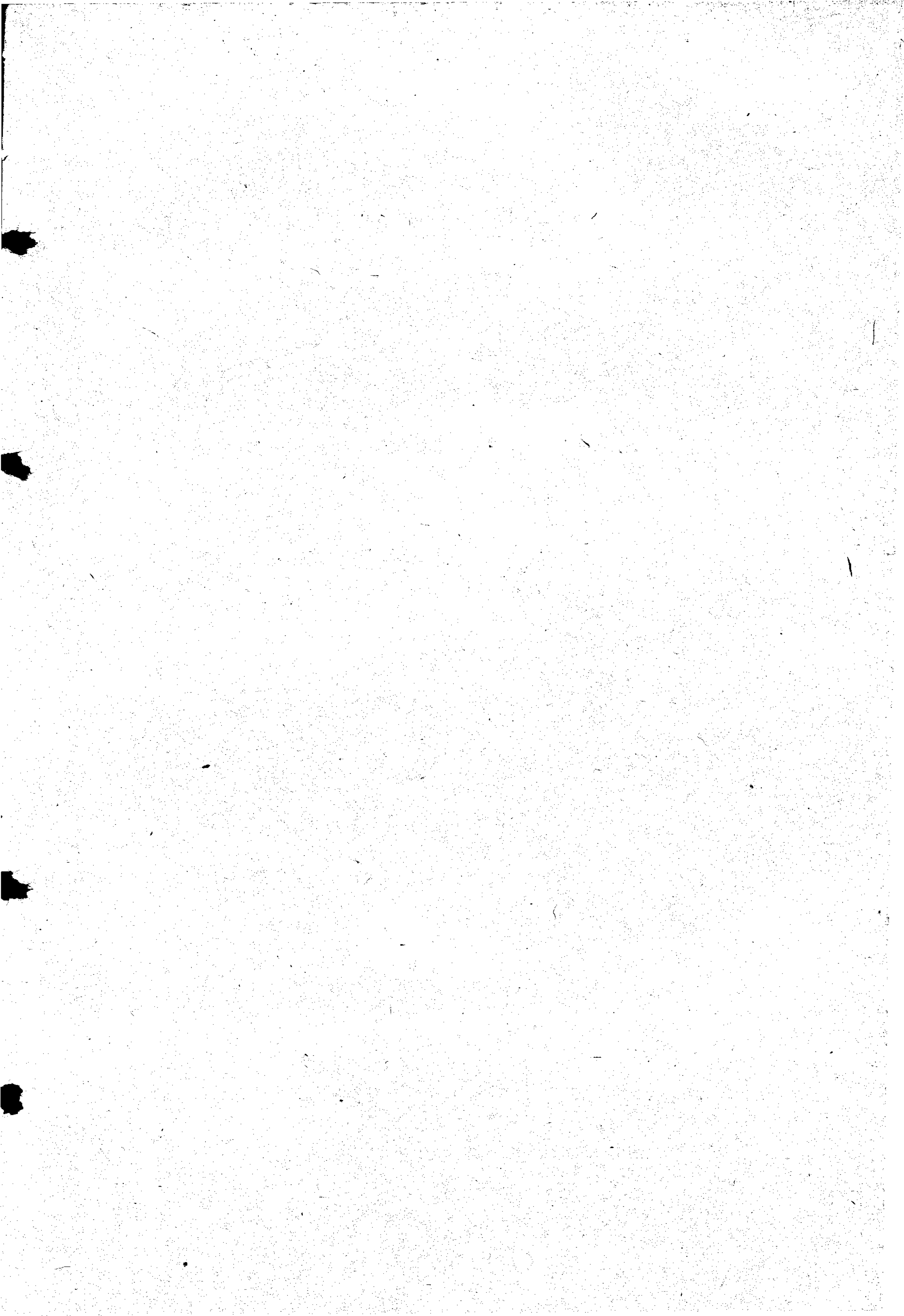
كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة : الشرع هو ظاهرها والشرع هو باطنها ، وإذا رأيت الرجل يطير فى الهواء فلا تعتبره حتى تزن أقواله بميزان الشرع » .

ولا ريب أن حديث الرسول صـــلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الإسلام » كان شجباً للانحراف نحو الزهد المسيحى . وقال عليه الصـلاة والسلام : « جئتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الاهالك » وقد عمل الفكر الإسلامى على توالى العصور على تحرير نفسه من هذه ، المداخلات الوثنية المسيحية واليهودية والفارسية والهندية .



الباب الثالث

إحياء الفكر الفلسفى



وقف الإســـلام من تراث الفلسفة المترجم من اليونانية والفارسية والهندية موقفاً واضحاً صريحاً هو أن هذه المدرسة التي اشتغلت بالفلسفة وعلى رأسها (الكندى وابن سينا والفارابى) هى امتداد للمدرسة اليونانية الإغريقية وأنها ليست نتاجاً إسلامياً خالصاً وأن الإسلام منطلقه إلى الفكر الفلسفى الإسلامى عن الطريق الذى بدأه الإمام الشافعى بكتابه (علم أصول الفقه) ، وقد تحدد موقف المسلمين من الفلسفة المادية اليونانية وغيرها منذ اليوم الأول لترجمتها ، ووقف منها أهل الإصالة الإسلامية موقف المعارضة الصريحة والشجب الكامل .

وحكم الإسلام على هذا الركام الضخم المتخلف عن « ما قبل الإسلام » سواء من الفكر الغنوصى الشرقى أو الوثنى الهلينى هو لأنه لا يمثل المفهوم الأصيل ولا يعتبر من الفكر الإسلامى وإنما جاء الإسلام لرده والكشف عن زيفه وإبطال دعواه القائمة على الأهواء البشرية الطامعة إلى الخروج عن حدود الله والفطرة الإنســانية وأن البحث الذى قام به علماء المسلمين و(الشافعى ، الغزالى ، ابن تيمية) فى مقدمتهم قد انتهى إلى إثبات شخصية إسلامية متميزة فى مجال المعرفة والمنطق تختلف اختلافاً واضحاً عن المفهوم اليونانى الهلينى ، كما كشفت أن المحاولة التى قام بها ابن سينا والفارابى فى تقريب أو تطويع أو ربط الفلسفة اليونانية بالتوحيد الإسلامى هى محاولة فشلت وعجزت عن أن تحقق شيئاً لأنهـا حاولت أن تصهر الوثنية اليونانية وعلم الأصنام فى إطار التوحيد ، وأنها اعتمدت على مصادر ثبت فساد نسبتها إلى أصحابها وقد دخلها تحريف كثير ، ولقد صفى المنهج الإسلامى الأصيل هذا الركام الذى ترجم من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية جميعاً وحكم عليه فى إبانه وتجاوزه وتحرر من سلطانه ، فلما جاء العصر

الحديث حرصت قوى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى على إحيائه من جديد وإثارة قضاياه وتصوير الفكر الإسلامى بأنه فكر قد تشكل متأثراً بالفكر اليونانى وأن أرسطو كان له عند المسلمين مكانا كبيرا . ومنذ جاء المستشرقون يدرسون مادة الفلسفة فى الجامعة وهم يفرضون مفهوما زائفا هو أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية ثم يجىء من يترجم مؤلفات أرسطو بدعوى أن هذا الفيلسوف كان له أثره فى الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية فى إبان النهضة وأن من شأنه أن يجدد النهضة التى يعيشها العالم الإسلامى المعاصر .

ولم يكن هذا القول صحيحا ، لا فى جملته ولا فى تفصيله ، ذلك أن الفكر الإسلامى الأصيل قد رد أرسطو والفكر اليونانى كله وحكم بأنه فكر مجتمع عبودى يختلف إختلافا واضحا عن المجتمع الإسلامى ، ولكن تيار التغريب غذى هذا الاتجاه ونماه على نحو أغرى به الكثيرين وظن بعض المثقفين أن للفكر اليونانى مكانة وأثرا فى الفكر الاسلامى من قبل جديرة بأن تجعل لوليده الفكر الغربى أثرا فى الفكر الاسلامى الحديث .

وتلك هى أخطر الدعاوى التى حملها الدكتور طه حسين وهى قمة المؤامرة على الاسلام ، ولقد كان فى تقدير حركة التغريب والغزو الثقافى أن يحدث هذا العمل فى العصر الحديث ما أحدثت الترجمة فى العصر الاسلامى الأول: وكيف أغرق الفكر الفلسفى اليونانى إذ ذاك فكر الاسلام فى دوامة عريضة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر ، ولذلك عمدوا على تجديد بعث الفلسفة اليونانية التى تسمى علم الأصنام عند اليونان وفلسفات المجوسية والمزدكية والبابكية وغيرها من الفكر الشرقى الغنوصى وعنوا بفلسفة التصوف القائمة على وحدة الوجود والحلول والاشراق وجددوا الأبحاث القديمة المدفونة التى رفضها المسلمون ودحضوها وكشفوا زيفها وفسادها وأعادوا النظر فيها

من جديد حتى ترى اليوم هذه الكتابات المسمومة التى تحاول أن تصف الفكر الاسلامى المعاصر بالقصور لأنه متخلف فى مجال الفلسفة ، وترى هذه المحاولات الجارية لانشاء مايسمى فلسفة عربية ، حتى يكون لها طريق مستقل عن الفلسفة الاسلامية ، وكل هذا يستهدف «احتواء» الفكر الاسلامى بالفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة على السواء ، ويرون أن شبلى شميل هو الذى بدأ طريق الفلسفة العربية حين دعا إلى مذهب دارون بتفسير بخنر ، هذا المفهوم المادى الشديد الحملة على الدين والأخلاق والعقائد. الذى يستهدف أن يسقط الفكر الاسلامى الحديث فيما تحاماه الفكر الاسلامى فى الماضى حين تحرر من أصار الفلسفات الوثنية والمادية وأعاد تركيب نفسه وفق مفهوم الاصالة الاسلامية تحت اسم « مذهب السنة والجماعة » ، ومازالت هذه المحاولات كلها التى تتجدد والتى يقودها جميل صليبا وعبد الرحمن بدوى وجورج حنا ولويس عوض وزكى نجيب محمود ودعاة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ ودعاة الوجودية تستهدف هذا الغرض معتبرين أن (الفكر العربى الحديث) هو فكر مستقل لا صلة له بالاسلام وانما هو ابن الحملة الفرنسية والارساليات التبشيرية المسيحية اللبنانية ، ولذلك فهو حر فى أن ينطلق بعيداً عن الاسلام وأن يخوض تجربة الاحتواء الغربى الماركسى الليبرالى الوجودى الخ .

ومن هنا كانت الحملة على الشافعى وابن حنبل والأشعرى والغزالى وابن تيمية لأنهم هم القذى فى عيون كل محاولات احتواء وتغريب الفكر الإسلامى ، ولأنهم هم الذين فتحوا الطريق إلى إصالة الفكر الإسلامى . وسوف يخوض المفكرون المسلمون التجربة مرة أخرى على نفس مبادىء الإسلام على النحو الذى مهد له الشيخ مصطفى عبدالرازق وسار فيه بخطوات

واسمة الدكتور سامى النشار ومحمد على زيان ، وهـذه المدرسة ومن تابعها على طريق الاسلام الصحيح .

ومن هنا كانت مؤامرة الصمت إزاء كل من عارض الفلسفة اليونانية من أعلام الفكر الإسلامى مع إبراز وإعلاء كل الأسماء التى حملت لواء الفلسفة قديما مما يسمونهم الشراح فكتبت عشرات الأبحاث فيهم وجلهم لا يسلم فى مقياس الأصالة الإسلامية للحكم عليهم ، وأخطر من تصوب إليهم أسهم الاتهام : الفارابى وابن سينا .

ومما لم يكشف عنه مجددو الفلسفة الإسلامية القديمة : أن هؤلاء الشراح قد أطلق عليهم اسم المشاءون المسلمون واعتبروا امتداداً للفلسفة اليونانية والعقل اليونانى ، ولقد لفظهم المجتمع الإسلامى لفظا تاما ، كما لفظ شعراء الإباحة والغلمة أمثال أبو نواس وبشار واعتبرهم خارجين عن المجتمع الإسلامى الأصيل ، ولم يدافع عن هؤلاء وأولئك إلا المستشرقون لهوى فى نفوسهم ، هو أن يبعثوا فى المجتمع الاسلامى المعاصر والفكر الاسلامى الحديث تلك الفتن والأحن والشبهات والسموم التى أثارتها الفلسفة اليونانية التى ترجمها السريان وأرادوا بها إدخال مفاهيم المسيحية بالاضافة إلى مفاهيم الوثنية لضرب قاعدة التوحيد التى هى عماد الاسلام .

(أولا) هناك إجماع على أن دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامى هو الذى أسقط صرح الحضارة ، فقد كانت طابع شؤم ونذير سوء وإيذانا للعرب بزوال سلطانهم ، انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها وتمكن من جلب أشهر كتب الفلسفة من اليونان والصين والهند ، وعهد بترجمتها إلى محترفى الترجمة من السريانية والكلدانية والسنسكريتية والفارسية .

وجرى العمل على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة وإباحة الجهر

بمختلف الآراء فشاع فى زمنه الشك وراج الباطل وهبت الرياح الصفراء من وراء هـــذه الإباحية تحمل فى طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتمارفة . وظهرت الفرق التى كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة فلم تلبث الدولة إلا قليلا حتى حطت على جحافل المغيرين من التتر والمغول فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق هذه الغاية .

وخسر العرب عقيدة الإيمان الفطرى وقوة الاعتقاد النقى ، وتركوا الدين إلى أيدى المتكلمين والمتفيهقين والمخدوعين ليلبسوه أثواباً حلقة ملونة من الآراء الافتراضية التى أيقظت الشك وأثارت الفتنة وبلبلات الألسنة .

(ثانياً) اتهام الإمام الغزالى بأنه جمد الإنطلاق الفكرى والثقافى عند العرب : حين وقف من الفلسفة الإلهية موقفه المشرف فى دحضها والكشف عن زيفها .

والواقع أن هناك حملة منسقة تدعو العرب إلى الفلسفة الغربية وتحرضهم عليها وتدفعهم إلى الجرى وراء مطامعها وصراعاتها ، وهى تصور العرب بصورة التخلف لأنهم فقراء فى مجال الفلسفة منذ وقف الغزالى موقفه ، وتلك ولاريب خدعة مضللة ، ذلك لأنه ليس من الضرورى أن يصطرع المسلمون والعرب فى أتون الفلسفات وهم ليسوا فى حاجة إليها حاجة الأوربيين الذين عجزت عقائدهم أن تمدهم بالمفهوم الميتافيزيقى الكامل والصحيح والأصيل سواء فى علاقتهم بالله تبارك وتعالى أو بالكون أو بفهم الإنسان من حيث هو إنسان ، ومن شأن هذا النقص فى الفكر الغربى اللاهوتى ومع اضطرابه لأنه ليس فى حقيقته إلا تفسيرات بشرية ؛ اضطر الفكر الغربى إلى إنشاء هـذه المذاهب والأيديولوجيات لسد النقص ، هذه المذاهب والأيديولوجيات المضطربة الذاهبة وراء كل الرياح التى تهب من أهواء النفس سواء فى الليبرالية

الفردية أو الفرويدية أو الوجودية أو الماركسية والتفسير المادى والتفسير الاقتصادى والتفسير الجنسى والتفسير الجغرافى للحياة والتاريخ والحضارة — أما المسلمون فلديهم منهج متكامل للميتافيزيقيا الكونية والإنسانية هو ربانى المصدر ، وهو فى نفس الوقت قادر دائماً على إعطاء النفس البشرية أمنها وسلامتها وطموحها وحاجتها المادية وأشواقها الروحية دون أن ينقصها شيئاً فى تكامل وتوازن بعيداً عن سرف الترف أو فساد الرهبانية .

فهذه الحيرة التى نراها فى الثقافة العربية ، إنما تصدر عن تلك الصيحات التى يطلقها التابعون للفكر الغربى المسيحى ، أما فى مجال الفكر الإسلامى فان المسلمون يعرفون أنهم ليسوا فى حاجة مطلقاً إلى هذا الصيحات العالية فى الدعوة إلى أسلوب الفلسفة والمسلمون لايرون الأسلوب الفلسفى أسلوباً كاملا ولاصحيحاً ، وإنما هو أسلوب مرحلى ، قد يأخذ به المسلمون فى فترة ما كما أخذوا به فى أول عهد الاعتزال فى مواجهة الكلام المسيحى واليهودى ، وكما أخذ به جمال الدين ومحمد عبده وإقبال وغيرهم فى مطالع عصر اليقظة الإسلامية وفى مواجهة تحدى التغريب والغزو الفكرى .

أما الأسلوب الصحيح والأصيل الذى يراه المسلمون سبيلهم فهو الأسلوب القرآنى والمنهج القرآنى .

ولقد كشف الإمام الغزالى فساد الفلسفة الإلهية ، ولم يتعرض للفلسفة الرياضية والطبيعية والمنطق .

وكان هذا هو الذنب الذى لم يغفره له حتى الآن ، كتاب الغرب ولادعاة التغريب ، كيف يقف الغزالى فى وجه فكر الوثنية وعلم الأصنام ويعارضه ويكشف زيفه ولايدع المسلمين ليغرقوا فيه فيحتويهم كما احتوى اليهودية والمسيحية . فهذا جرم كبير اقترفه الغزالى مازال رجال التغريب يبكتونه به يوماً بعد يوم دون توقف .

والواقع أن الغزالى لم يهاجم إلا الفلسفة الإلهية التى هى علم الأصنام عند اليونان قال : أن العقل يعجز عن الخوض فى مسائل مابعد الطبيعة ، وأنهم (أى الفلاسفة) ماقدروا فى الإلهيات على الوفاء بالبراهين التى اشترطوها فى المنطق وأنهـــم يحكمون بظن وتخمين غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول ولو كانت علومهم الإلهية متفقة البراهين نقيـة عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها ، وإن ماشرطوه فى صحة مادة القياس من قسم البرهان فى المنطق لم يتمكنوا من الوفاء لشىء منه فى علومهم الالهية . وقال : إن أحكام العقل فى الرياضيات والطبيعيات صادقة ، أما فى علم مابعد الطبيعة فان العقل المحض عاجز عن الوصول إلى اليقين .

وقال أن مسألة الصفات الالهية وأزلية العالم وأبديته واستحالة الفناء على النفوس البشرية لاتوزن بميزان العقل البشرى بل يحتاج العقل فى إدراكها إلى عامل آخر هو الكشف الباطنى والايمان القلبى والوحى الدينى .

وأهم ما اختلف فيه الغزالى مع الفلاسفة إنما هو مايتصـــل بالمباحث الالهية التى تقدم أصلا من أصول الدين .

وقد عارض الغزالى الفلاسفة فى ثلاث مسائل أساسية : يختلف فيها رأى الفلسفة اليونانية عن مفهوم الاسلام الأصيل : (وإن كان قد أحصى عليهم الخطأ فى عشرين مسألة) :

أولا : قدم العالم .

ثانيا : أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) لايحيط علما بالجزئيات .

ثالثا : إنكار البعث .

والاسلام يقول بأن العالم محدث وأنه ليس ثمة قديم غير الله سبحانه وتعالى وأن الله تبارك وتعالى يحيط بالجزئيات (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وأن البعث حق لا مرية فيه .

وقد عارض الغزالى إما يصطدم بالشرع : وهاجم الفلاسفة الدهريين : الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً وقالوا بقدم الأنواع الحيوانية (وهم الدهرية والزنادقة ، كما هاجم الفلاسفة الطبيعيين الذين قالوا : أن النفس تموت ولا تعود وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب وهاجم الفلاسفة الإلهيين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو) لأنهم قالوا بقدم العالم وإنكار البعث وزعموا عدم إحاطة الله بالجزئيات .

وهكذا نرى أن الحملة التى حملها دعاة التغريب والمستشرقين فى العصر الحديث باطلة : وقد وصفوا رأى الغزالى هذا بأنه حملة شعواء ، والواقع أنه رأى غاية الأنصاف والاعتدال وبالرغم من هذا فان الغزالى لم يسلم من أهل الأصالة الاسلامية فقال : أبو بكر بن العربى وكان من أخص أصحاب الغزالى : شيخنا أبو حامد ودخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر » .

ولقد كان هدف الغزالى إبطال مذهب الفلاسفة فى الإلهيات وتوجيه الناس إلى منابع الإصالة الحقيقية فى فهم الميتافزيقيا وما وراء الطبيعة وهو ما أورده القرآن الكريم . ولذلك فقد أشار إلى أن الفلاسفة قليلو البضاعة فى معرفة مسائل الربوبية ، وأن الدين الحق هو وحده القادر على عطاء النفس الإنسانية فى هذا المجال على النحو الذى يحقق الطمأنينة والسكينة واليقين .

(ثالثاً) فلسفة أرسطو : رد عليها المسلمون وكشفوا اختلاف وجهة نظرها مع مفهوم الإسلام وتعارضها مع المنهج التجريبى .

وعندما حاول الاستشراق والتغريب فى العصر الحديث إحياء أرسطو وتكوين هالة ضخمة حوله (طه حسين ـ لطفى السيد ـ ابراهيم بيومى مدكور) دحض الفكر الإسلامى هذا المفهوم وكشف عن ما هو أبعد من ذلك ، كشف بطلان وزيف وكذب ما ادعاه التغريبيون من أن النهضة الغربية قامت على مفهوم أرسطو ومنهجه ، فهى فى الحق لم تقم إلا بعد أن هدمت مفهوم أرسطو، وتبنت مفهوم التجريب الاسلامى، وقد هدم المفكرون الغربيون فى العصر الحديث فكر أرسطو بنفس ما هدمه به المسلمون قبل ذلك بألف سنة ، وكان هذا الهدم هو منطلق النهضة الأوربية التى اعتمدت على منهج التجريب الإسلامى ، ثم جاء الغربيون مرة أخرى يخدعون المسلمين ويزيفون عليهم ويدعونهم إلى منهج أرسطو ، لا إلى منهجهم الذى بنى حضارة الغرب ، لقد كان أرسطو خدعة كبرى فى عصر الترجمة وفى العصر الحديث أيضاً واستغله المستشرقون وأتباعهم من دعاة التغريب إلى أبعد مدى .

ولقد تبين من الدراسة العلمية الخالصة فساد دعوى الموجة التغريبية الدافعة للقضاء على الإصالة الإسلامية :

ذلك أن حقيقة الأمر هى أن المنطق الأرسطى الذى نقل إلى العالم الإسلامى إنما أثر (فقط) فى المدرسة المشائية الإسلامية : مدرسة الشراح (الكندى والفارابى وابن سينا) وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن الإصالة الإسلامية بعيدة كل البعد عن تجاربه ، وكانت قد وضعت منطقاً مختلفا تمام الاختلاف عن منطق أرسطو فى روحه وفى جزئياته ، (راجع على سامى النشار) .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلوم يونان . ومع ذلك لم توافق دوائر الفقهاء

المتأخرين ومتكلموا الأشاعرة من ناحية ومتكلموا السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق لحاربوه أشد حرب . ومن ثم ابتعد فلاسفة الإسلام المشاءون عن نطاق الفكر الإسلامى روحا ونصا وعن المجتمع الإسلامى عقيدة وفكراً وحياة وماتت الفلسفة المشائية فى العالم الإسلامى منذ عهد بعيد .

وما كان لها أن تبعث لولا محاولات الاستشراق والتغريب الحادثة إلى تدمير الإسلام من الداخل بإثارة الفرق والمذاهب الفلسفية القديمة وبعثها وفرضها كمنهج على مضلل فى الجامعات والمدارس .

وفى ضوء هذا الإتجاه الذى تقدم إليه المستشرقون أولا ثم تابعهم دعاة التغريب أمثال طه حسين كان الهدف هو ما أشار إليه طه حسين صراحة :

« إنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان - وفلسفة أوربا وحضارتها إنما هى امتداد لهذه الفلسفة ، فعلينا إذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء » .

وهذا زعم باطل فى أساسه تنقضه كل الأدلة والأسانيد فإن المسلمين لم يأخذوا فكر يونان قاعدة لفكرهم بل رفضوه وكشفوا زيفه ، ومن ثم فإنهم يقفون اليوم نفس الموقف من الفكر الغربى وليد الفكر اليونانى .

والمعروف أن المنطق الجديد فى الفكر الغربى القائم على هدم منطق أرسطو بدأ فى القرن الثالث عشر الميلادى حين نقل المسلمون الروح العلمية والرياضية إلى أوربا عن طريق « روجر بيكون » الذى دعا إلى التخلص من مذهب أرسطو لعدم كفايته وقال أننا نستطيع أن نبرهن بالرياضة على كل ما هو ضرورى لعلم الطبيعة ، وقد أعاد توماس الأكوينى فلسفة أرسطو من جديد .

(رابعاً) تبين أن الفكر اليونانى الذى اعتمد عليه الفلاسفة المسلمون (الكندى ـ ابن سينا ـ الفارابى) لم يكن سليم المصادر . فقد أكد الباحثون من المقارنات التى أجريت أخيراً أن النصوص الفلسفية التى ترجمت إلى اللغة العربية لم تكن هى الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وإنما كانت مزيجاً من هذه الفلسفة ومن المفاهيم السريانية المسيحية ، ومن ثم فقد ترتب على ذلك أخطاء كثيرة وتلفيقات صعبة ، وقد أشار إلى هـذا عدد كبير من الباحثين : أكد ذلك اسماعيل مظهر الذى يقرر أن الثقافة التى نقلت إلى العرب لم تكن ثقافة إغريقية صحيحة ، بل كانت صورة من النصرانية تلونت بلون إغريقى عن طريق اليعاقبة والنساطرة الذين بشروا بمعتقداتهم النصرانية فى الشرق متخذين من الفلسفة اليونانية سبيلاً إلى التبشير بعقائدهم .

وقال الدكتور عبدالرحمن مرحبا : إن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد ، فقد كانت الترجمات تكسباً للمال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى إستغلال الترجمة فى الدعوة إلى نحلتهم ونصرة مذاهبهم ، ويقول الدكتور عمر فروخ أن معظم الناقلين كانوا نصارى يعاقبة ونساطرة ، وكانت حميتهم الدينية فوق أمانتهم العلمية من أجل ذلك كان هؤلاء يحرفون » .

ومن أشـــد أخطائهم اضطرابا وأثراً ان كتاب الربوبية قد عزى لأرسطو ، فلما اطلع الفارابى على هذا الكتاب واعتقد أنه لأرسطو قام بتحرير نظريته المشهورة فى التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو معتمداً فى ذلك على هذا الكتاب ، ووقع الفارابى فى الخطأ وانهارت نظريته فى التوفيق بمجرد أن عرف أن هذا الكتاب ليس لأرسطو وإنما هو فصول أخذت أو لخصت من تساعيات أفلاطون وهو بعيد عن روح أرسطو . وقد بدا أن الفلسفة التى حاول إنشائها الفارابى وابن سينا مزيجا من الفلسفة الأرسطية

والأفلاطونية المحدثة وقد بدت المحاولة مشوهة وناقصة . وتسمى الفلسفة الإسلامية .

ومن هنا نعرف كيف اندست الكثير من المقررات الفارسية والوثنية والمسيحيةواليهودية إلى الفكر الإسلامى ، وحاولت الإندماج بهمع الزمن .

(خامسا) وقف الفكر اليونانى من التجريب موقف الاحتقار . بينما أمضى الفكر الإسلامى مفهوم التجريب وبذلك نقل البشرية إلى عصرجديد عجز عنه اليونان .

(١) فالمسلمون بكل أدلة التأكيد والجزم والثقة هم الذين وضعوا المنهج التجريبى واقتحموا تلك العقبة التى وقف عندها الفكر اليونانى حين وقف عند المنطق الصورى . وبذلك جمع المسلمون بين أسلوبين للنظر والفكر هم الدليل العقلى والدليل التجريبى ، وقد سجل روجر بيكون فضل هذا المنحى الخطير فى تاريخ البشرية كلها ونسبه إلى المسلمين .

وأهم خصائص المنهج التجريبى الإسلامى انه منهج إدراكى أو تأملى ، فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك انه لابد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى حيث أن منهج اليونان إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف .

وفارق بين منهج احتقر التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عنه ، وبين منهج دعا إلى التجريب مستمداً ذلك من روح القرآن نفسه الذى دعا إلى نزعة علمية عملية تنأى عن البحث فى ذات الله وتدعو إلى البحث فى خلق الله . ولذلك فإن موقف المسلمين من منطق أرسطو أو من الفكر اليونانى لم يكن ناشئا من معارضة ذاتية ، وإنما كان تأكيداً لذاتية الفكر الإسلامى وروحه وإصالته وطابعه الخاص. ولذلك فإن المسلمين لم يشتغلوا

بالجوهر أو الماهية أو التصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا بالخواص ، وأدرجوا هذه الخواص فى نسق متكامل ، وهذا هو جوهر الخلاف الذى أوحى بمفهوم الكراهية أو المعارضة لمنطق أرسطو وهى مخالفة ذات جذور أصيلة للأساس الأصيل للإسلام وهو التوحيد ولم تكن ناجمة عن ضيق أفق أو تزمت مذهبى .

ومن هنا فإن الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل دعوة معارضة تماما لمفهوم التوحيد الاسلامى. وإذا كان الاسلام قد حال دون الأبحاث الميتافيزيقية على طريقة الفكر اليونانى فإنه قد قدم للمسلمين منهجا كاملا لما وراء عالم الشهادة منذ بدأ الخلق إلى نهاية الحياة الدنيا وما بعدها من حياة الجزاء الأخروى ، كما قدم صورة لعالم ما وراء الكون الظاهر من سماوات وأفلاك . وبذلك أرضى رغبة الانسان فى فهم هذه العوالم وجعلها أساسا لفهمه لرسالته ومسئوليته ومعادة وأعطى عقله الانطلاقة الحقة لأداء رسالته فى نطاق قدرته الحقيقية . وقد كشف الاسلام فى هذا عن أن العقل الانسانى بطبيعته قاصر عن التوصل إلى الكنه أو الماهية بقـــدرته الذاتية التى تعجز عن ذلك ، ولذلك حدد القرآن مسائل ما وراء الطبيعة تحديداً كاملا وطلب عدم الجرى فيما خلفها وأن تبحث فى محيط الاقتدار العقلى وحده وهو [تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا] .

والقدرة العقلية هى القدرة على التفكير فى آثار الله الدالة على عظمته ، ومجالها الحس : أما الذات والكنه والماهية فهذا فوق استطاعة العقل ولذلك جاء به الوحى مبينا ناصعا :

[البحث فى الخصائص وعدم البحث إطلاقا فى الماهية] :

وكان هذا التوجيه الاسلامى القرآنى منطلق العمل الذى حققه المسلمون ولم تستطع تحقيقه الأجيال السابقة كلها : وهو إيجاد المنهج التجريبى .

ومن هنا فإن الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل هى دعوة معارضة تماما لمفهوم التوحيد الذى هو دعامة الاسلام الحقة .

(سادساً) لقـــد ادعى المستشرقون ودعاة التغريب أن المنطق الأرسطاليسى عندما ترجم وجد قبولا وترك أثراً فى كل دراسات الإسلام (هكذا ردد المستشرقون وردده طه حسين ولطفى السيد وإبراهيم مدكور) .

والواقع أن هـذا مخالف للواقع الذى حدث فعلا . فإن الذين قبلوا الفـكر اليونانى والمنطق الأرسطاليسى هم الشراح ، المتـابعون على طريق المشائين اليوم ، والذين أطلق عليهم المشاؤون المسـلمون وأبرزهم الـكندى والفارابى وابن سينا .

أما العلماء المسلمون فى مجال الأصالة فانهم ردوها تماماً . وكشفوا عن أن المنطق الأرسطاليسى »[1] هو منهج البحث فى عـلوم اليونان الفـكرية والفلسفية فيها على الخصوص ، ثم إن هذا المنطق هو أدق تعبير عن الروح اليونانية فى نظرتها إلى الـكون وفى محاولة إقامة مذاهبها فى الوجود ، وقد لفظ الإسلام علوم اليونان الفـكرية لفظاً قاسياً وحاربها أشد محاربة ، ذلك أن الروح الإسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة وجنس مخالف وتصور حضارى جديد وهى تنأى أشد النأى عن النظر فى العوالم اليونانية

---

(١) عن بحث الدكتور علي سامي النشار : مقدمة مناهج البحث عن مفـكري الإسـلام .

الفكرية من ميتافيزيقا وفيزياء وغيرهما ، وكان من المحتم أن يكون لها منهج فى البحث مختلف أشد المخالفة عن منهج اليونان يستمد مقوماته من حضارتها الملية بحيث يكون طابع تلك الحضارة الأساسى وجوهرها الوحيد .

وكشف علماء المسلمين أن فلاسفة الإسلام المشاؤون إنما هم بمثابة دائرة منفصلة منعزلة عن تيار الفكر الإسلامى العام ، وأن ممثلى الاسلام الحقيقيين هم الفقهاء والأصوليون والمتكلمين وغيرهم من مفكرى المسلمين وهؤلاء هم الذين يرفضون المنهج اليونانى والمنطق الأرسطاليسى كلية ، وقد توصل الدكتور النشار إلى وثائق ثابتة لهؤلاء العلماء من خلال أبحاثهم القديمة تكشف زيف ادعاء المستشرقين ومن تابعهم من المتآمرين على الاسلام الذين ادعوا أن المسلمين أقاموا فكرهم على منطق اليونان . وأن المسلمين استطاعوا أن يقدموا أعظم كشف عرفه العالم الأوربى من بعد ، وهو المنهج التجريبى الاسلامى فى أكمل صورة .

وقال : إن المتكلمين والأصوليين الأولين لم ينقلوا المنطق الأرسطاليسى على الاطلاق ، وحاولوا إقامة منطق جديد بالكلية فى جوهره ، ووقف فقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الأرسطاليسى بل من المنطق اليونانى على العموم موقف العداوة التامة واصطنع بعضهم حجج الشكاك اليونانيين وأضاف إليها حججاً أبدعوها ، وأشار إلى أن الشراح الاسلاميين كانوا امتداداً للعقل الهلينى فى العالم الاسلامى بحيث كانت الوشائج التى تربطهم بالتفكير المنطق الاسلامى واهية تماماً ، ولهذا لفظهم المجتمع الاسلامى لفظاً تاماً .

وقال الدكتور النشار بفساد الفكرة التى تقول إن المتكلمين كانوا رجال دين استخدموا منطق أرسطو فى جدلهم اللاهوتى وإن المنطق الأرسطى

قوبل من المدرسة الكلامية حتى القرن الخامس أسوأ مقابلة ، وهاجمته جميع الفرق الكلامية : معتزلة وأشعرية وشيعة ، وقال ابن تيمية : مازال نظار المسلمين بعد أن عرب هذا المذهب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله فى موازينهم العقلية والشرعية ، وهذا ما ردده ابن القيم وقال ابن خلدون إن المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة اليونانية لمباينتها للعقيدة .

وألفت كتب كثيرة فى نقد المنطق الأرسططاليسى ، منها :

= الدقائق لأبى بكر بن الطيب .

= الآراء والديانات لابن النوبختى .

= كتب أبا على الجبائى وأبا هاشم والقاضى عبد الجبار فى نقد المنطق الأرسطى .

(ذكر ذلك أبو حيان فى المقايسات ص ٥٥٥)

= أبو العباس الناشىء المعتزلى :

[قال السيرافى لابن بشر متى بن يونس : وهذا الناشىء أبو العباس قد نقد عليكم وتتبع طريقكم وبين خطأكم وأبرز ضعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا كلمة واحدة لما قال وما زدتم على قولكم : لم يعرف أغراضنا ولا وقف على مرادنا] .

(صاعد طبقات الأمم ص ١١٨)

= ابن حزم :

نقد منطق أرسطو وألف كتاباً أسماه التقريب لحدود المنطق (ذكره صاعد فى طبقات الأمم) وبسط فيه فن القول على تبيين المعارف واستعمل

فيه أمثلة وجوامع شرعية وخالف أرسطو واضع هذا العلم فى بعض أصوله مخالفة صريحة .

= الغزالى هاجم منطق أرسطو .

= إمام الحرمين هاجم منطق أرسطو .

وفى هذا تكذيب صريح لما أورده لطفى السيد أستاذ جيل التغريب حين قال :

« ولقد قوبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب واستغل بها الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين وأصبحوا خلفاء أرسطو وممثلى مذهب المشائين ، تبين فساد هذا الفهم ، فان علماء المسلمين رفضوا منطق أرسطو والفلسفة اليونانية جميعاً لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد عماد الاسلام .

(سابعاً) يعد موقف الامام بن تيمية هو قمة المواقف فى مواجهة الفلسفة المشائية .

فقد أعلن أن الفكر الاسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة المحمدية ، فاستخرج منهما المنطق الجديد الذى سماه المنطق الاسلامى ، هذا المنطق الذى كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما .

وقد استخلص المنطق الاسلامى من القرآن الكريم بحيث أغنى المسلمين فى قضايا الفكر والحكم الصحيح عن المنطق اليونانى وعن أقيسته وأساليبه ومسمياته وتطبيقاته ، وقال إن ماعند أئمة النظار من أهل الكلام والفلاسفة

من الدلائل العقلية الالهية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ميزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ولقد كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد عنى ابن تيمية بنقد فلاسفة الاسلام (الفارابى وابن سينا وابن رشد) وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو وعرض المنهج الاسلامى الاستقرائى فتتبع تاريخ هذا المنطق منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الاسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة وفى ذلك كتابه (الرد على المنطقيين) وقال إن الفكر الاسلامى قد رفض المنطق الأرسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى ، وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو المنهج الحسى التجريبى .

وكشف عن الخلاف بين أرسطو وأفلاطون ومحاولة المشائين المسلمين شراح الفلسفة اليونانية فى التوفيق بينهما . وكشف عن الخلاف بين هذه المحاولة وبين العقيدة الاسلامية ، وأبان عبث هذه المحاولة (محاولة الفارابى وابن سينا) وعقم تجربة التلفيق عندهما بين الاسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف هذا التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع ، وأجرى محاولة للتوفيق بين العقل والدين . ولكن ليس على أساس أن العقل مرادفا للفلسفة اليونانية وملخص رأيه أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفا لصحيح المنقول ، ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا إذ من يدعى خلاف ذلك فقد قدح فى الرسول وقد ترك منطق ابن تيمية بصمات واضحة فى كثير من الاتجاهات المنطقية الجديدة المباينة لمنطق أرسطو

وخاصة المنطق المادى لدى بيكون وهيجل ، والمنطق الرياضى لدى رسل والمنطق السيكولوجى .

وقال مصطفى عبد الرازق : إن الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه فى النقد بل الشرح والعمق لكنا بلغنا من الرقى مبلغا عظيما .

ويعتبر ابن تيميه فى رده على مناطقة اليونان ومن تابعهم من متفلسفة الاسلام أكبر ممثل لروح الاسلام تجاه الفتنة اليونانية .

(٢) نقد ابن تيمية المنطق الأرسطى وهدمه هدما قويا ، فذهب إلى أنه من الخير للاسلام أن لا يستعمل مصطلحات الفلسفة والمنطق وينكر ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الأرسطى من الوصول إلى كنه الشىء أو ماهوته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به .

ونقد ابن تيمية القضايا الأرسطية ، وذهب إلى أن التجربة والاستقراء وقياس التمثيل باطل . وقرر أن القرآن هو الذى يمدنا بصور الاستدلال وأنه هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية .

(ثامنا) ابرز وجوه التعارض بين الفكر الاسلامى والفكر اليونانى وقال : إن أكبر الخطأ هو القول بأن هناك لقاء ولو جزئى بين الفلسفة اليونانية الوثنية وبين الفكر الاسلامى القائم على التوحيد . وذلك يرجع إلى أسباب جذرية بعيدة المدى وإلى خلاف فى الأصول العامة .

أولا : فالاسلام يقرر قصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى الماهية والكنه والشىء فى ذاته ، وقد حدد القرآن موقفنا من مسائل ما بعد الطبيعة وطلب

إلينا عدم الخوض فيما وراءها ، ودعانا إلى أن نترك بحث (الجوهر) الذى لا نستطيع أن نصل إلى حقيقته عن طريق العقل وحده وإن نبحث (الخصائص) وإن لا نبحث مطلقا فى الماهية . وهذا ما رسمه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

ثانيا : الميتافيزيقيا اليونانية هى نتاج ذاتى قائم على الفردية والتصور الخاص المخالف لروح الإسلام القائم على مفهومه الجامع لكل معتنقيه . وقد كانت الفلسفة اليونانية عملا ذاتيا لا يتفق والاجتماع .

ثالثا : الفارق العميق والواضح بين مفهوم القرآن لوحدة الله وفاعليته وبين مفهوم الفلسفة اليونانية فالله فى الإسلام خالق كل شىء ، وإنه خالق كل شىء من لا شىء ، وأوجد العالم من العدم وأعلن بدأ الزمان وأعلن نهايته، وبذلك هدم مفهوم الفلسفة اليونانية فى القول بقدم المادة وعدم فنائها .

فضلا عن هذا فان القرآن لم يترك مفاهيمه مطلقة بل وضع أصولها كاملة ، ولقد كان ما قرره القرآن أكثر قبولا فى العقل وأقرب إلى الفطرة .

فالله هو خالق الأرض والماء والجبال وجعل ذلك كله مسرحا للانسان خليفة الله الذى خلقه من تراب ونفخ فيه الروح وعلمه الأسماء ودفعه إلى اكتشاف الكون ووضعه فى موضع المسئولية الفردية والالتزام الأخلاق والحساب والجزاء الأخروى .

(تاسعا) قدم القرآن الدليل على وجود الله تبارك وتعالى ممثلا فى عديد من أساليب البحث ومناهجه :

أولا : الدليل الكونى المبنى على النظر فى هذا العالم .

ثانيا : الدليل العقلى التحليلى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون).

ثالثا : دليل استنبطه العلماء من الآيات التى تتكلم عن سيدنا ابراهيم وملخصه أن تغير أحوال الأشياء التى نشاهدها يدل على حدوثها وضرورة وجود محدث لها لا يشبهها .

(عاشرا) عقيدة الاتحاد وعقيدة وحدة الوجود :

عقيدة الاتحاد لا توافق الإسلام أيه موافقة من حلول الخالق فى المخلوق أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو غير طبيعة كل منهما لهـذا أنكر الاسلام على المسيحية فكرة الحلول وأنكر نفس الفكرة على الصوفية . ولا يتفق الاسلام مع عقيدة الوحدة لأن فيها إنفصالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) ولا عقيدة التصوف الفلسفى (لا موجود فى الحقيقة إلا الله) وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مخالفة أشد المخالفة لنتائج الأخرى .

تأثر التصوف الفلسفى بالبحوث الميتافيزيقية : الفيدا الهندية، والاشراقية الفارسية والفيض الأفلوطينى .

أما التصوف السنى فقد سار فى طريقه ينكر على التصوف الفلسفى فكرته فقد أخذ من القرآن والسنة وانتهى إليها ، وقد وصل الفكر الاسلامى بالتصوف السنى إلى يقظه الحارس الديدبان «الضمير» وهى فكرة لم تصل إليها أوربا إلا حديثا على يد بتلر الأخلاق الانجليزى .

(حادى عشر) لا بد من الاشارة إلى الدور الذى قام به رجال الأصالة الاسلامية فى العصر الحديث فى مواجهة خطر تجدد إعصار الفلسفة اليونانية والغربية على التوحيد الاسلامى ، وقد بدأ هـذا الاتجاه منذ أعلن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الفلسفة الاسلامية تبدأ من الفقه الاسلامى والكلام وأن كتاب (علم أصول الفقه للشافعى) هو منطلق هذا الاتجاه وأن الشافعى فى الفكر الاسلامى موازيا لأرسطو فى الفكر اليونانى واعتبر أن الكندى

والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم لايمثلون الأصالة الاسلامية بل يمثلون إمتداداً دخيلاً للشانين اليونان، فهم لا يزيدون عن أن يكونوا شراحا للفلسفة اليونانية وأن كتابات علم أصول الفقه والمتكلمين هى فلسفة الاسلام ، وأثبت أن المنطق الأرسططاليسى : منهج الحضارة والفكر اليونانى لم يقبل فى المدارس العقلية الحديثة . وأن المنهج التجريبى الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة هو منهج الاسلام وهو مباين لروح الحضارة اليونانية .

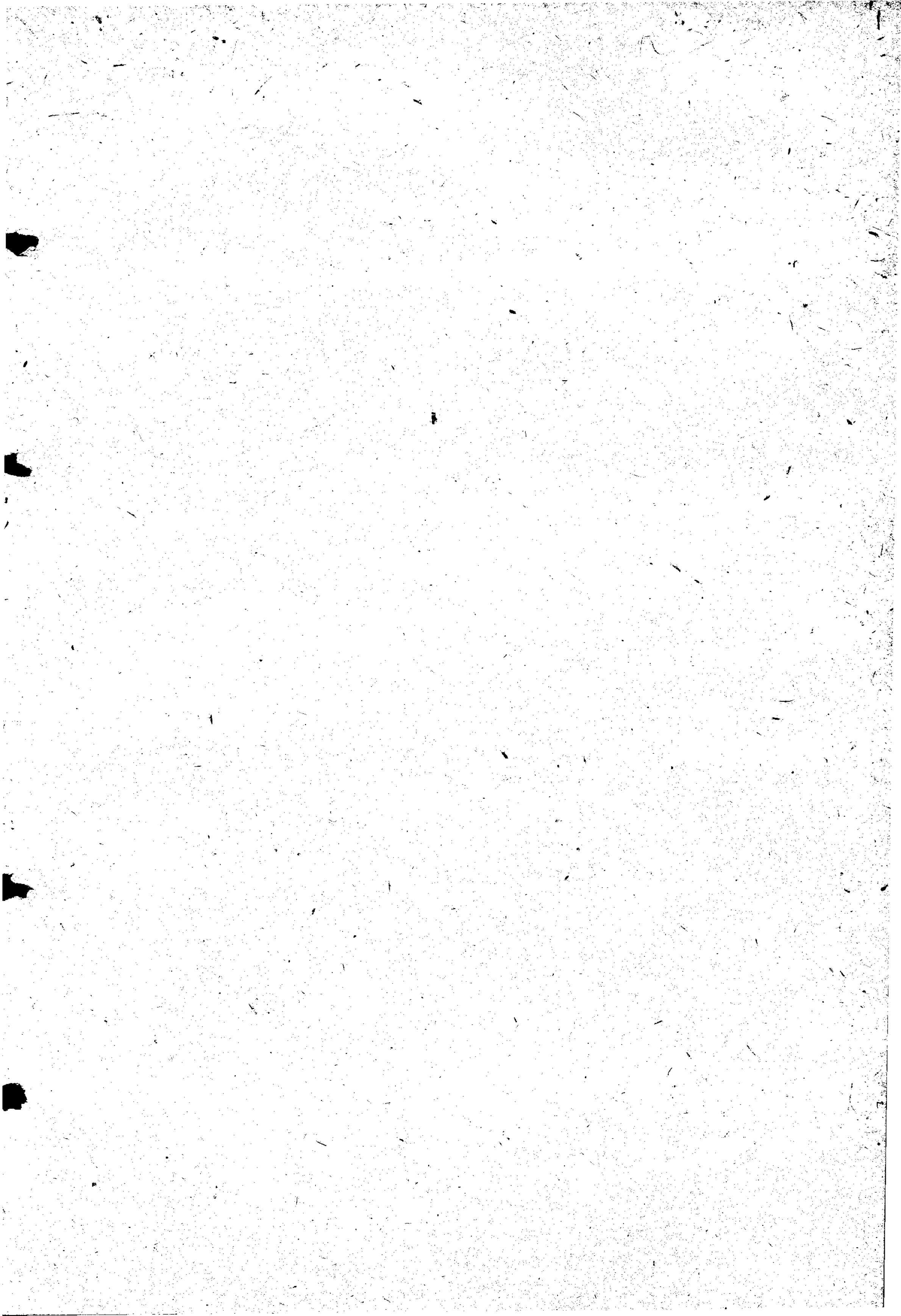
(ثانى عشر) أن الفكر الاسلامى بطبيعته مصادرة وتشكيله وذاتيته الخاصة القائمة على التوحيد والنبوة والربط بين العقل والقلب كان منفتحا أمام الفكر البشرى ولكنه كان قادراً على التماسك دون الانصهار فى أى بوتقه ، ومن هنا كان موقفه من الفلسفة اليونانية ، فاذا كان الفكر الاسلامى قد تشكل على أساس التوحيد والأخلاق واقامة منهجه الفكرى على أساس العقل والوحى فقد كان من العسير أن ينصهر فى الفلسفة اليونانية القائمة على الوثنية والمجتمع العبودى واعلاء العقل وعبادة الجسد ، هذا فضلاً عن أن الفلسفة التى ترجمت لم تكن هى الفلسفة اليونانية وانه قد أصابتها محاذير كثيرة من فساد الترجمة وانتحال الكتب وتحريف النصوص ، خدمة لهدف التبشير بالمسيحية ، ومن هنا فقد قامت المعارضة لها منذ اليوم الأول ، وإن كانت طائفة الفلاسفة المسلمين قد حاولت إدخال الفلسفة اليونانية فى إطار الاسلام فقد فشلت المحاولة تماما ، حدث هذا فى نفس الوقت الذى نما فيه تيار معارضة الفلسفة اليونانية واتسع نطاقه حتى أصبح يمثل ضمير الفكر الاسلامى كله وانعزل دعاة الترجمة والتفسير .

كانت هذه المعارضة مقدمة للشجب الكامل للمفاهيم الفلسفية اليونانية التى تتعارض مع الاسلام فى التوحيد والأخلاق وفى بناء المجتمع نفسه .

كل هذا يؤكد : أنه ليس صحيحا ما ذهب إليه طه حسين ولطفى السيد

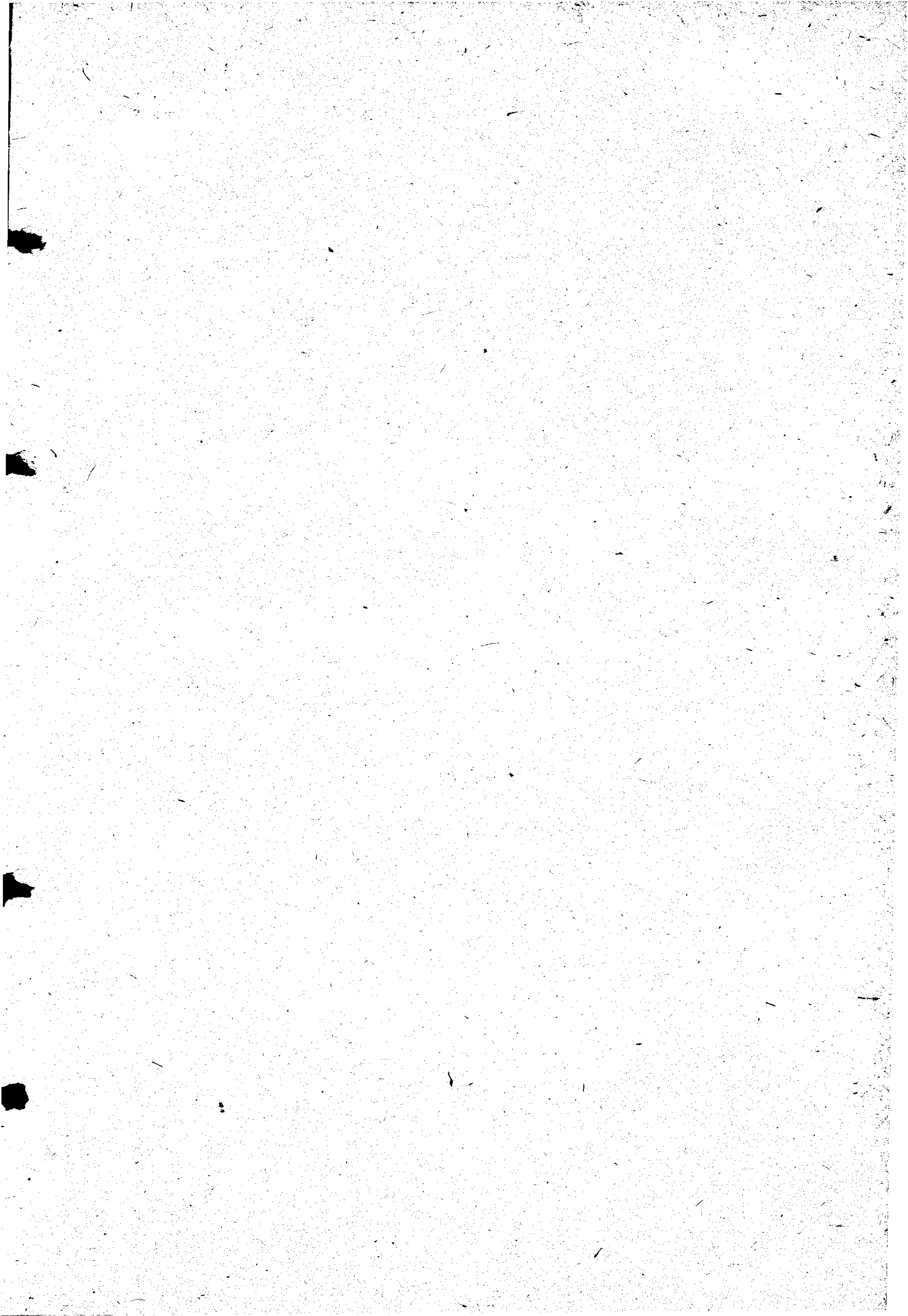
وابراهيم بيومى مدكور من أن منطق أرسطو سيطر على بعض دوائر الفكر الاسلامى . وفى العصر الحديث كشف الدكتور النشار هذه الحقيقة فى كتابه مناهج البحث عند مفكرى الاسلام واثبت إثباتا قاطعاً عدم قبول مفكرى الاسلام المنطق الارسطاليسى ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره ، وتبين عدم صدق الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا المنطق اليونانى واعتبروه منهجا لأبحاثهم .

وقد زيف هذا الفهم المدعم بالدليل أحلام الاستشراق وحركة التغريب.



الباب الرابع

إحياء الفكر الشعوبى والباطنى



الفصل الأول

المؤامرة الباطنية

الفكر الشعوبي والباطني : هو فكر بشرى تسرب إلى أفق الإسلام بعد عصر الترجمة : فقد ترجمت الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية فاختلطت وتضاربت وحاولت احتواء الفكر الإسلامي والسيطرة على القيم الأساسية الإسلامية ، ولقد كان هذا الفكر البشرى الوثنى المادى قد تشكل منذ وقت طويل واستطاع التأثير على المفاهيم التى قدمها دين موسى ودين عيسى ، وعمل على توجيهها نحو التأويل والتبرير والخروج من الضوابط التى جاء بها الدين الحق ، وقد اتجهت هذه المحاولة إلى الفكر الإسلامى واستطاعت أن تجد لها سنداً من الدعاة العتاة فى مختلف مجالات العقائد والأدب والسياسة ، وتحولت من بعد إلى مؤامرات خطيرة ، ودعوات هدامة هددت كيان الدولة الإسلامية ، وقد ووجهت هذه الحركة بالمقاومة منذ اليوم الأول وشمر مفكرو المسلمين لمعارضتها وضربها وكشف زيفها ، واستمرت هذه المواجهة قرنين كاملين حتى صفيت تماماً وعادت للأصالة الإسلامية إلى مكانتها استمداداً من القرآن والسنة الصحيحة ولم تعد هذه القصة إلا صفحة من صفحات التاريخ ، غير أن مؤامرات التغريب والغزو الثقافى منذ بدأت فى العصر الحديث عملت على إحياء هذا الفكر وتجديده مع ماجددت وأثارت من شبهات فى مجال الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى ، فبدأت كتابات من المستشرقين ودعاة التغريب تدافع عن الباطنية والقرامطة والزنج وتعتبر هذه الحركات الضالة دعوات إصلاحية ، وتصورها على أنها ثورات قامت باسم الإسلام ، بل إن الاستشراق والتغريب قد ذهبا فى ذلك إلى أبعد مدى:

إلى اتهام رأى السنة والجماعة والغض من قدر أولئك المجاهدين الأبرار الذين وقفوا أمام هذه المؤامرة الخطيرة ، وظهر من الكتب ما يجدد هذا الفكر الباطنى الشعوبى فى إعادة عرضه والدفاع عنه وتزيينه لإغراء الشباب المثقف به وتصويره على أنه فكر مستقل منقطع الصلة بأوضاعه وظروفه والردود التى واجهته ، وإن فى الامكان إعادة طرحه فى العصر الحديث كفكر عصرى تقدمى ، وذلك أقسى ما يمكن أن تقوم به دعوات التغريب والغزو الثقافى من التمويه والزيف وإشاعة سموم خصوم الاسلام التى سقطت بعد أن واجهت معارضة ضخمة مع الفطرة والعلم والدين والحق .

ولقد توزع التغربيون على مجالات الأدب والتاريخ فوجدنا أولئك الذين أعادوا الكتابة عن أبى نواس وبشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ، وأولئك الذين جـــددوا عرض حركات القرامطة والزنج والراوندية ، والمقنع الخراسانى وبابك الخرمى ، على نحو جديد بادعاء أن هؤلاء كانوا دعاة إصلاح .

وهناك من جدد تاريخ الحلاج والسهروردى وبعث كتبهم وكتب ابن عربي المليئة بالسموم ، كذلك جدد فكر إخوان الصفا وبعث رسائلهم وقدم ابن سينا والفارابى والرازى وغيرهم على أنهم قمم من أعلام الفلسفة والفكر .

ولا ريب أن إحياء هذا الفكر إنما استهدف إفساد الفكر الاسلامى بغمسه مرة أخرى فى هذه الوثنيات والماديات والاباحيات ، حتى لا يستطيع الإسلام أن يعطى عطاءه الحق بتحرر عقيدته الأصيلة ، وفى بعث هذا الفكر دعوة للشيوعية ودعوة للصهيونية واليهودية العالمية حاملة لواء الإسرائيليات القديمة والجديدة .

ولا ريب أن هذه المذاهب تحمل للأهواء المضلة وللنفوس التي لم تتعمق

فهم الإيمان والدين أهواءاً شديدة الخطر ، فإنها تحمل الغاء التكاليف وإسقاط الالتزام الأخلاق ، وإسقاط فرائض الإسلام وإباحة ارتكاب المحرمات والإغراق فى اللذات وهى نظريات فى أبرز مفاهيمها لا تفرق بين الخير والشر والتقوى والإباحة والفضيلة والرذيلة ، كذلك فإنها تقحم على الإسلام عقيدتان لا يقرهما الإسلام وهما عقيدة الجبرية وفكرة الزهد ، وهى تصل إلى ذلك عن طريق تأويل القرآن تأويلا لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا ، ومن هنا كانت أهمية التعرض لهذا الخطر وكشف هذا الزيف .

(٢)

أخذت المفاهيم الباطنية والشعوبية تتسرب إلى الإسلام بتلك الكلمات التى أذاعها عبد الله بن سبأ اليهودى ، الذى دخل الإسلام وأذاع مفاهيم الرجعة والوصية ، فقال إن لكل نبى وصياً ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى وهى نظرية فارسية لا يقرها الإسلام ، وكان هذا أول ما فتح باب التأويل ، ثم كانت مؤامرة مقتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ، نفذها (أبو لؤلؤة) وهو فارسى أسير فى نهاوند أصبح ملكا للمغيرة بن شعبة . وكان الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس من المتآمرين ، كان مقتل عمر مقدمة لمقتل عثمان الذى كان لمفاهيم عبد الله بن سبأ أثرها الخطير فى التمهيد لها. بل وكان لهذه الأفكار التى بثها عبدالله بن سبأ والسبأية من بعده فى أفق الإسلام تلك الآثار البعيدة فى ظهور حركتى الشعوبية والباطنية ، فقد أخذت أفكار المانوية والثنوية تحت أسماء متعددة مختلفة تطرح من جديد فى أفق الإسلام ، وبذلك تشكل ذلك الجناح المتآمر من خصوم الإسلام الذى عجز عن هدم الدولة الإسلامية سياسياً ، وعمل على هدمها عن طريق ضربها فكرياً وإفساد عقيدتها . واستثمرت تلك العقائد الفلسفات والأديان السابقة واستطاعت أن تجدد مفاهيم المجوسية والمانوية

والزرادشستية . وكان أن حملت أفكار هذه الدعوات إلى أفق الإسلام فأثارت كثيراً من الشبهات والشكوك ، وكانت فى مجموعها دعوة إلى تدمير جوهر الاسلام القائم على التوحيد الخالص وعلى الشريعة الاسلامية ذات الحدود والضوابط والأخلاقيات والايمان بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى .

وقد أطلق على هذه الحركة اسم (الزنادقة ، الباطنية ، الشعوبية) استمداداً لاسمها من أبرز مفاهيمها ، ولكنها فى الحقيقة كانت تمثل مؤامرة ضخمة فى مواجهة الإسلام لها أطرافها المختلفة .

ولقد قدمت هذه الحركة إلى الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى شبهات وسموماً وفكراً هداماً كان بعيد المدى فى إثارة الشكوك وزلزلة النفوس :

أولا : قدمت : أحاديث مكذوبة على الرسول يحلون بها الحرام ويحرمون بها الحلال ، حتى يقول بذلك أحد رءوسهم عبد الكريم ابن أبى العوجاء الذى اعترف بذلك قبل موته قال : لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت بها الحرام وحرمت الحلال .

ثانياً : قدمت مفهوماً للعقيدة مغايراً لمفهوم التوحيد الإسلامى ، سواء أكان مفهوم الثنائية المجوسى أو المانوى القائم على إله النور وإله الظلمة .

ثالثاً : قدمت نظرية الشيوعية المطلقة بين النساء والأموال والإباحية بين الناس .

رابعاً : قدمت مبدأ تقديس الحاكم الذى ينبثق عن نظرية الحق الإلهى والتى يرى معتنقوها أن الحاكم يستمد حكمه من الله لأنه ظل الله فى الأرض .

خامساً : دعت إلى إسقاط الفروض الدينية كالصلاة والزكاة

والصوم والحج ، وأباحت شرب الخمر واللذات والشهوات ، وإباحة زواج البنات والأخوات .

سادساً : ادعو أن لكل شيء ظاهراً وباطناً ، ولكل تنزيل تأويلا، وإلى جانب[1] التأويل كان التحايل على الخروج عن الحدود .

سابعاً : أذاعوا بإباحية الكلمة فى شعر بشار وأبى نواس وحماد عجرد ودعبل الخزاعى وصالح بن عبد القدوس وأقاموا للخمر ديوانا فى الشعر يكاد يطغى على سائر فنونه ، وكذلك أسرفوا فى إذاعة شعر الغلمان .

ثامناً : إنكار الوحى المنزل على الرسل والقول بأن العقل الإنسانى هو حلقة الاتصال بين المرأ وربه ، وكان ابن الراوندى فى مقدمة الداعين إلى تقديس العقل والإدعاء كذباً بأن العقل هو الوحى من عند الله ، وإنه لا إيمان إلا بما يراه الإنسان .

واستخدمت الباطنية أساليب وألفاظ أجنبية عن اللغة العربية ، مستمدة من مصادر هلينية وأفلاطونية كما استعارت كثيراً من الطقوس الدينية التى يمارسها الصابئة والأفلاطونية المحدثة .

وكانوا يرمزون إلى الشيء بضده ، ويرون أن الجسم ليس وجود حقيق فهو مجاز ، وأدخلوا عن طريق إخوان الصفا نظرية الإمام ونظرية العقول العشرة والتناسخ وقولهم بالنور العلوى والإشراق ونظرية الصدور ، والعقل الكلى ونظرية الفيض . وكلها مما نقلوه من ذلك الركام القديم .

وقد أطلق على هذه الأفكار كلمة الزندقة ومعناها التعطيل والإلحاد أى

---

(١) التأويل غير التفسير . التفسير شرح أو ترجمة المعنى لكل كلمة ، أما التأويل فيقصد به باطن المعنى أو رموزه أو إشاراته ، وكل الفرق الباطنية تقوم على التأويل وهدف التأويل تغليب المفاهيم الباطنية وتجاهل المفاهيم الظاهرة التى تمثل أصول الأحكام .

نفى وجود إله خالق مدبر للكون . ويقول المؤرخون أن الزنادقة طائفة تظهر الإسلام وتبطن عقائد الفرس ودياناتهم وتعمل على إحياء المعتقدات القديمة ومعارضة الديانات ، والقول بالرجوع إلى قوانين الطبيعة .

وأبرز من حمل لواء هذه الأفكار بعد ابن سبأ : ابن المقفع وبشار وحماد عجرد ومطيع، واستهدفوا نشر دعوى الإباحية وإسقاط التكليف والسخرية بأصول الدين والخلق والنظم الإجتماعية وإثارة الجدل والشك حول الخمر وغيرها من المحرمات ، وحمل بشار لواء نشر الفساد الخلق وإشاعة الفسوق بالنساء ، واشتهر حماد عجرد بالتهتك واللسان البذيء ، وهاجم أهل التقوى والورع ولا سيما النساك وأهل الزهد ، فسبهم بأقذع ألوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم ، وبالغ أبو نواس فى الترويج للخمر وحث الناس على شربها متستراً تحت اسم التظاهر بالظرف ، وبلغت هذه الموجة أوجها فى نفوس البسطاء والضعفاء ، ولكنها وجدت مقاومة صارمة ومعارضة صادقة ، كشفت زيفها وأعادت للنفس طمأنينتها إلى مفهوم الإسلام الحق .

(٣)

أشار الباحثون إلى أن كلمة الباطنية تشمل فرقا عديدة أهمها : الخرمية والقرامطة والاسماعيلية كما أطلقت على المزدكية وهى فرقة مانوية أسسها (مزدك) وظهرت فى عهد الملك الساسانى قباد بن فيروز ولهذه الفرقة شأن سياسى هام حيث أنها أخذت الطريق الدينى والتأويل فى ظاهر الدين سبيلا للدس . وتغلب عليهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع .

وأخطر أصلين من أصول الفلسفة الباطنية هما: (أولا) التفسير الباطنى للكتاب والسنة الذي يهدف إلى تحريف ما اشتمل عليه دستور المسلمين من

أفكار وصرفها إلى معانى بعيدة عما قصد بها (ثانيا) فكرة الإمام المعصوم وجعل هذا الإمام محور ثابت يرتبط به الدعاة بالطاعة الخالصة والانقياد الأعمى حتى يسهل على المتآمرين إقرار خططهم وتنفيذ مآربهم .

ويقول السيد أبو الحسن الندوى : إن فتنة الباطنية نشأت من ثمار الفلسفة اليونانية وكان معظم دعاتها أفراداً وأمما : شعوبا قد فقدت سيادتها وحكمها فى تيار الفتوحات الإسلامية ، ولا مطمح فى استردادها بالحرب ، أو رجالا يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحة وعبادة النفس والإسلام يحد من شهواتهم أو رجالا يطمحون إلى السيادة المطلقة وقد اجتمع هؤلاء تحت رابطة الباطنية وقدشعروا بأن الإسلام لايهزم فى ميدان الحرب وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر فان هذا يلهب غيرتهم الدينية لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم : وهو « الفرق بين الظاهر والباطن » مركزين على الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها وعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين وماضيهم ومنابعهم الصافية فاذا إنقطعت هذه الصلة (بين الكلمات والمعانى) وأصبحت الكلمات لاتدل على معنى خاص ومفهوم معين وتسرب الشك والإختلاف إليها باتت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة وساغ لكل أحد أن يقول ما شاء .

ان أصول الديانة الإسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها إنما عرضت فى إطار ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها وكان لابد من ذلك عن كل رسالة جديدةوقد تعينت معانى الكلمات ومفاهيمها وتواتر ذلك عملياً ولفظياً فى الأمة واستفاض وعرفته الأمة الإسلامية ودانت به فكل من كلمات « النبـــوة والرسالة والملائكة والمعاد والجنة والنار والشريعة والفرض والواجب والصوم والزكاة والحج تؤدى معنى خاصا وتفهم منها مفاهيم خاصة

لا يشك فيها مسلم ولا يختلف فيها إثنان كما أن الحقائق التي تعبر عنها هذه الكلمات ظلت محفوظة في الأمة تتوارثها الأجيال وتنتقل مع الزمان » .

ومن هنا كانت مؤامرتهم في التفرقة بين الكلمات ومعانيها : يقول ابن الجوزي في كتابة تلبيس إبليس : قالوا : إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر وإنها لصورتها توهم الجهال صوراً جلية وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية وإن من تقاعد عقله عن الغوص في الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه » .

وقد مضت الباطنية في هذه المحاولة إلى غايتها تمييزا بين الظاهر والباطن وتفضيلا للباطن واستخفافاً بالظاهر وجعله مصدر سخرية ، واعتباره بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب ووصفوا الظاهر بأنه متناقض معوج وإنه تقليد محض ولا دليل عليه ولا حياة فيه ويقولون : إن الغاية من الشريعة (التأويل) التي هي من الجسد كالروح وأن (التنزيل) ليس إلا جسما وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبي وقالوا إن من ارتقى إلى علم الباطن إنحط عنه التكليف وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنن أمثال مضروبة وتحتها معان في بطونها ولاريب أن هذه الدعوى باطلة تماماً وإنما قائمة على مفاهيم الفلسفة اللاهوتية اليونانية فالباطنية وهي من أخطر الأساليب وأكبرها أثرا في جماعات الناس رغبة في إرضاء الشهوات وهي في جملتها محاولة لتدمير لباب الاســـــلام وجوهره تستهدف إذاعة ثلاث محاذير خطيرة ينكرها الاسلام .

أولا : إيجاد الواسطة بين الله والانسان .

ثانيا : القول بالعصمة للبشر فى أمور العقيدة والشريعة .

ثالثاً : القول بسقوط التكليف .

(٤)

وقد تبين أن أغلب هذه الفرق كانت ترمى إلى غايات سياسية ولكنها اتخذت هذا الثوب البراق للخداع والتضليل من ناحية وحتى تستطيع أن تهدم القيم الأساسية التى تقوم عليها الدولة الاسلامية وقد كان وراء هذه الدعوات مؤامرات القرامطة والباطنية وعبدالله بن ميمون القداح والحسن الصباح الذى بث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة .

وإذا كانت الحركة الباطنية القديمة تهدف من وراء احتضانها لحركتى الشعوبية والزنادقة إلى قلب نظام الحكم الاسلامى، مجندة مجموعة من المجوس والثنوية والملاحدة والفلاسفة والحاقدين على الاسلام والعرب تسموا باسم (الرافضة) الشعوبية فاننا اليوم نجد مثل هذه الجماعات تتجمع من جديد تحت لواء الاستعمار والشيوعية والصهيونية محاولة بعث ذلك الفكر الوثنى تحت أسماء جديدة وفى كتب براقة تعمل لخدمة مخططات بروتوكولات صهيون التى كشفت عن ترابط عميق بين الصهيونية والشيوعية والاستعمار ، وقد أطلق على هذه الجماعات نفس الإسم القديم الروافض والشعوبية، أعداء كل دين وملة الذين يعملون على إحتواء جماعات الشباب والمثقفين المسلمين فى كل قطر عربى .

وإذا كانت «الشعوبية الباطنية» قد نجحت — مرحلياً فى اجتذاب الناس إلى صفوفها بفضل الخدع والمغالطات المنطقية التى استخدمتها — كما يحدث اليوم — فانه سرعان ما ينكشف هــــذا الزيف ويدحض الحق باطلهم ، وقد تبين اليوم بطلان خدعة الفردوس الماركسى الموعود وانكشف فساد

الأيدلوجيات الديمقراطية والاشتراكية والقومية الغربية التى طرحت فى أفق المجتمع الإسلامى .

وكما يتبين فساد الدعوة الباطنية وارتباطها بالمصالح الأجنبية فقد تبين تماماً أن هذه الأيدلوجيات التى يحمل لواءها التغريب والاستشراق لاتهدف إلا إلى إحتواء هذه الأمة وصهرها فى آتون الأممية والعالمية .

لم تستطع هذه الأفكار أن تحدث الأثر الذى كان يتطلع إليه دعاتها وهو تدمير الفكرة الإسلامية القائمة على التوصية كمقدمة لإسقاط الدولة الإسلامية ، فقد كانت مفاهيم الإسلام أكثر أصالة وأقرب إلى الفطرة والعلم والعقل فصدت هذه المؤامرة بقوة وتصدى العلماء المسلمون لهذه الموجة العاتية بقوة فكشفوا زيفها وأدالوا منها ، كما انكشف هدف هذه الدعوات وتبين ما وراءها من مؤامرة سياسية ، وتصدى الكثيرون للرد على هذه الشبهات : وتتمثل هذه المواجهة فى عديد من الأعمال :

أولا : المدارس التى أنشأها نظام الملك لإقرار مذهب أهل السنة والجماعة ودحض مزاعم الباطنية، وقد قامت هذه المدارس بدور هام فى هذه المقاومة ، وشارك فى هذه الحملة علماء كثيرون .: منهم الغزالى والباقلانى والشهرستانى وغيرهم وربط كثير من المؤرخين بين الباطنية والمجوس واستدلوا على ذلك من نصوصهم التى تطلق كلمة العقل الأول على الله (تعالى الله عما يقولون علواً كثيراً) .

ثانياً : ظهرت فرق المتطوعة للنكير على الفساق : وظهر خالد الدريوس الذى دعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسهل بن سلامه الأنصارى الذى دعا إلى العمل بكتاب الله — يقول الطبرى أنه تبعهما خلق كثير وأمكن منع الفساق وكشف عاداتهم ثم جاءت بعد ذلك فرقة الحنابلة فكان لها دورها التاريخى المعروف .

كذلك ظهرت حركة الزهد كرد فعل على حركة اللهو والإنحراف التى قادها الزنادقة .

ثالثاً : عقد الخلفاء المناظرات لمناقشة آراء الباطنية والشعوبية ، ونوهضت أفكار بشار من برد وصالح بن عبدالقدوس ورد على كثير مما أثاره أصحاب العقائد المجوسية وقد نكل المهدى بالزنادقة وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين وأمر بالرد على ما نشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون وعما ترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس فى تأييد المذاهب المانوية والديصانية .

رابعاً : ظهر عدد كبير من حملة لواء الدفاع عن جوهر الإسلام منهم الحسن بن عثمان الخياط الذى ألف كتاب الإنتصار والرد على ابن الراوندى فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم وابن الجوزى الذى ألف فى الرد على الزنادقة والباطنية كتابة تلبيس إبليس حيث عرض بشبهاتهم ودحضها ورد ابن حزم على ابن النغريلة اليهودى الذى ألف كتاباً يناقض كلام الله . والجاحظ وله مؤلفاته فى الرد على الشعوبية والباطنية وأهمها الحيوان والبيان والتبيين وللغزالى فى هذا المجال القدح المعلى : فقد ألف عدداً من الكتب : ألف المستظهرى وحجة الحق ومفصل الخلاف والدرج المرقوم بالجداول والقسطاط المستقيم وفضائح الباطنية وعرض لنظرية الإمام المعصوم وكشف عن أن هناك معصوم واحد وهو محمد رسول الله كما رد عليهم الشهرستانى وابن حزم وابن تيمية وابن القيم كما ظهر جماعة من العلماء العادلين فى مواجهة هذه التحديات ، كانوا نماذج للإيمان والورع والتقوى : من أمثال عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثورى والفضل بن عياض وقد هجر هؤلاء مناصب القضاء والسياسة وأقاموا على دعوتهم إلى الله يعيشون من تجارتهم ويرفضون العطاء .

(٥)

وفى العصر الحديث نرى مفهوم الباطنية يتجدد فى طبع مؤلفات ابن عربى والحلاج وابن الفارض ، ودراسة أفكارهم ومناهجهم وأساليبهم وسائل إخوان الصفا ، ويحمل رجال الأدب المعاصر مسئولية هذا العمل الخطير الذى يجرى تحت اسم التذوق الأدبى أو الفنى كذلك فان كتاب العصر الذين يأخذون من هؤلاء دون أن يقدروا الخلفيات الخطيرة التى تحملها أخطارهم إنما يحملون إلى مثقفى العصر سموماً وشبهات تتعارض مع أصالة الإسلام وقيمه التقدمية البناءة .

ذلك أن المذاهب الباطنية فى أصلها كانت تستهدف العقيدة الإسلامية من أساسها ، وأن تجديد هذه المذاهب تحت اسم الفن أو الأدب أو الفلسفة أو غيرها إنما هو « محاولة » جديدة لطرح هذا الفكر الفاسد المسموم مرة أخرى فى أفق الفكر الإسلامى فى واحدة من محاولات بلبلة العقيدة وتلويثها ذلك أن ما كتبه الباطنية إنما هو تخطيط شديد الخطر أرادوا به هدم أصالة الإسلام بالشبهات والتأويلات والشكوك القائمة على التأويل والتعطيل والدعوة إلى رفع التكليف . والفلسفة الباطنية فى صميمها مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية وعلى الطبيعيات استخدمت مصطلحات الفلسفة اليونانية وعقائدها قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . ولاريب أن الفلسفة تنافى النبوة وتعارضها على خط مستقيم منذ النقطة الأولى فهما لا يلتقيان ، وإذا ظهرت الفلسفة بدأ احتقار الناس للدين ورغبتهم فى التحرر منه ومن تكاليف عقائده .

وما ترجم من كتب الفلسفة اليونانية الهلينية إنما هو كتب الإلهيات والميتافيزيقا وهو ما يسمى علم الأصنام عند اليونان والذى هو وثنيتهم القومية وقد بلغ خطر الباطنية أن قال عنه مؤلف (الفرق بين الفرق) : أن ضرر

الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف .

ولا ريب أن عبد الله بن سبأ هو مؤسس هذا المذهب الباطنى الذى استمده من المجوسية لافساد الاسلام وإزالة ملك دعائمه من العرب ، ومن هذا المذهب تفرعت كل النحل المارقة الهدامة كالقاديانية والبابية والبهائية وغيرها من هذه النحل التى ما تزال ترهق الاسلام وهذا ما يدعو الاستشراق والتغريب إلى التشبيث به .

ولقد وضع عبد الله بن سبأ تعاليم هذه الفرقة وألف تلك الجمعية السرية التى بثها فى مختلف أقطار البلاد الإسلامية والعربية وهو أول من طرح هذه المفاهيم فى أفق الفكر الاسلامى فأنشأ جماعة السبأية الخطيرة التى تولاها من بعد عبد الله بن المقفع ثم كانت تلك الجماعات الخطيرة التى حملت لواء تنفيذ مخطط المؤامرة : كاخوان الصفا والقرامطة والزنج .

(٦)

وفى طريق الانتماء اليهودى يشير بعض المؤرخين إلى المفاهيم التى أخذ (كعب الأحبار) ينفثها والتى تستهدف تشويه أهداف ركن الجهاد تمهيداً لقتله فى نفس المسلم ، وذلك بإثارة الشبهة حول مقاومة أعداء الاسلام أو مقاومة النفس وجهادها ، على النحو الذى تقول به القديانية اليوم ويضيف بعض الباحثين ظاهرة إدعاء بعض اليهود إعتناق الاسلام ومحاولتهم إحداث الفتنة بين المسلمين ومن آثار ذلك كله ظهور (الاسرائيليات) بوضع الأحاديث أو رواية الأحاديث التى نسبت إلى عبد الله بن سلام أو كعب الأحبار ، فقد كان ينظر إلى ما يرونه من الأحاديث نظرة إرتياب لما عرف عنهم وقد أشارت كثير من الدراسات عن أن هناك من دخلوا فى الاسلام

ظاهراً وابطنوا غيره وكان دخولهم ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم ويبثوا فيهم الأفكار المنحرفة .

وقد أظهرت اليهودية فى أفق الفكر الاسلامى القول بالرجعة ودعت بعض الفرق إلى تقديس الامام على . فاليهودية قد أثرت فى الفكر الباطنى كما أثرت فى فكر المعتزلة .

ودعوة الجبرية دعوة يهودية الأصل ، كذلك فان ما وضع من قصص فى كتب التفسير هو من تأثير الاسرائيليات، وهو قصص أعاد بعث الخرافات والأساطير التى كان متداولة فى الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف .

ومن آثار اليهودية مسائل التأويل والمتشابه من القرآن وما يتصل باتخاذ الأقيسة المنطقية والتعليلات الفلسفية وسيلة لاثبات العقائد وهدفها هو إقصاء المنهج القرآنى فى العقائد ومن ذلك التصوير المادى فى وصف العرش والملائكة وحياة القبر .

ولعل أصدق ما يمثل دور اليهود فى الحركة الباطنية ما قاله الشعبى لمالك بن معاوية حين قال : احذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة فانهم يهود هذه الأمة يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية لم يدخلوا فى الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتا لأهل الاسلام ونعياً عليهم وقالت الرافضة لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وقالت اليهود لا يكون جهاد حتى يخرج المهدى .

ومن إمتداد الإنتماء اليهودى تجىء البهائية والقاديانية والروحية الحديثة . وتجىء جماعة الدونمة التى حملت لواء مؤامرة إسقاط الدولة العثمانية ، ويطلق وصف (الدونمة) على يهود من أتراك أزمير وسالونيك حين كانت تابعة للدولة العثمانية اعتنقوا الإسلام فى الظاهر وهم يهود فى الباطن وقد تبعوا فى

إعتناق الإسلام زعيمهم أو نبيهم (شبتاى) الذى ادعى عام ١٦٤٨ أنه المسيح الذى ينتظره اليهود ليعمل على إنقاذهم من تشريدهم وليؤسس لهم ملكا عريضاً ثم ادعى الإسلام ليفلت من الإعدام ، وكان قد قبض عليه عام ١٦٦٦ فى القسطنطينية وحكم عليه بالإعدام فأعلن إسلامه إذ نطق بالشهادتين فلما علم السلطان محمد الرابع حاكم تركيا إذ ذاك حملته بساطته إلى الاعتقاد بأنه أسلم حقاً فعفا عن عقوبته وقد تبع شبتاى أتباعه فى إدعاء الإسلام وهؤلاء هم من يطلق عليهم وصف الدونمة وقد أشارت الموسوعة اليهودية إلى أن هذه الطائفة كانت تدعى الإسلام جهراً ولكنها تقوم بأداء الشعائر اليهودية سراً ولما فشلت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى فى حمل الخليفة العثمانى عبد الحميد على السماح بهجـــرة اليهود إلى فلسطين (التابعة لتركيا) فقد اتجه اليهود ولا سيما الدونمة إلى تحطيم الخلافة العثمانية فى تركيا .

ولم يكن من المصادفات أن يتم تبليغ السلطان عبد الحميد قرار البرلمان التركى بعزله على يد النائب اليهودى (قره صو) نائب سلانيك فقد كان هذا النائب ذاته هو الذى سبق أن أوفده اليهود الصهيونيون لمقابلة السلطان عبد الحميد وإغرائه بقبول هجرة اليهود إلى فلسطين فى مقابل دفع خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية لخزانة الدولة وخمسة ملايين لخزانة السلطان الخاصة وقد رفض السلطان العرض وكان اليهود ولا سيما الدونمة فى سلانيك وغيرهما هم مؤسسى محافل الماسونية والداعية إلى الدعوة الطورانية فى تركيا وذلك للتخلص من الإسلام واللغة العربية وفصم عرى الروابط بين الترك والعرب ولقد كان لذلك أثره فى حكم مصطفى كمال أتاتورك(١) .

---

(١) مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين .

الفصل الثاني

الدعوة الشعوبيـــة

الدعوة الشعوبية هي واحدة من فصائل مخطط المؤامرة على الإسلام ، وقد انصبت حملاتها على :

(أولا) مهاجمة العرب حملة لواء الإسلام وأصحاب الدولة الإسلامية في تاريخهم وأسلوب حياتهم وطمس ذاتهم وكيانهم ومهاجمة فكرة الشرف العربي والطعن في نظرتهم إلى المروءة ومهاجمة القيم العربية والفضائل الخلقية التي تتمثل في مفهوم الشرف والكرامة .

(ثانياً) مهاجمة التاريخ الاسلامي ، واللغة العربية .

(ثالثاً) الطعن في جذور أصول القيم الاسلامية وجذورها .

(رابعاً) تفسيخ القيم الخلقية العربية الاسلامية .

وقد عمدت الشعوبية إلى مهاجمة الثقافة العربية بصورة عامة لإحياء الثقافة الفارسية القديمة وتقليل شأن الثقافة العربية وإظهارها وكأنها غير وافية بحاجة العصر ، وقد ركزت الشعوبية في هجومها على اللغة العربية بحسبانها وعاء الثقافة العربية بعد أن سيطرت على شعوب عالم الاسلام واللغات القديمة ، وأصبحت لغة الثقافة ولغة السياسة معاً ، ولذلك فقد اتجهت حملتهم إلى تحريض أصحاب اللغات بالعودة إلى الانتاج والتأليف بلغتهم .

كذلك عمدت الشعوبية إلى إذاعة المجون والشراب والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى واعتبرت ذلك نوعاً من التحرر والظرف .

ونحن نجد اليوم نفس الأسلوب يتكرر بظهور الشعوبية الحديثة التى تطعن فى العرب ومقوماتهم وعقيدتهم وتحمل لواء الاباحية والالحاد وتستخف بالقيم الأخلاقية فى بناء الأسرة والجماعات ، فنجد الدعوة إلى مظاهر الخلاعة والمجون والانغماس فى الشهوات الجنسية وشرب الخمر تحت اسم الانطلاق والتحرر والعصرية .

وقد تركزت حملة الدعوة الشعوبية فى تزييف التاريخ وظهرت ما أطلق عليه كتب المثالب وقد حملت هذه الكتب صوراً مشوهة وزائفة للعرب بهدف استنقاص تاريخ العرب وقيمهم وحمل الأجيال الجديدة على التنصل من ماضيهم واحتقار أمتهم .

وكذلك قامت على بعث الأساطير والخرافات القديمة والتراث الوثنى لابعاد المجتمع الاسلامى عن تاريخه الأصيل .

وهذا العمل قد تكرر فى العصر الحديث عن طريق كتابات المستشرقين والمبشرين وأتباعهم من دعاة التغريب وقد عاش الدكتور طه حسين عمره كله يجمع صور الفحشاء والانتقاص من تاريخ العرب والمسلمين ويذيعها وتابعه على هذا الطريق عدد كبير من التغريبيين : أمثال لويس عوض ولورنيس ويوسف الخال وحسين فوزى وزكى نجيب محمود وسلامة موسى ومحمود عزمى .

ولقد واجه الثعالبي والجاحظ فى العصر الأول سموم حملات الشعوبية ودافعوا عن اللغة العربية وأظهروا مزاياها وكشفوا عن مظاهر حيويتها ونشط الكتاب والمفكرون العرب لربط التراث الثقافى العربى قبل الاسلام بالأدب العربى بعد الاسلام ، كما عمد البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان إلى الكشف عن الدور الضخم الذي قام به العرب فى سبيل نشر الاسلام وتكوين الدولة الاسلامية .

واليوم نجد عشرات من كتاب حركة اليقظة يواجه حملات الشعوبية على اللغة العربية والقيم الإسلامية العربية فى الجيل الأول من أمثال مصطفى صادق الرافعى والغمراوى ومحب الدين الخطيب وحسن البنا وتواصل الأجيال حمل لواء المقاومة .

قال السيد المرتضى : نشأت جماعة تتستر بإظهار الإسلام وتظهر شعاره وتدخل فى جملة أهله وهم زنادقة ملحدون وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ لأنهم يوغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع والزندقة تعادى الإسلام والعروبة معاً : تبدأ بالتهجم على العرب إلى مهاجمة العربية وتنتهى بالهجوم على الإسلام . وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة قال : « فانما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فان التجاوز عن الدين يؤدى إلى تجاوز كافة القيم » .

ويوضح ابن قتيبة أن الشعوبية تدفع أصحابها إلى الغلو فى القول والإسراف فى الذم وهم حين يركزون على الأمة العربية إنما يتطلعون منها إلى هدم الإسلام نفسه ولذلك فقد عمدت حركة المواجهة الإسلامية إلى تأصيل دور العرب الذين حملوا راية الإسلام إلى الشعوب الأخرى وأعطوا الإسلام نطاقه الجغرافى الأول بالفتوحات وصحب انتشار الإسلام توسع العربية إذ نزل القرآن بلسان عربى مبين وجاء الحديث بالعربية الفصحى وقام العرب بالدور الأول فى وضع خطوط اللغة وفى رسم المذاهب الفقهية ، فعربوا الدواوين والإدارة فى صدر الإسلام ، وهم الذين عملوا بجد وحماسة لتكوين العلوم العربية والإسلامية ورسم إطارها العام إلى أن جاء دور الشعوب الأخرى لتشارك فى هذه الثقافة فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية .

وكذلك ركزت حملات الشعوبية على الجـــذور والأصول فهى تهاجم

العرب قبل الإسلام وتتهمهم فى كل شىء : فى أسلوب حياتهم وفى فصاحتهم وخطبهم وفى أنسابهم وفى علاقاتهم الاجتماعية وفى مقاييسهم الخلقية .

وقد واجهت الأصالة العربية الإسلامية هذه الحملات فكشفت عن زيفها وأظهرت السجايا العربية الحميدة وكشفت عن المروءة العربية ودافعت عن أنساب العرب وكيانهم الثقافى .

وكانت من أخطر محاولات الشعوبية فى القديم ، التى تجددت فى العصر الحديث الدعوة إلى العـــودة إلى اللغات المحلية وقد ساعد على ذلك نفوذ الاستعمار والتبشير الذى حال بين كثير من أجزاء العالم الإسلامى من اتخاذ اللغة العربية لغة أساسية بعد أن فرض عليهم إحدى اللغتين الفرنسية أو الانجليزية وعمد إلى لغاتهم الإقليمية فدفعهم إلى كتابتها بالحروف اللاتينية .

وقد دافع الجاحظ والثعالبى عن اللغة العربية لأنها لغة القرآن ولغة الثقافة العامة وفى العصر الحديث دافع كثير من رجال حركة اليقظة عن اللغة العربية وكشفوا زيف خصومها (اقرأ كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية).

الفصل الثالث

إخوان الصفا

كانت (إخوان الصفا) هى أولى ثمار الحركة الباطنية فهى الجماعة السرية التى مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية لتخرج للناس مذهباً جديداً. بمزج الهيات اليونان ونظريات أفلاطون وارسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم بالعقيدة الإسلامية فى خليط متضارب فاسد.

وقد انتج هؤلاء العشرة « رسائل إخوان الصفا » التى أذاعوها بعد أن كتموا أسماءهم واستتروا وراء تلك الرموز الخفية التى وضعوها هناك وهناك من فصول كتاباتهم واستهدفوا منها وضع برنامج للعمل السرى الذى يستهدف القضاء على الإسلام ودولته وتأسيس دولة أخرى على أنقاض الدولة الإسلامية تضم العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية التى نسقوها من جماع ركام الفكر البشرى الزائف الممتد من فارس إلى الهند إلى اليونان والذى اختلطت فيه الهلينية الإغريقية بالغنوص الشرقية.

وصفهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) بأنهم « عصابة » تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة فوضعوا مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنعوا خمسين رسالة (٥٠ رسالة) فى جميع أجزاء الفلسفة علمياً وعملياً وأفردوا

لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا) وكتموا فيها أسماءهم وبثوها فى الوارقين ووهبوها الناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة » .

« وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات يعوزها التعمق والنظام ويظهر فيها الإغراق فى الخيال والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد وبحث فى كل علم عن غير إشباع وإقناع، فهى مبثوثة من كل قيد بلا إشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلاف لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هى النفوس الشريرة الهائمة فيها فلك القمر مع أخواتها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً ويشتمل على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الإعدام والتنجيم والفال والزجز ، والسحر والعزائم والإيمــــان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الإفلاك ونغماتها ويشتمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة يقوم على إقامة أهل البيت وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكم والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهيـــــة ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليست لها أهمية كبيرة ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم فى القرن الرابع والخامس وإجلال كل مايظهر من الصنعة الفلسفية كما نالت هذا الاهتمام » .

وهكذا نرى بوضوح أن الرسائل كانت مقدمة لتحويل الدعوة الباطنية

إلى مؤامرة خطيرة لتدمير الدولة الإسلامية والفكرة الإسلامية معها ، أو كما قال أحد الباحثين : محاولة لوضع نظام جديد خلقى إلهى علمى يحل محل الشريعة الإسلامية التى يعتقد إخوان الصفا أنها بشكلها الحاضر قد أصبحت عتيقة لاتؤدى رسالتها وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تنتج نظاماً علمياً ولم تنشىء مجتمعاً جديداً يقوم على أساسها وأصبحت فى مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التى لاتأثير لها فى الحياة ولا محل لها إلا فى المتاحف والمكتبات .

ويرى الدكتور عبد اللطيف محمد العبد: ان إخوان الصفا وخلان الصفا الوفا كانوا يضعون السم فى العسل لخدمة أهدافهم ,وأن هذه الرسائل كانت سجلات لمحافلهم السرية وأنها تمثل المذهب الباطنى الإسماعيلى فى دور الستر ، لما تقوم عليه من تأويلات باطنية عديدة ولقد كان المذهب الأفلاطونى المحدث تأثير بالغ فى هذه الرسائل فلم يختلف إخوان الصفا عن أفلوطين فى القول بأن العالم وحدة حية متكاملة نابضة بروح سارية فى كل أجزائه (وهو مايسمى مذهب وحده الوجود الذى ينكره الإسلام إنكاراً شديداً ويعارضه معارضة تامة) .

كذلك فهم فى أبحاثهم عن الإنسان (صديقاً وفيلسوفاً ونبياً ورسولا) يطبقون تعاليمهم الباطنية وينفثون سمومهم الهدامة .

وهم فى مفهومهم للامام يعارضون مفهوم الإسلام الصحيح حين يرون أن الإمام إلهى الذات وأنه معصوم بينما لايقر الإسلام عصمة إلا لرجل واحد هو محمد بن عبد الله رسول الله وبذلك فقد كانت هذه الرسائل هدم لمفاهيم الإسلام الأساسية وهدم للنبوة وحرب للاسلام وطعن فى الصحابة .

وقد استغل الباطنية التشيع فى نشر دعوتهم كما استغلوا التصوف الفلسفى وتستروا وراء أهل البيت والصوفية .

وكانت دعوتهم إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب لدين ما علامة على انحرافهم وخروجهم على مفهوم الإسلام الأصيل كذلك فقد كان أشد آرائهم فساداً هي قولهم أن الخاصة لا حاجة لهم إلى الشرائع ، ودعوتهم إلى التحلل من من الفرائض وقولهم أن الشرائع للعامة وحدهم ولا ريب أن ما سموه علم الباطن إنما يعني أن الرسول كتم شيئاً من الوحي عن عامة الناس وحاشا لله أن يكتم صلى الله عليه وسلم شيئاً .

(٢)

أشكل منذ وقت بعيد معرفة مؤلفي رسائل إخوان الصفا فذهبت طائفة من الناس إلى أن الذي ألفها أحد متكلمي المعتزلة أو الإمام جعفر الصادق (جاء ذلك في منهاج السنة النبوية لابن تيمية) وذكر بن حجر في فتاويه أن الذي ألفها هو المجريطي وأيده في ذلك صاحب كشف الظنون وذهب البعض إلى أن جماعة لا شخصاً واحداً هم الذين ألفوا هذه الرسائل في البصرة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري وأشار أبو حيان التوحيدي إلى أن وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة أخبره عام ٣٧٣ هـ أن من جماعة إخوان الصفا أبا سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالقدسي وأبا الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبا أحمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة .

وهناك من نسب الرسائل إلى أحد أئمة العلويين، لكون الرسائل مملوءة بالتعاليم الاسماعيلية ويقول الباحث الذي نقلنا عنه هذا (مجلة الكلية م ١٨ سنة ١٩٣١) أن الرسالة الجامعة هي خلاصة الرسائل والتعاليم الباطنية اختص بقراءتها أقطاب الدعوة الإسماعيلية دون غيرهم وقد كان لبول كازنوفا الفضل الأول في إظهار هذه الرسالة للعالم الغربي ١٨٩٩

ولا ريب أن اهتمام الاستشراق والتغريب بهذه الرسائل كان بالغاً ولذلك فإن جماعة منهم (نيكلسن — جولدزيهر — أوليري) بالإضافة إلى كازنوفا قد

وضعوا عدداً من الأبحاث حولها وإن كانت كتابات هؤلاء المستشرقين لم تستطع أن تنكر نسبتها إلى الحركة الباطنية فقال كازنوفا :

« انى على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هي برمتها آراء الإسماعيلية ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الإمام وقد اتهم القرامطة والحشاشون من قبل أعدائهم بالكفر ولكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة) . ويقول أوليرى: هناك مايغرى بالظن بأن حركة إخوان الصفا كانت حركة إصلاح من جانب بعض الإسماعيليين الذين أرادوا الرجوع إلى تعاليم الاسماعيلية القديمة ويقول جولدزيهر اعتقد أن رسائل إخوان الصفا كانت الأساس الذى بنيت عليه معتقدات الإسماعيلية » . ولا عجب أن يدافع المستشرقين عن اخوان الصفا .

ويقول أديب عباسى (الرسالة م ١٩٣٤) معلقاً : أن أول مايلحظ فى أوجه الشبه بين الإسماعيلية وإخوان الصفا : الأسلوب الذى جروا عليه فى نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم وهو أسلوب الإسماعيلية المعهود (أسلوب التدرج فى بث الفكرة والتلطف فى عرضها على الناس) ومن أبواب التشابه بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقاً كلياً فى مذهب الحلول فهو فى رسائل إخوان الصفا كما فى تعاليم الإسماعيلية المحور الذى تدورّ حوله هذه الرسائل والتعاليم » .

ووجه آخر : هو تفسير القرآن تفسيراً مغايراً لمايدل عليه ظاهر اللفظ وهذا هو الأسلوب الباطن ووجه ثالث هو التشيع لآل البيت والدعوة إلى الأمام المنتظر أو المهدى ويرى أن المعنى فى كلام إخوان الصفا للفاطميين وقرائن الأحوال تدل على أنه لهم بهم صلة .

ويقول مالكدونالد : أنه مما يثبت علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية ومن تفرع منهم وجود قسم من رسائلهم فى كتب الحشاشين المقدسة .

وقد ألقى بعض الباحثين أضواء أخرى على موقف إخوان الصفا تشير إلى أن المثل الأعلى فى رسائلهم ليس مثلا أعلى إسلامياً (وإنما هى عبرانى فى مخبره مسيحى فى منهجه يونانى فى علمه) (مجلة الرسالة الإسلامية م ١٩٧٢) وأخطر مايدفعهم هو أنهم لم يقفوا عند عقيدة واحدة، وإنما أخذوا من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب دون إطار ثابت هو فى حـــد ذاته دليل على مؤامراتهم ضد الإسلام.

وكون أنهم لم يعلنوا أسمائهم يدل على أنهم دعاة لاعلماء.

كل هذا يكشف أن لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول إلى الحكم أو القضاء على الدولة القائمة، ولذلك فهم يكثرون من ذكر رموز وإشارات معينة لها تفسيرها الخاص وهذه الظاهرة واضحة فى كتابات ابن سينا الذى يستعمل الرموز والإشارات:

ولاريب أن تفهمهم للدين مخلوطاً بالفلسفة هو فى حد ذاته خروج عن مفهوم الإسلام الصحيح.

وقد ذكر السيد محب الدين الخطيب (مجلة الفتح م ١٨ — ١٢٦٧ هـ) عن أغاخان فى كتابه [نورمبين حبل متين] أن مؤلف إخوان الصفا من أئمة الإسماعيلية وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ويقول الدكتور حسين الهمذانى أحد دعاة الإسماعيلية البهرة: أن الإسماعيلية يرون القرآن كتاب العامة ورسائل إخوان الصفا، كتاب الأئمـة.

(٣)

كان من أبرز أعمال التغريب والغزو الثقافى ممثلا فى الاستشراق والتبشير إعادة طبع وإحياء رسائل إخوان الصفا من جديد بعد أن دفنت وماتت

وكشف زيفها أكثر من ألف سنة فقامت المطبعة الكاثوليكية فى بيروت بإعادة طبع هذه الرسائل . ثم جاء الدكتور طه حسين من أوربا ١٩٢٩ ليعيد طبع رسائل إخوان الصفا ويقدم لها وليس هذا عيباً فى ذاته إذا ماروعى فيه أصول البحث العلمى ووضعت هذه الرسائل فى موضعها الحقيقى من حيث أن هذه جماعة إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع الهجرى فى البصرة على هيئة جماعة سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية .

وقد كان هدفهم من هذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الإسلامى لو أن الدكتور طه كشف عن هذا الهدف لكان صادقاً فى النصح لقومه ولكن الدكتور طه كذب على الناس وادعى أن إخوان الصفا قوم مجددون مصلحون قدموا للمجتمع الإسلامى الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية لإنشـــاء ثقافات جديدة وهى الثقافة التى يجب على الرجل المستنير أن يظفر بها .

وهكذا خدع طه حسين قومه وهو يعلم فى أعماق نفسه أنه إنما يعمل على هدم القيم الإسلامية بإعادة إذاعة هذه الرسائل كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافى .

وينضم إليه زميله زكى مبارك ليقول : من الذى يصدق أن رسائل إخوان الصفا هى أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية ، هكذا علمهم المستشرقون ، أما المطبعة الكاثوليكية فهى تقول أن من أسباب عظمة هذه الرسائل أن كتب عنها طه حسين وفروخ وجبور والدسوقى وصليب والهمزانى والعواو ماسينيون ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا فى درجة واحدة فى الإعجاب برسائل إخوان الصفا وفيهم من كشف عن علاقة إخوان الصفا بالمؤامرة الباطنية .

ولقد كان حقاً على هؤلاء جميعاً أن يكشفوا حقيقة رسائل إخوان الصفا

بالنسبة لمفهوم الإسلام الأصيل : وأن هذه الرسائل تعارض هذا المفهوم فى عدة أصول أساسية :

أولا : إنكار البعث بالأجساد .

ثانياً : تفسير الجنة والنار والآخرة تفسيراً مخالفاً لما تواتر عند المسلمين .

ثالثاً : تفسير الكفر والعذاب تفسيراً باطناً معنوياً .

رابعاً : فساد نظريتهم القائلة بأن النبوة يمكن أن تكتسب عن طريق الرياضة وصفاء القلب .

خامساً : فساد قولهم بأن من ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

ومن أشد فساد عملهم محاولتهم صهر الأديان والعقائد كلها فى صورة زائفة ومن ذلك قولهم : الرجل الكامل يكون فارسى النسب عربى الدين عراقى الآداب عبرانى المخبر مسيحى النهج شامى النسك يونانى العلم هندى البصيرة صوفى السيرة ملكى الأخلاق .

وهذا يعنى وحدة الأديان وهى دعوى اليهودية التلمودية التى حاولت على مدى العصور أن تكيد للاسلام ، وهى دعوى تتجدد فى العصر الحديث حيث نرى دعاة التغريب يقولون بالتقاء الأديان والثقافات فى وحدة الثقافة العالمية التى تشهد أصولها من الفكر التلمودى الذى احتوى الفكر الغربى والحضارة العالمية .

ولا يبعد هذا عما كان يقوله إخوان الصـــفا فى رسائلهم : حين يقولون « ينبغى لإخواننا ألا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها ، أما مفهومنا الإسلامى فان الاسلام له ذاتيته الخاصة

وأصالته المفردة التي تجعله قائماً بذاته مستمداً من طوابعه وقيمه ، وحدها ولايقبل الانصهار في الفكر البشرى أو الأممية والعالمية القائمة على الوثنية والمادية .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى رسائلهم : بأنها مبثوثة فى كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهى خرافات وكفايات وتلفيقات وتلزيقات ، حملتها إلى شيخنا أبو سليمان المنطق السجستانى محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلا ثم ردها على وقال .

تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا مالا يكون ولايمكن ولايستطاع ، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة التى هى علم النجوم والأفلاك والمجسطى والمقادير وآثار الطبيعة والموسيقى التى هى معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان والمنطق الذى هو اعتبـــار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات فى الشريعة وأن يضموا الشريعة للفلسفة وهذا مرام دونه حدود ، وقد توفر على هذا — قبل هؤلاء — قوم كانوا أحد أنياباً وأعظم أقداراً وأرفع أخطاراً وأوسع قوى وأوثق عرى فلم يتم له ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ماأملوه ، او حصلوا على لوثات قبيحة ولطخات ناضجة ، وألقاب موحشة وعواقب مخزية ، وأوزار مثقلة .

ويقول أبو سليمان المنطق بعد ذلك : وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهى النصارى وكذلك المجوس ومما يزيدك وضوحاً ويريك عجبـــاً ، أن الأمة اختلفت فى آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها ومزقاً كالمرجئة والمعتزلة والجوارح فافزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلسفة ولاحققت مقالتها بشواهدهم وشهاداتهم ولا اشتغلت بطريقتهم ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها ، وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام

من الحلال والحرام . منذ أيام الصدر الأول إلى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم ولا قال لهم أعينونا بما عندكم أو اشهدوا لنا أو علينا بما قبلكم » .

وهكذا نجد أن هذا العمل قد وجد من علماء المسلمين معرفة لهدفه وكشف لزيفه بما أسقطه فى نظر المثقفين ، حتى جاء دعاة التغريب يجددوه فى العصر الحديث وادعو أنه علم وفهم وثقافة وماهو إلا سموم عرفها أهل الأصالة الاسلامية وضلال كشفوا عنه وأبانوا فساده وكان خليقا بأهل عصرنا أن يعرفوا هذا فلايترددوا فى خطر النظر أو المتابعة لهذه الأعمال الضالة المضلة .

الفصل الرابع

دعاة الباطنية

حظى دعاة الباطنية الذى حملوا سموم هذه النحلة المضلة بتقدير كبير من رجال التغريب والغزو الثقافى وكان لهم القدح المعلى لدى حركة الاستشراق والتبشير فكتبت الأبحاث الطوال حول عبد الله بن سبأ وعبد الله بن المقفع وابن سينا والفارابى وابن الراوندى والرازى والمأمون ووضعوا جميعاً موضع التمجيد والتقدير ، واحتفل بهم فى ميادين مختلفة منها ميادين الأدب والتاريخ والفلسفة وألف الدكتور طه حسين كتاباً ضخما تحت اسم الفتنة الكبرى ليبرىء اليهودى ابن سبأ من المؤامرة التى قام بها والطائفة التى تشكلت باسم السبيئة والتى كانت تقول بألوهية على بن أبى طالب بينما تجمع المصادر التاريخية الإسلامية كلها على أنه يهودى من اليمن يلقب بابن السوداء أظهر الإسلام ورحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة ودخل دمشق فى أيام عثمان فأخرجه أهلها فانصرف إلى مصر وهو فى كل مكان يؤلب على عثمان ويدعو إلى خلعه ويؤلب عليه .

وقد كان عبد الله بن سبأ هو أول من أدخل فى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم الوصية والرجعة والتناسخ وقد قال برجعة النبى ودعا بألوهية على ، عن ابن عساكر أنه لما بويع على قام إليه ابن سبأ فقال له :

أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق فنفاه إلى ساباط المدائن حيث القرامطة وغلاة الشيعة وقيل إنه قال أن محمداً خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . قال ابن حجر العسقلانى أن ابن سبأ من غلاة الزنادقة .

وقد بث عبد الله بن سبأ فى البلاد الإسلامية دعاته وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والطعن فى الأمراء فأخذوا يثيرون الناس على ولاتهم تنفيذاً لخطة زعيمهم ويضعون كتباً فى عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصرهم من الأمصار ونتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبأيين وقدومهم إلى المدينة وحصار أمير المؤمنين عثمان فى داره وقتله .

وتكشف كتب التاريخ الإسلامى عن دور عبد الله بن سبأ الواضح فى إثارة الفتنة وتنظيم الاتصال بين الثوار فى مختلف مدن الأمصار .

وقد نقل الطبرى (٥ - ٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أن اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ورد الشام فلقى أبا ذر فقال له: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله أن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فأتى أبو ذر معاوية فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين : مال الله فقال معاوية يرحمك الله يا أباذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره، وأتى ابن السوداء الصحابى الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له ما قال لأبى ذر فأجابه أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهودياً ، وأتى ابن سبأ الصحابى المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق به معاوية فقال هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر » .

وكان للسبأئيين موقف آخر خطير ، فإنهم مارأوا المسلمين قد بايعوا عليا وخرج طلحة والزبير إلى البصرة لحرب الجمل ، ووجد السبأئيون أن رؤساء الجيش أخذوا يتفاهمون وإنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان فاجتمعوا ليلا وقرروا أن يندسوا بين الجيشين ويثيروا الحرب بكره دون علم غيرهم فاستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناوش

المندسون من السبأيين فى جيش على من كان بإزائهم من جيش البصرة ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شراً .

قال رشيد رضا : من راجع أخبار واقعة الجمل فى تاريخ ابن الأثير فلا بد يرى مبلغ تأثير إفساد السبأيين لذات البين دون ما كان يقع من الصلح .

وقد وصف ابن سبأ بأنه كان مبشراً متجولا يغوى المسلمين ويوردهم مورد الخطأ وألقى عصا الترحال فى مصر حيث استقر هناك يدعو الناس إلى الاعتقاد بالرجعة .

ويشير الأستاذ محمد سعيد الأفغانى إلى أن الجمعية التى أنشأها عبد الله بن سبأ كانت تعمل لحساب دولة أجنبية هى دولة الروم التى انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام ، يقول: اقطع بأنه أحد أبطال جمعية سرية مختفية غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأن هــذه المؤامرة كانت منظمة محكمة مهر عليها أبالسة خبيرون وتمهدوها فى جميع الأقطار حتى أتت ثمرتها وإن هذه المؤامرة لم تلق من عامة المؤرخين ما يستحق من التوضيح والاهتمام . وعنده أن عبدالله ابن سبأ أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين هما الرجعة والوصاية فى قوله « العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ومحمد أحق بالرجوع من عيسى فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت فى المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك: إذا كان ألف نبى ولكل نبى وصى وكان على وصى محمد ومحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء (تاريخ الطبرى ٣ - ٣٧٨ وجمع بين إفساد الميدان الدينى والسياسى فى إذاعة قوله (فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسـول الله ووثب على وصى رسول الله

وتناول أمر الأمة) ثم قال أن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر . ثم طاف الأقطار العربية قطراً قطراً وبدأ بالحجاز باثاً ضلاله ثم انعطف إلى الشام يومئذ بصير بأمره معاويه الذى فطن إلى خطره فأبعده إلا أنه على ضرره أصابه رشاش من إفساد والطبرى زعم أن ابن السوداء لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر ، والصحيح أنه قدر وزرع وحرك على معاوية صحابيا جليلا أذعن عامة الشام لأقواله حتى اضطر معاوية الداهية الحليم أن يطلب إلى الخليفة عثمان إخراجه من الشـــام : ذلك هو أبو ذر الغفارى وحادثه معروف .

واستقر فى مصر، بؤرة الناقمين ـ إذ ذاك ـ، وأحكمت هذه الجماعة أمرها وأرسلت إلى الأمصار كتبا مزورة بما شاءوا من شكوى واستنجاد بأهل الأمصار وتحريض لهم على الثورة والخلع وجعلوا هذه الكتب على لسان على وطلحة والزبير وعائشة . وملأ ابن السوداء البلاد نقمة وفسادا وسالت جموع الثائرين على مدينة الرسول فقتل الخليفة عثمان وبعد أن سقط الخليفة عثمان وضج الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى: وأخذ يتحفز لأحكام مؤامرة أكبر وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لاتذكر إلى جانبها كارثة عثمان فقد انضم هو ومن تابعه إلى على ابن أبى طالب حين خرجت السيدة عائشة للمطالبة بدم عثمان .

قال لهم : إذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأى وتفرقوا عليه .

(الطبرى جـ٣ ص٥٠٧ — ٥٠٨ حديث هذه المؤامرة)

خرج مضريهم إلى مضريهم وربيعهم إلى ربيعهم ويمانيهم إلى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ، فقالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا ، فقالا : قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وانه لن يطاوعنا واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم وقال على قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، والتحم الناس بعضهم ببعض وبدأت المعركة ثم انحسرت عن خمسة عشر الف من القتلى وما لا يحصى من الجرحى وكان ممن قتل رءوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

وجملة ما قام به ابن السوداء وأخلافه فى مختلف الأعصار والأمصار :
(١) الدس فى الدين (٢) تفـــريق الكلمة (٣) الاستهانة بالتاريخ (٤) الاستخفاف بالتقاليد والمقومات (٥) الوضع فى شأن اللغة (٦) إفساد الأخلاق (٧) التهوين من سلامة النظم (٨) الإشادة بكل مذهب أجنبى .

ويعلق محمد سعيد الأفغانى على ذلك فيقول : إن هذه المؤامرة ترجع إلى توســـيد أمورنا الصغيرة والكبيرة إلى الذين كانوا مطايا للاستعمار وجواسيس للأجانب وأجراء لكل دعوة هدامة .

والواقع أنه يمكن الآن الرجوع فى كل نظريات التغريب والغزو الثقافى إلى أفكار عبد الله بن سبأ .

ومع هذه الإدانة الشديدة لعبدالله بن سبأ يتابع طه حسين رأى اليهودية التلمودية فى إنكار وجوده ، والادعاء بأنه شخصية خيالية حيث يقول إنه

ليس لهذا اليهودى (عبد الله بن سبأ) يد فيها وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها .

(راجع هذه القصة فى كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

يقول : هناك قصة أكثر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورث هذا الإختلاف من فرقه بين المسلمين لم يمح آثارها بعد وهى قصة عبد الله بن سبأ ويقول : لست أدرى أكان لإبن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن . ولكنى أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان .

وقد دحض دعوى الدكتور طه الأستاذ محمود محمد شاكر حين قال : إن قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد وتعمد ، فإن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، وان سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء فهو شيخ الطبرى والبلاذرى وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه . وأن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة التى بين أيدينا ، وإن كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين ان البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) ، ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال ، وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ولا تدرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى نفيه ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه .

ثم يشير محمد محمود شاكر إلى اعتماد طه حسين فى إنكار عبد الله بن سبأ على الجزء الذى طبع من كتاب البلاذرى (أنساب الأشراف) فى إسرائيل وقام بطبعه رجل من طغاة الصهيونية ويقول : ليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هـــذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى أورشليم . نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى قد يترك المؤلف منها شيئاً فى مكان ثم يذكره فى مكان آخر وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول أفلا يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة عمار بن ياسر أو محمد بن أبى بكر أو محمد بن حذيفة أو رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة . وهو يعلم أن الذى وجد فى كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً طبع منه جزء فى ألمانيا ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر ١٩٣٨ ، وقال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربية أن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية هى واقعة كربلاء وموت الحسين ، أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله بن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه هذا اليهودى ، كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفى شيئاً لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويمضى عنه ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسى الدكتور ان من يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هـــذا الخبر وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحقيقاً له ، ان الدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله بن سبأ وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى .

لقد خالف الدكتور سنة العلم والعلماء فى نفى الأطباء وتكذيبها بلا حجة

من طريق أهل التمحيص ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى وتقديمه على الطبرى وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها . كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً .

إن الهدف هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الأخبار وكذب الرواة فى شىء بغير برهان وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان .

وهكذا نجد أن الدعوات الشعوبية والباطنية الحديثة قد وجدت طريقها من إحياء مادة الدعوات الباطنية القديمة لزلزلة العقائد وإفساد المفاهيم تحت اسم إحياء التراث أو النقد الأدبى .

(٢)

ويمثل عبدالله بن المقفع الحلقة الثانية فى ذلك المخطط الذى رسمه عبدالله ابن سبأ ، وهو اسم لمع فى العصر الحديث واهتم به دارسو الأدب العربى ، أعلوا من قدره وحاولوا أن يحملوه على رأس البلاغة العربية متجاهلين الدور الحقيقى الذى قام به بلغاء الصحابة الذين سبقوه على الطريق ، وقد جرت إحاطة اسمه بهالة من التقدير والإعجاب ليس بوصفه صاحب الأسلوب البليغ بل وبأنه الرجل الذى ترجم عديداً من ثمرات الأدب الفارسى إلى الأدب العربى ، ولا ريب أن ابن المقفع كان ماكراً شديد المكر ، فقد سار فى طريقه بخطوات دقيقة متتبعاً خطة المؤامرة الشعوبية الكبرى ، وإن كان أمره قد انفضح من بعـــد ونال جزاءه ، ولكن دعاة التغريب فى العصر الحديث استطاعوا عن طريق فصل قطاع الأدب عن جسم الفكر الإسلامى وقيمه ، أن يذيعوا به كثيراً من أعمال الشعوبية الخطيرة ، ولقد كشف

الباحثون عن خطره وتآمره وعرفوا موضعه فى مطالع هذه المؤامرة الشعوبية الضخمة حتى وصف بأنه أكبر أعداء الإسلام على الإطلاق ، وقد قضى أكبر شئ حياته فى عهد الدولة الأموية ، وكان زرادشتيا فى قول لاشتهاره بالقيام بطقوس المجوس عامة ، وكان فى قول آخر مانوياً أو مزدكياً وقد قال بترجمة كتاب مزدك المعروف باسم ديستاو إلى العربية لنشر العقائد المزدكية فسرعان ما تكونت فى أول العصر العباسى فرق مزدكية كثيرة ، كما أنه كتب (الدرة اليتيمة) فى معارضة القرآن ، وترجم كتاب كليلة ودمنة ، ولضمنه باب برزويه أخطر الأبواب يعارض فيه الأديان ويثير الشبهة بعدم إمكان التوصل إلى اليقين ، ويعتبر العقل وحده أعظم وسـيلة وأفضلها للمعرفة ، وما يزال كتاب كليلة ودمنة فى أيدى شبابنا فى مطالع دراستهم يثير هذه هذه الشبهات منذ قرره الدكتور طه حسين على طلاب المدارس الثانوية ، وهو موجود فى أيدى الشباب تحت اسم البلاغة العربية مع ما فيه من سموم وكان ابن المقفع يرمى إلى نشر الإلحاد والتحلل من الإسلام بالذات قاصداً تشكيك ضعيفى العقائد فى الدين ودعوتهم إلى مذهب المانوية ، وقد أشار العلامة البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) إلى مانوية ابن المقفع وقد سجل ما قاله الخليفة المهدى عن ابن المقفع حين قال : ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٨٧)

يقول البيرونى « وبودى لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (رينج تنتر) وهو المعروف عرفاً بكتاب كليلة ودمنة فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله ابن المقفع فى زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعيفى العقيدة فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب مانى ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل .

والمعروف أن حركة الترجمة التى قامت فى صدر الإسلام كانت تستهدف ترجمة الإيجابيات من العلوم اليونانية القديمة ، ولكن المجوس الذين تولوا هذا العمل وفى مقدمتهم ابن المقفع ، حولوا الإتجاه نحو الفلسفة الإلهية التى هى علم الأصنام عند اليونان ، ويعد ابن المقفع فى نظر المؤرخين هو أول من ترجم من إلهيات اليونان وفلسفاتهم ، ثم تولى الترجمة بعد ذلك النصارى من النساطرة واليعاقبة (حنين اسحق وآله) ، كما ترجم ابن المقفع من الفارسية أيضاً كتب أديانها القديمة ثم لم تلبث الترجمة أن انحرفت نحو الوثنيات والإباحيات من الفلسفات القديمة ، ومن أبرز من عملوا فى هذا المجال عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت وموسى بن خالد والحسن بن سهل والبلاذرى وزادويه بن هاشويه وكلهم من المجوس ، وقد قاموا بترجمة كتب المجوسية والأساطير .

يقول الدكتور على سامى النشار فى كتابه مقدمة مناهج البحث عند مفكرى الإسلام : إن (روزبه) القديم (عبد الله بن المقفع) وكان أكبر ضاغن على الإسلام فى القديم قدم أول ما قدم للقضاء على نظام الإسلام الاجتماعى كتاب (مزدك) ثم كتاب (برزديه) ليثبت تناقض الأديان وبخاصة الإسلام ، وعدم يقينيتها وما يظهر له فيها من تناقض بينما يؤكد يقينية الفلسفة ووصولها إلى الحق المطلق ، ثم قدم أو دفع ابنه محمد بن عبد الله المقفع ليقدم أول ترجمة لعلم ظن أنه الصورة الكبرى لليقين قانون يهدى فى نظره فى أفق فوق الخطأ فإذا أعلن المسلمون إن كتابهم المقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أشار لهم إلى (باب برزديه) الذى يقرر خطأ الكتاب وتناقضه وإن طريق الفلسفة هو طريق اليقين ثم يدعم كل هذا بصورة المنطق الأرسطاليسى البناء المتكامل اليقينى فى نظره . لقد غرس روزبة مجوسية الفرس وأتى ثمرة منشآت مجامع الغنوصية الخطيرة

على أثر روزبه كما تناول المنطق متفلسفة ظهروا فى الإسلام ومجدوه ورفعوه فوق كل يقين ، وحاولوا مزجه بكل علم إسلامى ولم تكن الجماعة الإسلامية غافلة عن كل هذا فسرعان ما تناولت المنطق الأرسطى بالدراسة والتمحيص فزقه إياه كل ممزق وأنشأت منهجها ، بل كان المنهج قد يكون منذ البدء مستنداً على القرآن والسنة والعودة إلى قانونهما .

ويقول الدكتور على سامى النشار : إن خلفاء زوربه كثيرون فى عصرنا وقد تعددت أشكالهم وتنوعت صورهم ولكنهم هم جميعاً نسخ مشوهة منتنة لابن المقفع الكريه ، لقد فشل ابن المقفع من قبل وهم أيضاً فاشلون .

وقد تصدى كثيرون لابن المقفع وكشفوا زيفه وفضحوا سمومه بالإضافة إلى ما أورده البيرونى وابن خلكان فقد قام القاسم بن إبراهيم الزيدى المتوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) وقد أشار القاسم إلى ما نويه ابن المقفع .

وقد وصف دعاة التغريب ابن المقفع بأنه علم من أعلام الفكر الحر ، وأنه مصلح اجتماعى ، وهذا كله من الزيف الذى يراد به إضفاء صورة البطولة على هذا الشعوبى الخطر ، الذى تؤكد المراجع كلها على أنه بقى أميناً لعقيدته المجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور ، قال لعيسى بن على : قد دخل الإسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك قال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فإذا كان الغد فاحضر ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام : قال أكره أن أبيت على غير دين ويروى البعض أنه مر ببيت النار بعد إسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا دار عاتكة التى أتغزل حذر العدا وبك الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل

وهكذا نجد أنه كان مخادعاً فى إسلامه ، ويقول الجاحظ إنه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن إياس ووالبه بن الحباب وبشارد بن برد وأبان اللاحق فيهجو بعضهم بعضا وكل منهم متهم فى دينه وقيل إنه عارض القرآن .

وقد اتهم بالزندقة فى آخر أيامه فقتله سفيان بن معاوية والى البصرة ، وقد كشف الأستاذ جويدى الإيطالى فى كتاب إبراهيم أبو القاسم الذى نشره وهو كتاب الرد على اللعين عبد الله بن المقفع ، فى هذا الكتاب عن فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد كان يكتب باسم النور الرحمن الرحيم ، يمدح النور ويقول إنه منبع الخير من حيث إنه منزل على محمد وأشار إلى ما نقله ابن المقفع من الفارسية من كتب مانى وابن لايصان ومرقيون .

ولقد حاول الدفاع عن ابن المقفع فى العصر الحديث كثيرون من دعاة التغريب من أمثال طه حسين وأحمد أمين وبطرس البستانى ورأيهم مردود إزاء هذه الوثائق التى لاشبهة فيها .

ولاريب أن مؤلفاته التى ترجمها تكشف وجهته: ترجم خداى نامة أو سير ملوك الفرس، وآسين نامه أو كتاب المراسيم والتقاليد وكتاب (التاج) فى سيرة أبو شروان ، كما ترجم كتاب مزدك فى الأدب والمثل الأخلاقية المجوسية مما لا يأتلف والمفاهيم الإسلامية وكتاب كليلة ودمنة الذى أضاف إليه باب (برزويه) قاصداً تشكيك ضعفاء العقائد فى الدين فضلا عما يقال من أنه

ترجم كتب أرسطو المنطقية الثلاثة وكتاب إيساغوجى لفرفوريوس الصورى وكلها كتب تشكك فى العقيدة الإسلامية .

وقد أشار هلال الى ناجى أن عبد الله بن المقفع الذى سبق أن ترجم كليلة ودمنة هو الذى نقل هزار أفسانه (ألف خرافة) إلى العربية والتى كانت نواة كتاب ألف ليلة ولا ريب أن ما قدمه عبد الله ابن المقفع فى كتاب ألف ليلة ما زال قائماً حتى اليوم يثير الشبهات فى النفوس حول وثنيات المجوسية وفساد الصور التى قدمها والقصص المليئة بالسموم والإباحيات .

وقد حاول البعض أن يصفه بالبطولة فى نقد نظام الحكم والملك وإنه كتب نص الأمان الذى سيمنحه الخليفة لعمه الثائر عبد الله بن على فوضع ابن المقفع فى الأمان الشرط الشديد التالى (فإن لم يف أمير المؤمنين عما جعل له فهو برىء من الله ورسوله والأمة فى حل وسعة من خلعه) .

والباحث فى كتاباته عن نظام الحكم والملك فى الدرة البهية والأدب الكبير والصغير يجد الهدف الواضح من التآمر على نظام الحكم الإسلامى بغية هدمه وإضعافه لحساب المؤامرة الباطنية والقرمطية التى كانت ترسم وتدبر .

قال المقريزى إنه كتب أماناً تعدى فيه ما يكتبه الخلفاء من الأمانات وقد جمعت هذه الوقائع كلها لتكون فى صفحة اتهامه :

١ — ما قاله الخليفة المهدى فيما روى ابن خلكان أن كل كتاب زندقة يعود فى أصله إلى ابن المقفع .

٢ — باب برزويه التى أضافه إلى كتاب كليلة ودمنة قاصداً به تشكيك ضعفاء العقيدة فى الدين .

٣ — ما قاله حين مر بعد إسلامه ببيت من بيوت النار مبدياً حنينه إلى ديانته القديمة .

٤ — ما أورده القاسم بن ابراهيم فى كتابه المرسوم (الرد على الزنديق اللعين) عن معارضته للقرآن وقلة احترامه له .

٥ — ما أورده المسعودى فى مروج الذهب من أن ابن المقفع وآخرين من الملاحدة ترجموا مؤلفات مانى وابن ديصان ومرقيون كما أن ابن المقفع ترجم كتاب مزدك ويعلق الصفدى بأن كتب الزنادقة الممنوعة تحوى أكثيراً من آراء ابن المقفع

٦ — ما أشارت إليه روايات عديدة وأكيدة عن اتصال ابن المقفع بخلفاء الشعوبيين والمجان المتهمين بالزندقة من إقبال البقلى (الذى أنكر البعث والقيامة) وعمار بن حمزة وإبان اللاحق وسهل بن هارون وحماد عجرد .

٧ — ارتبط اسم ابن المقفع بتهمة الزندقة عند المسعودى وابن خلكان والبيرونى والصفدى ، وقول جويدى إنه كان قليل الاحترام للقرآن الذى حاول أن يعارضه .

وفى كتاب ابن المقفع للمستشرق جبريللى هذه العبارة التى تدين ابن المقفع حتى فى نظر المستشرقين زعماً عنهم فقد أشار جبريللى إلى أن الفقرات التى تنتقد الدين فى باب برزويه هى من وضع ابن المقفع التى حشرها دون أن يسفر بوضوح عن عقيدته الالحادية وقال : إن القطعة كلها بما فيها من جـرأة فى التفكير ومغزى تهكمى لاذع لا يمكن أن تكون قد كتبت وانتشرت باسم مؤلفها فى دوائر بلاط فارس الساسانية ودينها الرسمى هو المزدكية أو فى المجتمع الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى . ولكن من

المحتمل جداً أن عقلا يسوده الشك كما كان عقل ابن المقفع قد أظهر فى هذه القطعة أراءه ناسياً إياها إلى شخص أجنبى . إن علينا أن نرفض أن يكون ابن المقفع وهو فى سن الرجولة والنضج قد تعلق بالمجوسية وآمن بها إيماناً عقلياً ، ولو أنه من الممكن أن يكون ابن المقفع مع ذلك يميل إلى دين الفرس القديم من ناحية العاطفة والحضارة ، ويؤكد جبريللى عقيدة ابن المقفع المانوية وصحة نسبه (باب برزويه) فى كليلة ودمنة إليه وكذلك الكتاب الذى رد عليه القاسم بن ابراهيم ويقول : بأن ابن المقفع رد على مادة القرآن بطريقة فلسفية جدلية وبراهين عقلية أثارت الامام القاسمى أيما إثارة لحملته على الرد بنفس الأسلحة التى صنعتها المعتزلة فى تلك الفترة وتعنى مقالة ابن المقفع : خلو المعارف الدينية من اليقين وتناقض الأديان فيما بين بعضها البعض .

ويقول المستشرق كروس : إن النسخة الأصيلة الفهلويه لنفس النص تتضمن أقوالا شكوكية عن الأديان جعلها ابن المقفع أساساً لما دونه من إضافات بالاضافة إلى هذا كله فإننا نجد الاجماع على اتصال ابن المقفع بالمانوية ودفاعه عن أعداء الدولة وانتقاده سياسة الخلافة فى رسالة الصحابة ودعوته لتعليق واقتباس النمط الفارسى للحضارة .

(٣)

ولا ريب أن ابن سينا من ألمع الأسماء التى حاولت حركة التغريب والشعوبية فى العصر الحديث دفعها إلى أفق الشهرة والتبريز فى محاولة إحياء الفلسفة القديمة وتجديدها ، ونحن نشهد بأن ابن سينا الطبيب لا غبار عليه وإنه رائد فى مجاله وأن الأمر لو اقتصر على هذا الجانب العلمى فى حياته لما وجد عليه من ملام ولكن المستشرقين والمبشرين ينفخون فى آراء ابن سينا

الفلسفية ويعلون من شأنها ويضعون شخصيته فوق كل الشخصيات ويحجبون به الأعلام ذوى الأصالة من أمثال البيرونى وغيره .

بينما تثبت الوثائق أن ابن سينا كان على طريق إخوان الصفا والباطنية وأنه قد أودع كتاباته تلك الأسرار والرموز التى يعرفها أصحاب المخططات السرية لقلب الإسلام ، ولقد أعلى ابن سينا من شأن العقل علواً شابه به المعتزلة وزاد عليهم فقد دعا إلى ما أسماه سلطان العقل وتقديس العقل عما هو باطنى فى النظرة الإسلامية الصحيحة. وليس هذا الذى يقوله ابن سينا إلا متابعة لمناهج الهلينية اليونانية وليس له أساس اسلامى ما ، وهذا هو موضع اتهام ابن سينا وهو فى نفس الوقت موضع تقدير الاستشراق والشعوبية له . ولم يكن ابن سينا متورطاً فى اتجاهه هذا وإنما كان قاصد إليه قصداً يقيناً لأنه كان من دعاة الباطنية وزعمائها المستورين .

ولقد كانت محاولة ابن سينا فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الإسلام — من الأعمال التلفيقية المغرضة التى لا تصدر عن مؤمن بالإسلام - إذ كانت تستهدف إخضاع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد للفلسفة اليونانية الوثنية الإباحية ولقد كانت تلك كبرى مقاتله ، لأن هذا الاتجاه الذى سار فيه هو والفارابى إنما كان الطريق الذى رسمته الباطنية ودعت إليه وأشار إليه إخوان الصفا . وقد اعتبره الإمام الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) كافراً خارجاً عن الإسلام بسبب قوله بقدم العالم وعلم الله بالكليات دون الجزئيات ونفى البعث والمعاد .

وبالرغم من أن ابن سينا حاول الدفاع عن نفسه ونفى تهمة اتصاله بالمؤامرة الباطنية فإن وقائع حياته تكشف هذا الانتماء كما تؤكد المصادر الإسماعيلية على باطنيته . فقد تأثر بفلسفة المعتزلة التى انكمشت على نفسها شرقى فارس بصورة خاصة أثر الضربة التى تلقتها على يد المتوكل .

ويتحدث الأستاذ إبراهيم الخال عن باطنية ابن سينا (مجلة الرسالة العراقية : أيلول ١٩٧٢) فيشير إلى أنه أضاف إلى الفلسفة نظرية الفيض الأفلوطنية التي ورثها من الفارابي وإخوان الصفا ويقول : إن فلسفة ابن سينا كانت ثمـــرة شجرة غرسها مؤسسوا الدعوة الإسماعيلية فى أرض يونانية .

ويفصل القول فى هذا الصدد فيقول : إن الذى يظهر من سيرة ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) أنه رجل دنيا وسياسة كما كان فيلسوف فى عصر كانت فيه السياسة والدين وجهين متلازمين للدولة والحكم تولى منصب الوزارة لبعض الأمراء البويهيين .

وكان هؤلاء زيدية وتعرض للسجن والقتل غير مرة لأسباب سياسية وأصبح طبيباً ونديماً لعلاء الدولة الذى اتهم بالزندقة لملازمته إياه .

وكان الناس فى اصبهان ينظرون إلى ابن سينا كزنديق ، لحياة اللهو التى كان يحياها فقد كان من أصحاب الكأس والطأس وكان ينزع فى حياته الشخصية نزعة ابيقورية مغرقة فى اللذة والحس والشهوة ، وقد وصفه ابن خلكان فى أيام حياته الأخيرة بالإفراط فى الشهوات والأكل . ولقد كان ابن سينا من أكبر أعداء السلطان محمود الغزنوى ، وكان الغزنويون أعداء الاعتزال والباطنية والفلسفة الإلهية . ولو كان السلطان عثر عليه فى الرى لقتله على وجه التحقيق ، وقد هرب ابن سينا من الرى قبل وصول السلطان وكان دائم الهـــروب من كل أرض يمتد إليها يد الغزنويين ، وكان الغزنويون موالون للدولة العباسية ومسنودين من دار الخلافة وكان ابن سينا بذلك من أعداء الدولة العباسية ، ولم يكن ابن سينا من الشيعة الاثنى عشرية إذ كان والده باطنياً إسماعيلياً كما أن البيت الذى نشأ فيه كان مفتوحاً للدعاة الاسماعيليين أي لرسل الفاطميين الذين يحكمون مصر ويطمحون إلى حكم الشرق الاسلامى

وكان ولاء ابن سينا للفاطميين الاسماعيليين سراً وكان ابن سينا قد وجه منذ مطالع صباه وجهة إسماعيلية باطنية صرفه عندما دفعه أبوه إلى دراسة الرياضيات والفلسفة وكان ذلك بدافع عقائدى من أبيه وهى القاعدة الأساسية للعقيدة الاسماعيلية وهى الوجه الثانى الذى يقابل الوجه الروحانى لها .

فالباطنيون يعتقدون عن إيمان بأن تراث الفكر اليونانى إنما هو تراثهم الخاص ، وإن الفلاسفة (سقراط - أفلاطون - فيثاغورث - أرسطو - أفلوطين) هم فلاسفة إسماعيليون فملاقالباطنية من إحدى نواحيها فى معتقداتهم فلسفة ومدرسة فلسفية نما فيها وازدهر الفكر اليونانى (عارف تامر = أربع رسائل إسماعيلية - دار الكشاف) إنهم يفسرون الطبيعة وما يتعلق بها من حرارة ورطوبة ويبوسة ومن جهات أربع وفصول السنة ومكونات جسم الانسان ثم ما فيها من كواكب وبحار ومعادن على أساس من خواص الأعداد كالعدد ٤/٧/١٢ طبقاً لما جاء فى نظريات إخوان الصفا المستوحاة فى الفلسفة للفيثاغورثية فى الرياضة والحساب (مصطفى غالب = تاريخ الدعوة الإسلامية) .

وتؤكد هذه المراجع الباطنية أن رسائل إخوان الصفا قد وضعت من قبل علماء إسماعيليين بأمر من الامام الاسماعيلى (أحمد الوفى) الذى كان مستتراً أيام المأمون وإنهم لا يذكرون أسماء مؤلفيها .

أما بخصوص ما وراء الطبيعة (الالهيات) فإنهم يعتمدون نظرية الفيض التى ورثها ابن سينا عن الفارابى وعن إخوان الصفا ونظرية الفيض تعود بالأصل إلى أفلوطين ومدرسة الاسكندرية وخلاصتها عن ابن سينا أن الله عقل محض وإنه يعقل ذاته ودائم التأمل فيها وحيث أن التعقل هو علة الوجود فقد فاض عن الله بالضرورة موجود واحد هو العقل الأول وعنه فاض

ثان له خواص خاصة حتى العقل العاشر وهو العقل الفعال الذى فاض عنه عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه .

وهذه العقول المفارقة للمادة كانت عند الفلاسفة اليونان أكثر من خمسين عقلا ولكن الفارابى ثم ابن سينا أوقف الفيض عن العقل العاشر ليتفق ذلك مع مراتب الدعوة والدين لدى الفاطميين .

وهم يرون أن العقل الأول هو رتبة التنزيل (الناطق) .

والثانى : رتبة التأويل (الأساسى) .

والثالث : رتبة الأمر (الامام) .

والرابع : رتبة فصل الخطاب (الباب) .

والخامس : رتبة الحكمة (الحجة) .

(راجع مؤلف تاريخ الدعوة الاسلامية) فقد ذكر المؤلف أسماء الدعاة : ابن حوشب ، الكرمانى ، ناصر خسرو ، ابن سينا ، الفارابى ، إخوان الصفا ، الرازى ، السجستانى ، والذى يظهر من ذلك أن ابن سينا لم يكن باطنياً عادياً وحسب وإنما كان داعياً من أقطاب دعاة الباطنية .

فابن سينا عندما تفلسف إذن كان يخضع الفلسفة لمفاهيم العقيدة الباطنية الاسماعيلية حيث أنه كان يقابل نتائج بحوثه الفلسفية مع مراتب الدعوة التى كانت موجودة ومقررة وقبل الفارابى ومنذ أيام إخوان الصفا فى عصر المأمون على أقل تقدير .

ونظرية الفيض الأفلوطينية هذه هى أخطر النظريات الميتافيزيقية التى تحتويها العقيدة الباطنية لكونها تتعلق بالامام الباطنى المعصوم الذى كان يصل بمنزلته لدى القائمين على العقيدة أحياناً إلى درجة ينبوع المبدعات أو مبدع الذات أى العقل المحض ودرجة الربوبية .

وفى كتاب إسماعيلى مخطوط بعنوان كتاب المحصول : إن الامام إلهى الذات ، سرمدى الحياة ، غاية الغايات ، ومبدع الذات ومخترع الصفات وهو مبدع الابداع .

وقولهم : إذا ظهر الامام بصورة الجسم مكان اسم من أسماء الله وصفة من صفاته .

وإذا تحدث العليا كان هو الله فى الحقيقة :

أما (نظرية الفيض) فهى عماد نظرية العقيدة الباطنية .

ومن هنا كان ابن سينا باطنياً بل داعية باطنياً كبيراً على وجه التأكيد .

ويرى ابن سينا أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وإنه إذا علم الجزئيات فإنه يعلمها بمعانيها وليس بأعيانها وشخوصها وهذا يخالف مفهوم السنة ويعارضه تماماً .

والرجل باطنى النشأة والتربية توجه فى دراسته الأولى وجهة باطنية ولم يكن مخلصاً للبويهيين ومن أعداء الغزنويين والدولة العباسية التى ناصبها الفاطميون الباطنيون العداء . إنه يتفق فى فلسفته كل الاتفاق مع العقيدة الباطنية فى وجهيها الميتافيزيقى والروحانى ، وهو إضافة إلى المصادر الباطنية الموثوقة التى تؤكد كونه من كبار دعاة الباطنية .

ولا ريب أن هذه المادة التى استخلصها الأستاذ إبراهيم الخال من كتب الباطنية والتى اعتمد فيها على كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين ، هذه المادة كافية لتوضيح موقف ابن سينا وعدائه للفكر الاسلامى القرآنى وإيمانه بغير ما يؤمن به المسلمون ، ولا ريب أن هذه الفلسفات التى تتعلق بالعقول العشرة وهي من الفكر الأفلوطيني الفاسد ما تزال تدرس فى

جامعاتنا ومدارسنا على أنها نظريات فلسفية بينما هى سموم معارضة لمفهوم التوحيد ومناقضة للاسلام الصحيح .

ويجب أن تحاط فى دراستها بالخلفية التى تكشف تطورها التاريخى ومحاولة مؤامرة الباطنية الكبرى لوضعها واستغلالها لافساد العقلية الاسلامية والتأثير عليها وقد تجدد هذا الفكر الوثنى المضلل فى العصر الحديث بواسطة الاستشراق والتبشير وعادة التغريب دون أن يتنبه أحد إلى أخطـــاره ومحاذيره .

* * *

تتركز فلسفة ابن سينا الخاصة حول مسائل ثلاث :

مسألة الفيض ، والنفس الانسانية ، ونظرية المعرفة الاشراقية وماتتضمنه من نظريات خاصة إلى النبوة والمعجزات والتصوف .

أولا : نظرية الفيض . لم يكن هو الذى ابتكرها وإنما سبقه إليها أبو نصر الفارابى ولكن ابن سينا وضحها ودعمها بحيث ينظر إليه أحيانا على أنه هو الذى ابتدعها وهى محاولة لتفسير صدور العالم وتعتمد على أساس من التوفيق من عناصر أفلاطونية وإرسطوطالسية وإسلامية وبها مسحة من التصوف فمن أرسطو أخذ كل من الفارابى وابن سينا ان الله (جلّ وعلا عما يقولون علواً كبيراً) عقل محض يدرك نفسه وعن أفلوطين فكرة مراتب الوجود وعن المتكلمين التفرقة بين الواجب والممكن وعن الصوفية فكرة الإتصال بالعقل الدائم وبالذات الإلهية ويرى الغزالى ان ابن سينا استخدم نظرية الفيض لتقرير قدم العالم ويرى ابن رشد أن نظرية الفيض عند الفارابى ثم عند ابن سينا دخيلة على الفلسفة الحقة ويتهم كلاهما بالكذب ويصف الفارابى وابن سينا بأنهما أول من قال هذه الخرافات فقلدهما الناس وهذه كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين .

ثانياً : فى موضوع النفس الإنسانية استرشد ابن سينا بآراء الفارابى فى النفس مع إدخال كثير من التعديل والتفصيل عليها وتكشف قصيدة النفس لابن سينا عن تأثره الكبير بآراء أفلاطون .

ثالثاً : أما فى الفلسفة الإشراقية الخاصة بآرائه فى النبوة والوحى والمعجزات والنصوص فانه يربط نظرية الفيض بنظرية مادية هى وحدة الوجود التى تقول بأن الله يتجلى وانه يتحد بكل مخلوق من مخلوقاته (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ويرى أن كرامات العارفين كمعجزات الرسل . وان العارف متى وصل ذهل ، ومن هنا لا يكلف والتكليف لمن يعقل التكليف .

وهذا القول باطل ومعارض لمفهوم الإسلام الأصيل الذى لا يقر سقوط التكليف عن أى واحد من المسلمين ولا عن النبى .

ويقترب ابن سينا فى هذا من أسلوب الباطنية وان ألبسه ثوباً صوفيا براقا ومن أخطر آرائه التسوية بين المعجزات والكرامات والسحر التى يستشهد عليها بتجارب الكهان من الوثنيين وهو مادى فى نظرته حيث يرجع المعجزات والسحر والكرامات إلى تأثير القوى النفسية للأجزاء السماوية .

ويكشف ابن سينا فى ختام كتابه (الإشارات والتنبيهات) عن هويته التى أخفاها كثيراً عن الناس فى أبحاثه وبدا وكأنه العالم متخصص ، فهو يسجل فى الوصية التى يوصى بها أتباعه روحا باطنية واضحة ، ويقدم منهجا باطنيا صريحاً شبيهاً بمنهج أخوان الصفا والفلسفة الاسماعيلية ، ويوصى أتباعه بأن لا يذيعوا أسرار الحكمة الشرقية إلا لمن يثقون بنقاء سريرتهم واستقامة سيرتهم وطلب من خلصائه أن يقرأوا فى حلقة مغلقة ، وأن يدرسوا الحالة النفسية لمن يريدون ضمهم إلى مذهبهم مع أخذ العهد على

المريدين أن يسلكوا مسالكهم مع الذين سيوكل إليهم فيما بعد مهمة جذبهم إلى هذا المذهب السرى الباطن وهذه الوصايا تشبة وصايا الباطنية .

* * *

وقد تحدث الدكتور محمود قاسم عن ابن سينا وكشف القناع عن حقيقته فقال أنه حرص على تأويل النصوص الدينية تأويلا باطنا حتى يجعلها على وفاق مع فلسفته الخاصة وهى فلسفة إشراقية فى المقام الأول وهى تلك الفلسفة التى إنتقلت إلى أوربا وأشار إلى حياته الخاصة فقال أنه خصص أمسياته للسمر والشراب والسماع وطالب المتعة ، وكان مسرفا على نفسه فلم يعن بعلاج المرض الذى أصابه ولم يتحفظ فى شرابه وطعامه ولم يقتصد فى متعته فأشتد عليه المرض ومات فى السابعة والخسين ، وقال ان نظريته فى الفيض مأخوذة مما أورده بطليموس عن العقول العشرة كما تأثر فى قصيدة النفس بآراء أفلاطون .

(٤)

ولا يخلو الأمر من توجيه نفس الإتهام إلى الفارابى فقد كان باطنياً عميق الباطنية وآية ذلك أنه فسر النبوة على أساس تعاليم الشيعة الأمامية ، ويعد الفارابى أول من أقام نظرية صوفية فلسفية فى الفكر الإسلامى ، وصوفية الفارابى لاتقوم على مجاهدة النفس أو البعد عن اللذائذ لترفيه النفس بل هو تصوف نظرى يعتمد على الدراسة والتأمل ، وطهارة النفس فى رأيه لا تصدر عن طريق الجسم والأعمال البدنية بل عن طريق العقل والسعادة عنده أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود بحيث لاتحتاج فى قوامها إلى مادة وهذه المفاهيم جميعا من مفاهيم الفلسفة الهلينية ولست من مفاهيم الإسلام .

(٥)

واقد أثمرت دعوة الباطنيـــة نماذج خطيرة من الدعاة من أمثال ابن الراوندى الذى هو ثمرة أكيدة للفلسفة اليونانية وقد إدعى ابن الراوندى انه لايقبل من الأفكار إلا مايخضع لمنطق العقل البشرى ، وعنده ان رسائل الأنبياء لا تحتاج إلى وحى من السماء لأن كل ما قال به الأنبياء لا يشق على العقل ويمكن أن تستغنى البشرية عن دعوتهم لأن ما يطالبون به الناس من عبادات وشعائر لا يستسيغها العقل ولا يوجد مبرر منطق يلزم بأدائها وأن معجزات الرسل لا يصدقها العقل ويحتمل أن رواتها تواطئوا على الكذب وأن آيات القرآن ليست خارقة للعادة ويصح أن يتفوق فرد بعبارة أدبية على ناطق اللغة العربية .

هذه السموم والأضاليل التى أوردها ابن الراوندى هى التى حفزت دعاة التغريب على بعثه فى هذا العصر الحديث وتجديده وإعادة الحديث عنه حتى توضع هذه الشبهات تحت أنظار الشباب المسلم فتجرى على ألسنتهم وتكون موضع حديثهم ظانين أنهم بذلك سيفسدوا حركة اليقظة التى يمر بها الإسلام اليوم ومن هنا عنى بابن الراوندى كثير من الباحثين وفي مقدمتهم عبد الرحمن بدوى الذى أذاع هذه الآراء وحسنها والواقع أن هذه الآراء فى جملتها ليست إلا شبهات باطلة يستطيع كل مغرض أن يجمعها وأن يذيعها ولكنها لا تخدع أحداً وخاصة من يدرس حياة ابن الراوندى ويعرف أنه رجل فارسى الأصل من أصل يهودى كان أباه يهودياً ثم أسلم وما زال هو متصلا بالمجوسية الفارسية ، وله إرتباط بالمؤامرة الباطنية وقد عرف بالنفاق وباع قلبه لكل الفرق والمذاهب والأديان فقد ألف لليهود وللرافضة وأجرأ كتبه (الزمردة) الذى يحاول به أن يقول ببطلان رسالة الأنبياء ، وقد وضع أبو الحسن الخياط كتاباً فى الرد عليه وكشف زيفه واثبت إلحاده ولقد

اتصل ابن الراوندى ثمة بالمعتزلة وتعلم منهم الجدل المنطقى المضلل وعرف كيف يستغله فى اثارة الشكوك حول الإسلام .

قال الحافظ بن الجوزى : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى وأبو حيان وأبو العلاء ، روى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين بشأن ابن الراوندى « ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا » فقد انشق أبوه لأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة، كما كان إبنه يفعل فيما بعد فإذا لم يتم له ماأراد انقلب مسيحيا نكاية فى بنى دينه اليهود ،

قال البلخى أنه كان فى أول أمره حسن السيرة حميد المذهب ، ثم انسلخ عن الدين وأظهر الالحاد والزندقة وطردته المعتزلة لوضع الكتب الكثيرة فى مخالفة الإسلام .

وكان ابن الراوندى ملحداً فى شبابه ولكنه كان أعرف بإعجاز القرآن وسحره من أكثر المؤمنين ، وقد وضع كتاباً لليهود يرد فيه على المسلمين ثم رام نقضه بنفسه فنقضه ووضع كتاب (الإمامة) للرافضة لقاء ثلاثين ديناراً ، ووضع كتباً غيره فى التوحيد وأصله . عارض نظم القرآن بنظم من وضعه ، وضع للرافضة ضد السنة وللسنة ضد الآخرين قال عنه أبو العباس : أن ابن الراوندى كان لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال حتى أنه صنف لليهود كتاب (البصيرة) لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغنى من يهود سامرا فلما قبض المال رام نقضه حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض .

وقيل كانت طريقة ابن الراوندى فى حياته المذهبية التلاعب بالفرق والملل وبأهل كل منهما يمدح اليوم مذهبا ويحقر آخر ومما ألف كتاب يطعن فيه فى نظم القرآن نقضه عليه الخياط وأبو على الجبائى وسهل بن نوبخت

ونقضه على نفسه وكان صديقا لابن عيسى الوراق وأبى حفص الحـــداد وغيرهما من مشهورى ملاحدة ذلك الزمن الذين تستروا بالرفض ومن كتبه : كتاب (التاج) يحتج فيه على قدم العالم وكتاب (الزمردة) يحتج فيه على الرسل ويبرهن على ابطال الرسالة وكتاب (الفرند) فى الطعن على النبى وكتاب (اللؤلؤة) فى تناهى الحركات وقد أعيد منذ قريب طبع كتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم) بقلم الحسين بن الخياط بتعليق الدكتور ينبرج بجامعة ابساله بالسويد صدر عام ١٩٢٥

ويمثل ابن الراوندى قمة موجة الإلحاد التى أثارتها الدعوة الباطنية فى محاولة إنكار الأديان كلها ويقصد بها الإسلام .

وقد كتب عنه كثيرون منهم سليم خياطة (المقتطف ١٩٣١) وعنه نقلنا بعض هذه النصوص وقد أشار هذا الكاتب المسيحى إلى تلك الظاهرة التى عرفها الإسلام ولم تعرفها الأديان ولا الأمم : تلك هى حرية الرأى والسماح لكل صاحب نحلة بأن يتكلم بها دون مصادرة ، فى اعتقاد بأن الفكرة الفاسدة لابد أن تسقط مهما حشدت لها الجهود، نقول وأن ما تشهده حركات التغريب من تجديد هذه الآراء سوف يلقى نفس المصير : (ينفقون أموالهم ليصدروا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) ويقول سليم : لا نود أن نختم هذه النظرة العجلى من غير أن تبدى اعجابنا بهذه المدنية الإسلامية السمحة التى كانت تأذن لأمثال صاحبنا ابن الراوندى بهذا الإجتراء على عقائدها وبهذا التهجم والتنقص من تفكيرها ودينها وهى ساكنة هادئة تؤلف الكتب رداً عليه ودحضا لما انهال به عليها من حامى اللطمات وان تاريخ المدنيات القديمة لا يروى لنا سيرة أي جريء متهور بلغ تهوره إلى الحد الذى بلغ بصاحبنا .

(٦)

ويأتى محمد بن زكريا الرازي : كواحد من أتباع هذا التيار فقد إنحرف هذا الكيماوى الطبيب وراء ابن الراوندى ووجه نفس إنتقاداته إلى الأديان فقط دون العلوم ، وأنكر النبوة وقال ان الناس يتساوون فى المواهب والاستعدادات وأنه لاحق لأحد أن يزعم أنه يمتاز على بقية البشر بميزة عقلية أو خاصية روحية مثل النبـــوة وأن المعجزات ما هى إلا أساطير خرافية قصد بها تغرير العامة وان تعاليم الكتب المقدسة يعارض بعضها بعضا فقامت الحروب بينها وإن لو اعتمد الناس على العقل الإنسانى فى تعريف شئونهم ما أختلف اثنان فى أمور حياتهما ولو اهتدوا بالفلسفة والعلوم ما احتاجوا إلى عقائد الدين وتعاليم الأنبياء ، وهكذا لم يجد الرازى من ضروب الثقافة ما يستحق إخضاعه لمنطق العقل إلا الدين ، ولم يلتفت إلى أن العلوم التى اشتغل بها من كيمياء وطب لا تخلو من عناصر تتعارض مع أبسط قواعد العقل . فقد كانت الفلسفة اليونانية قد مهدت طريقها إلى العقول وجعلت الأقيسة المنطقية منهجاً للوصول إلى الحقائق فزودت هذا الفكر الشاك بطرق عقيمة تدعم شكله وتؤكده . وكانت هذه التطورات مجتمعة مقدمة لظهور آراء ابن الراوندى والرازى . فادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل من الأفكار إلا ما يخضع لمنطق العقل البشرى .

وجاءت هذه المقولة المبطلة خادعة لبعض البسطاء الذين جروا وراء هذا البريق وجهلوا أن وحى السماء ورسالات الأنبياء لا تخضع لهذه المقايسات العقيمة وان العقل وحده قاصر وعاجز عن فهم كل الأمور وأن له مجاله الخاص الذى يعمل فيه ولا يستطيع أن يتجاوزه .

وقد مزج الرازى بين علم الكلام والفلسفة كما تكلم فى مختلف دراسات المنطق والجدل والأدب والبلاغة والنحو والفقه والأصول والتفسير والتاريخ

والطبيعة والطب والفراسة والسحر وله كتب ثابتة وكتب منحولة وكتب مشكوك فيها .

وقد تعرف الباحثون فى آثاره على أمر خطير وهو أن أقواله كثيراً ما تختلف من كتاب إلى آخر خلافاً يجعل بعضها فى أقصى اليمين وبعضها فى أقصى الشمال بل أن له آراء متعارضة يضمها كتاب واحد .

وقد أشار الكثيرون إلى أن الرازى رجل مشكوك فيه وليس موضع الثقة العلمية وأنه يمثل الثقافة الاغريقية وأعمال فلاسفتها هذا وقد أعلن براءته من هذه الآراء عند موته .

(٧)

ويتصل بهذا شعراء مجان أمثال بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبو نواس وغيرهم من الشكاك الإباحيين وقد تصدى واصل بن عطاء للرد على بشار بن برد وتابع رسالته فى الرد على الزنادقة وتفنيد سائر أعمالهم سواء، من دعاة المانوية أو المجوسية وله كتاب فى الرد على المانوية اشتمل على أكثر من ثمانين شبهة لهم والرد عليها — قال عمرو بن عبيد ليس أحد بأعلم بكلام الباطنية ومارقة الخوارج وبكلام الزنادقة والدهرية وسائر المخالفين من واصل وقد اشترك تلاميذ واصل فى الرد على رؤساء الزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس ، وأرسل واصل الوفود إلى مختلف الأنحاء لتفنيد أقوالهم ، كما ظهر الهذيل بن العلاف الذى تعمق أساليبهم الملتوية وخدعهم العديدة وكان بشار بن برد يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل المشهر ومذهب الحطيئة فى الهجاء الفاحش . وقد واجهه المهدى فقال له : اتحض الناس على الفجور وتقـذف المحصنات ، وكان يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة وهو ممن صوب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة وابليس فى رأيه خير من آدم وقد

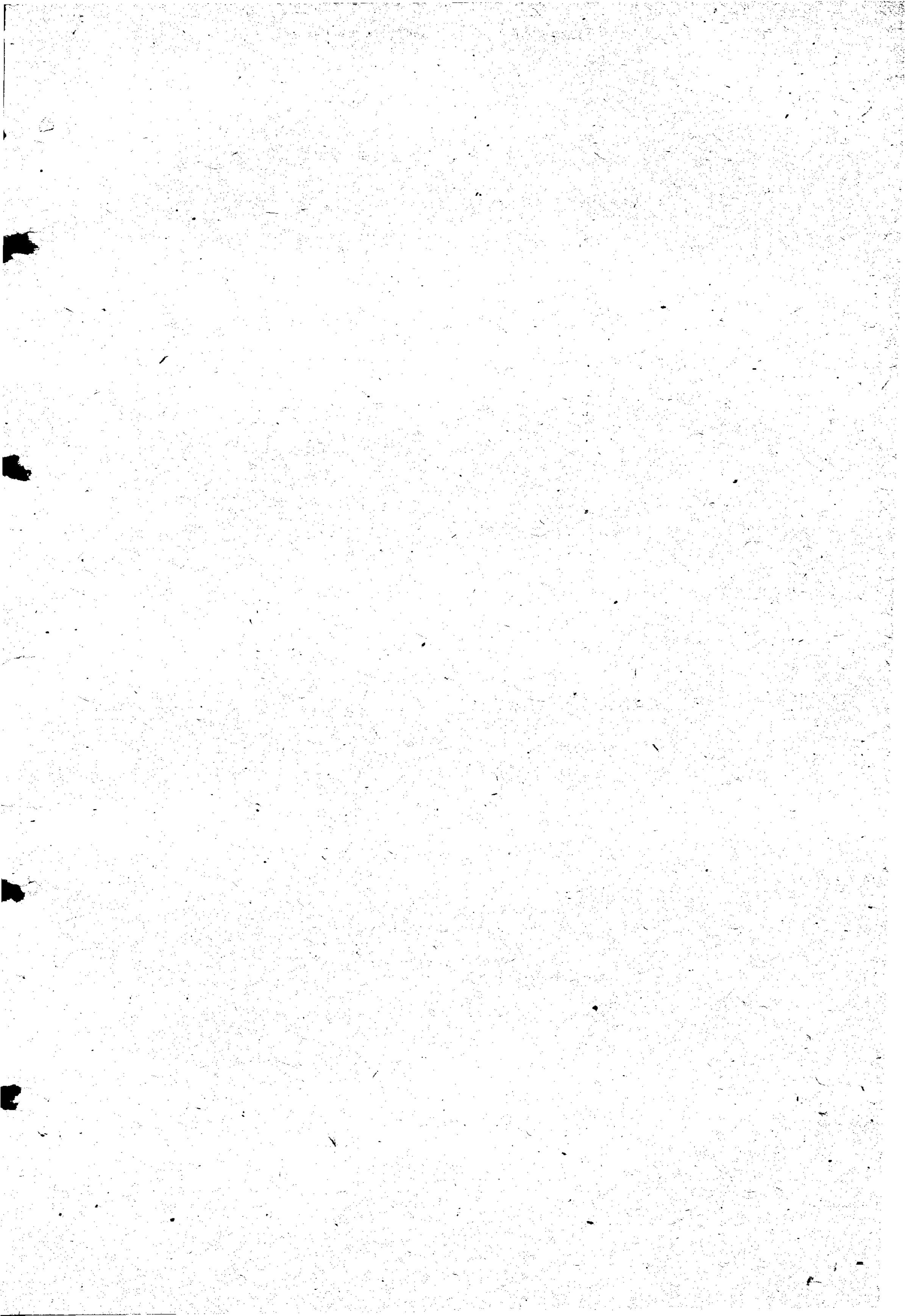
سخر بشار بالأذان وأنكر البعث والحساب وفضل شعره على القرآن وكان أباحى النزعة يقال أن له مجلس يدعى البردان وكانت النساء تحضره قال واصل بن عطاء أن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى وكان متعصباً للفرس مدخولا بالمجوسية يكره العرب ويشتمهم شتما مقذعاً وقد ضرب بالسياط حتى مات وألقى فى البطيحة لإفحاشه فى الهجاء والغزل القبيح .

ومع وضوح هذه الحقائق لكل من يدرس حياة بشار بن برد فإننا نجد كتابا يعنون به فى العصر الحديث ويكتبون عنه دراسات أدبيه واسعة حافلة بالإعجاب به وتقديره مثل ما كتب عبدالرحمن صدقى وإبراهيم عبدالقادر المازنى وكذلك ظفر أبو نواس وهو أشد إباحية من بشار وأشد عنفا على الإسلام والعرب يمثل ذلك من أمثال العقاد وعبدالرحمن صدقى وغيره بل لقد أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عنه استكتبت فيه عدداً كبيراً من أعلام الأدب العربى المعاصر مع الأسف دون أن يلتفت أحد إلى مدى الخطر الكامن وراء هذا الإهتمام البالغ والمعروف أن أبو نواس شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم وله هدف عميق أبعد من هذا الهدف ، هو خدمة مخططات المؤامرة الباطنيـــة التى كانت تستهدف إزالة الدولة الإسلامية وكان أبو نواس ذكياً واسع الحيلة يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة . وقد عده المؤرخون والباحثون من كبار الثنوية وثبت فى تضاعيف شعره تأثره بالمانوية والمزدكية ، وقد كان داعية عصره إلى التحرر من القيود والتمتع باللذات ، وكان يقول أنه لا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس وينكر البعث ومن مبادىء المانوية إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة جميع الأديان وكان الغزل بالمذكر الذى أوغل فيه أبو نواس جزءاً أساسياً من المانوية .

كما ذكر ذلك البيرونى: يقول حمزة الأصبهانى جامع ديوان أبى نواس ،

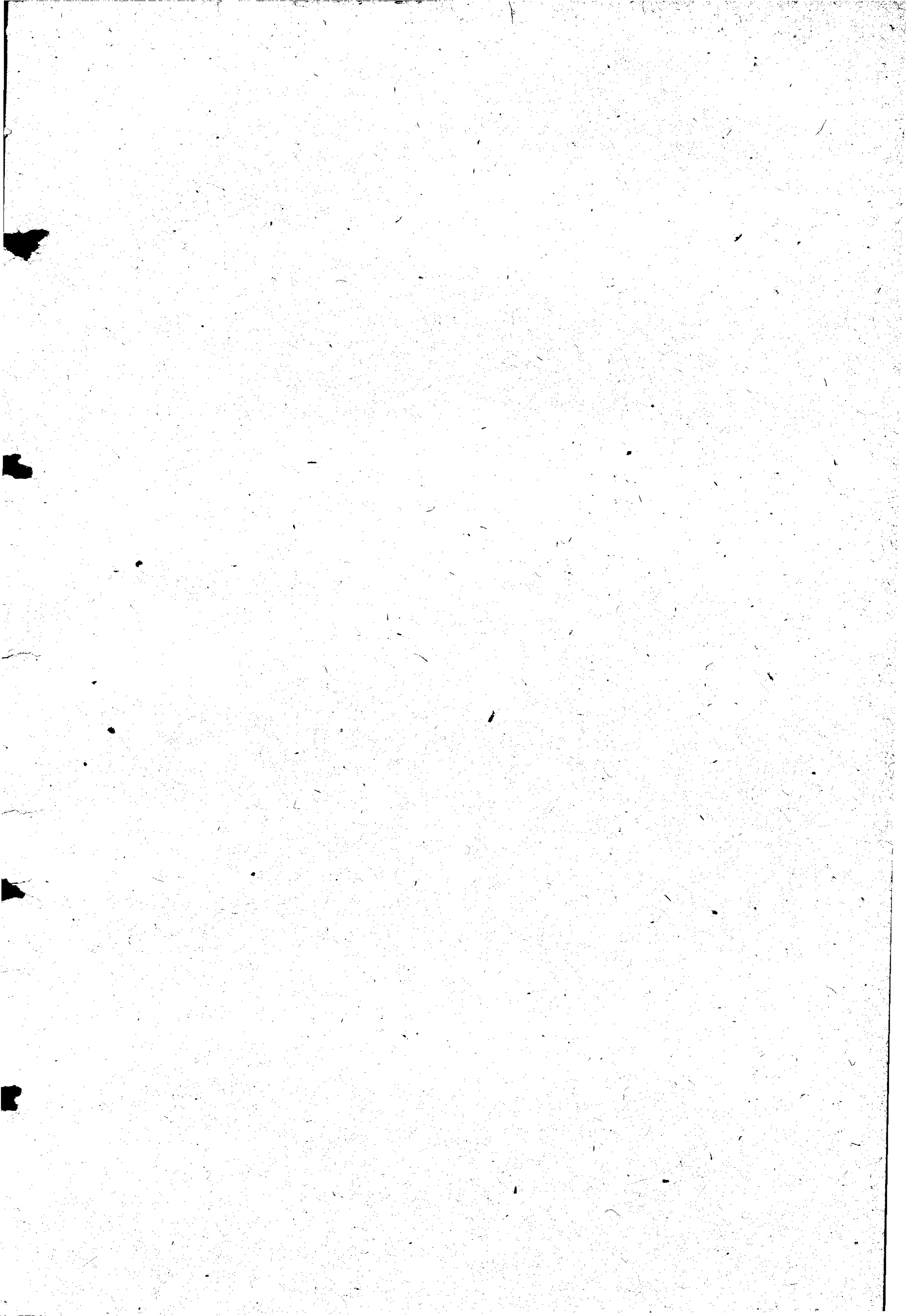
أن أبا نواس هو الذى ابتدع غزل الذكر وهو الذى أدخل إلى الأدب العربى إفتتاح القصائد بالخمر بدلا مما كانت تفتتح به من البكاء على الأطلال والدمن .

وفى شعره مظاهر واضحة من المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة الدين والإباحية المطلقة والغزل بالمذكر، فضلا عن تعصبه للفرس واحتقاره للعرب ، وقد تناولنا أبو نواس وبشار بتفصيل أوسع فى مكانهما فى كتابنا (خصائص الأدب العربى) .



الباب الخامس

الجماعات الهدامة



الفصل الأول

مؤامرة القرامطة

تجيء الجماعات الهدامة ثمرة أكيدة للمؤامرة الخطيرة التي رسمتها القوى المضادة للاسلام ودولته وأثراً طبيعيا لذلك الركام الضخم الذى طرح فى أفق الفكر الاسلامى عن طريق المعتزلة والفلاسفة والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى وقد تعددت هذه الجماعات وتنوعت ولكنها كانت جميعها تهدف إلى غاية واحدة هو اقتلاع هذا الكيان الاسلامى أو تمزيقه أو احتوائه أوصهره فى أتون الفكر البشرى الوثنى المادى أو تدمير مقوماته وقيمه وإخراجه عن أصالته، وقد تمثلت عمليات الهدم فى حركات القرامطة والزنج والراوندية والخرسانية والبابكية وحركة المازيارد والأفشين وكلها حركات حاولت أن تشكل وجودها خارج الرقعة العربية مستهدفة إسقاط الدولة وتدميرها بوصفها الاطار الحافظ للدعوة الاسلامية وأن فى إسقاطها إسقاط للاسلام نفسه وقد كانت حركة الزنج مقدمة لمؤامرة القرامطة ومدخلا إليها فلم تكن حركة الزنج إلا نتيجة تحريض خارجى حاول أن يلتمس مدخلا له فى جماعة ساءت ظروف حياتها الاجتماعيـــة وقد ادعى صاحب الزنج أنه من الخوارج وأن له نسبا علويا وبالرغم من الصورة الخادعة المزورة التى حاولت بعض المصادر أن تصور بها هذه الحركة بأنها تستهدف المطالبة بالعدل الاجتماعى الاسلامى، فان تصرف صاحب الزنج وجماعته يكشف بوضوح عن أنها مؤامرة تستهدف زعزعة الوجود الاسلامى ولو كانت حركة إسلامية أصيلة لالتمس القائمون عليها منهجا إسلاميا غير هذه الصورة البشعة التى كانت قتلا وتدميراً وإفساداً فى الأرض دون أن يبدو من ورائها المتجهم أى صورة

من صور العدالة الإسلامية وغاية مايقال فيها أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة غير قتل المسلمين والابادة، كما يقول فيصل السامر فى كتابه ثورة الزنج ، الذى يرى أن ثورة الزنج لم تكن خروجاً على الدولة والنظام القائم بل كانت خروجاً على الدين ولذلك تطوع آلاف الناس لحرب الزنج من العراق وفارس والبحرين فسرعان مافقد الزنج كثيراً من قوتهم نتيجة معاونة أهالى جنوب العراق فضلا عن مقاومة الدولة ، كذلك فإن الأضرار التى تمت على أيدى قادة حركة الزنج والتى تعرض لها أهل المدن زادت من ضراوة مقاومتهم لهذه الحركة وزاد من عداء الأهلين لها .

ولاريب أن دراسة حركة الزنج فى ضوء التفسير الاسلامى للتاريخ يكشف عن الحقائق الآتية :

أولا : أنها حركة متآمرة تحت تأثير هدف خارجى وليست صادرة عن مشاعر حقيقية .

ثانياً : أظهرت الحركة بعد القائمين بها عن المنهج الاسلامى وأنهم إنما كانوا يصدرون عن حقد وتآمر ، إذ قاموا بفظائع ومنكرات لايقدرها إلا من تصفح كتابة الطبرى عنها .

ثالثاً : دمر أصحاب حركة الزنج كثيراً من المدن الهامة منها البصرة والأبلة ولو كانوا دعاة إصلاح لما هدموا المدن ولأعلنوا منهجهم القائم على العدالة الاسلامية وهو مالم يحدث مطلقاً .

رابعاً : خلت هذه الحركة من برنامج اجتماعى فى نطاق الاسلام فقد عجزت عن أن تكون حركة عدل اجتماعى فى نطاق الاسلام إذ حرص العبيد الذى حرروا أنفسهم على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم .

خامساً : أقاموا سوق رقيق للحرائر من نساء العرب وكان ثمن الرقيق

يرتفع ارتفاعاً ملحوظا إذا كانت أولئك كانت النسوة من أسرى بنى هاشم بصفة خاصة وهذا يكشف هوية الحركة وغايتها .

ومن هنا أيضا نعرف كيف فشلت هذه الحركة فإن فشلها نتج عن كثرة فظائعها وخلوها من منهج شامل فى طريق أصيل ولقد تفرغ الموفق شقيق الخليفة المعتمد لمكافحة ثورة الزنج فأنزل بهم الضربة وراء الضربة حتى حاصرهم فى عاصمتهم المختارة وقطع عنهم الصلة وسقطت عاصمتهم ٢٧٠ هـ وقتل رئيسهم .

ولا ريب أن هذه الخطوط العامة كافية فى كشف زيف ماجرت محاولات دعاة التغريب وكتاب الماركسية وغيرها فى العصر الحديث من وصف هذه الحركة بأنها دعوة عدالة وحرية . ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان من أوائل من تحدث عن هذه الحركة ووصفها بالعدل الاجتماعى جرياً وراء مخطط الاستشراق والتبشير الذى حاول أن يفسد معالم التاريخ الاسلامى لخدمة مؤامرة جديدة .

* * *

ثم جاءت حركة القرامطة امتداداً لحركة الزنج . كانت حركة الزنج فى الساحة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكان القرامطة ينشرون دعوتهم بين سكان جنوبى العراق من العرب والنبط وقد بدأت بالتقاء عبد الله بن ميمون القداح مؤسس الحركة الباطنية مع حمدان قرمط الذى قاد الحركة التى سميت باسمه ، وكان عبد الله ميمون القداح : قال لأبنائه أن الأئمـــة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية وأن باقى البشر ليسو أهلا لفهم هذه المبادىء ، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسم التشيع لآل البيت ثم أضحت مؤسسة سرية يرهب جانبها فقد قامت باغتيال كثير من رجال الدولة الاسلامية وفى مقدمتهم نظام الملك الطوسى أبرز وزراء الدولة العباسية فى ذلك الوقت . وفخر الملك . وقد بحث القداح عن أنصاره بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية .

يقول بلاشير : أن القرامطة استطاعوا أن يتغلغلوا فى صفوف العامة ويجدوا لهم أنصاراً يعتنقون نحلتهم ويتحمسون لمبادئهم وكانوا يلبسون حركتهم السياسية ثوباً روحياً عظم أمرهم وقد أسسوا إمارة مستقلة فى بلاد البحرين وكان الوزير نظام الملك قد قهر هذه الحركة ثقافيا وليس عسكريا وسياسيا فقط ، فقد جابه نشاطهم بنشاط مماثل فأنشأ مراكز ثقافية تقف أمام ذلك النشاط ومعاهد علمية تخرج رجالا يستطيعون الوقوف أمام الدعوات الباطنية وكانت تلك المعاهد تحمل اسم المدرسة النظامية فى بغداد وقد استطاعت المدرسة النظامية أن تقف أمام الدعوات التى كان يشنها أعداء السنة على أهلها .

وقد كشف القرامطة على أنهم ليسوا بتجربة إسلامية أصيلة وإنهم كانوا يكرهون الإسلام ويحقدون عليه ودليل ذلك على استهانتهم بالمقدسات الإسلامية وكرامة البيت الحرام فقد أغاروا على مكة ونهبوا الحجيج عام ٣١٧هـ وقتلوهم وقلعوا باب البيت . وسرقوا الحجر الأسود .

ولعل هذا الحادث وحده يكفى لأن يزيف ما يقول به دعاة التغريب والمستشرقين والماركسيين من أمثال جارودى وغيره عن أن هذه الحركة تجربة إسلامية صحيحة .

وقد حاول جارودى أن يصف القرامطة بأنهم دعاة عدل اجتماعى ، وكشف زيف هذه النظرية الدكتور محمود قاسم وأبان أن عمل القرامطة لم لم يكن سعيا إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية إلى دويلات متصارعة .

وكان هذا التحلل دخيل على روح الإسلام، يقول الدكتور قاسم : كانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التى قامت قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى : تلك الثورة التى نشأت لتحرير العبيد لكنها لم تكن حركة عدل اجتماعي بل كانت نوعا من الأخذ بالثأر فقد حرض هؤلاء العبيد الذين

حرروا أنفسهم أن يعملوا على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم. أما حركة القرامطة التي قامت في الشمال الغربي لبلاد العراق ثم اتخذت مراكز لها في منطقة الكوفة وفي بعض بلاد الشام وفي سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسي ثم استقرت آخر الأمر في البحرين .

نقول أن هذه الحركة التي توصف بأنها ثورة اجتماعية كانت على صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية في دور الستر وإن اختلفت معها في دور الظهور فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم في الغرب أن يستقلوا بتوجيه السياسة في ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية في المغرب العربي .

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحلاج المتصوف المشهور كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذا كان على صلة بالقرامطة .

ويقول الدكتور قاسم : يكفي أن الأستاذ جارودي نفسه يعترف ضمناً بأن حركة القرامطة حركة طائفية . أقر القرامطة شيوع المال في مجتمعهم الثائر وحققوا المساواة بينهم على حد ما يقوله جارودي (فكان كل شخص يعمل بأكثر قدر ممكن من الجهد والمنافسة حتى يصل على مركز ممتاز بما تقدمه من خدمات للطائفة) .

يلاحظ أن صاحب هذه الحركة كان من الموالي وإنه نشر مبادئه في طائفة العمال والصناع والعبيد والفلاحين والأجراء من الموالي ثم انضم إليهم عدد من العرب ، وقد قامت الحركة في مكان قريب من المكان الذي قامت فيه ثورة الزنج ووجدت مكاناً خصباً في الكوفة وتظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل إلى البيت العلوي وإن كانوا يسلكون من الناحية العملية مسلكاً آخر إذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه ،

وقد كان هذا المجتمع « الاشتراكى » مجتمعا طبقيا فبقدر ما يقدم العضو المنتمى إليه من المال كانت ترتفع طبقته . كانت هناك شيوعية فى المال ولكن طبقة العبيد التى تتكون من الأسرى لم تكن تعامل على قدم المساواة مع الآخرين .

يتساءل : كيف هاجم طائفة القرامطة موسم الحج وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفا من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج، كل هذه الوقائع تؤكد وجود صلة بين هذه الطائفة وأمثالها وبين الحلاج الذى كان معاصراً لحركة القرامطة : ومن الطريف أن الحلاج قد أدين وقتل بتهمة صرف الناس على الحج وقد ورد فى تاريخه أنه كان يستعيض عن الحج بكعبة مصغرة فى بيته يطـــوف بها أتباعه طوافا يغنيهم عن الذهاب إلى مكة .

كذلك أشار الدكتور قاسم إلى الصلات الخفية والظاهرة بين الباطنية وبين الصيلبيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وهى تنكشف بوضوح عن ظاهرة فكرية عميقة بدأت فى القرن التاسع الميلادى وانتقلت إلى أوربا فى القرن الثالث عشر فقد انتقلت أفكار القرامطة والباطنية مع الصليبيين إلى أوربا وأدت إلى ظهور الماسونية . وهذا يفسر لنا فكرة محاربة الأديان عن طريق ضرب بعضها ببعض عند الماسونية وعند من ارتبط بهم من الداعين إلى الثورة الفرنسية .

ومن هنا فإن المـــاسونية يصفون الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية الشرقية فى القرن الخامس الهجرى بأنه من أسلافهم ويقولون عنه إنه كان الأستاذ الأكبر للماسونية فى العالم الإسلامى ، ومن هنا يمكن أن نعرف كيف اتخذ (جارودى) من حركة القرامطة عنصراً من عناصر الحركة الاشتراكية ، ا . هـ

(٢)

ولا ريب أن من درس حركة القرامطة يجد أنهم اتخذوا أساليب لا تتفق مع مفاهيم الإسلام : أبرزها العنف والتدمير والقيام بالفظائع ، كما أنهم طبقوا فى مجتمعهم أراء مزدك فى شيوعية الأموال وإباحة النساء ، فكيف يمكن أن يقول مؤرخ مغرض أو باحث تغريبى أن هذه الحركة أو أخرى من نوعها يمكن أن تنسب إلى أنها حركات إصلاح إسلامية وقد حمل لواء الدعوتين القرامطة والزنج خصوم الإسلام من الوثنيين والثنوية والمجوس الذين ادعوا كذبا وتضليلا الانتساب إلى أهل البيت وهدفهم تدمير الإسلام بالقضاء على دولته .

ولا ريب أن مختلف المفاهيم التى طرحتها هذه الحركات فى نظامها السياسى والاجتماعى مستمدة من المجوسية والوثنية فهم يؤمنون بأن الجنة هى الدنيا ونعيمها ، فلا يؤمنون بالبعث والجزاء كما يعارضون مفهوم الإسلام فى التنظيم الاجتماعى والسياسى فقد وجهت الخصومة بوضوح إلى الإسلام كعقيدة ونظام واعتبرته هذه الدعوات مصدر الشقاء وحاولت أن تحل مفاهيم الباطنية بديلا عنه وقد طبقت فعلا مثل هذه المفاهيم التى هى ركام الفكر البشرى الوثنى والمادى وتبين من التجربة أنها لم تحقق إلا الظلم والفساد والإباحية والهدم وبقى الاسلام قويا عملاقا صامداً وذهبت هذه الدعوات وبقى الاسلام .

ذلك أن هذه الحركات لم تصدر عن منهج أساسى يتيح لها صفة البقاء وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية فى العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها وقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

ولقد استمدت هذه الحركات مفاهيمها من التنظيم السرى الباطنى الذى

رسمه إخوان الصفا وغيرهم ، وهى تستهدف فى الأساس تدمير الدولة الإسلامية وإرجاع مجد فارس المجوسية القـــديم ، والعودة إلى الوثنية والثنوية والمانوية .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة فى العراق والبحرين والحشاشين والباطنية فى سوريا وإيران واتخذت من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها وخداعهم برفع التكليف واستباحة المحرمات .

وقد حاول المستشرق دوزى أن يمجد هذه الحركة فقال إنها أسفرت عن نتائج مدهشة هى أن جمهوراً كبيراً من أناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية . نقول « وما هى الغاية إلا التآمر على الاسلام وما جمّع هذه الجموع إلا الأهواء والشهوات والاغراء والخداع ولكنها عجزت عن أن تصلح إعوجاجاً أو تقيم مائلا ، وثبت فشلها فى اتجاهها نحو الافساد والظلم .

ولم يلبث أثرها إلا قليلا حتى انكشف وتبين أنها حركة معادية للاسلام ناشئة بين قوى أجنبية تريد أن تدمر هذا الكيان القائم ولم يجدهم أن جمعوا جموعاً لا تربطها رابطة إلا إباحـة الملذات والخمر والشهوات وتقديمها لهم للاستعانة بهم على تحقيق غاياتهم البعيدة .

ولم تزد دعوتهم على أن عمدت إلى نهب أموال الأغنياء وإباحة الخمر ونكاح المحرمات من البنات والأخوات والغلمة والفتك برجال الدولة وزلزلة الأمن فى المجتمع .

ولقد تآمرت تلك النحل من المجوس واليهود والنصارى والصابئة والوثنيين والبراهمة وكلها دعوات تنكر وجود الله وتحقد على الاسلام النامى الممتد أولئك هم الذين جمعتهم قيادات القرامطة والحركات الباطنية باسم الأهواء والأحقاد ، فما استطاعت أن تحقق شيئاً إلا الدمار ، وما استطاع

مؤرخ منصف واحد أن يصف هذا الفساد بأنه حركة إصلاح إلا اليهودية العالمية التي عقدت مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٨ في الولايات المتحدة وقد جمعت له بعض المبشرين والمستشرقين لوضع خطة إلى إحياء هذه الحركات وإعادة طرحها في المجتمع الاسلامي على أنها حركات إصلاح ونهوض ومعارضة للنظام الاسلامي وقد تمكنت هذه الدعوة من تجنيد بعض الكتاب الذين وصفوا القرامطة والباطنية بأنها ثورات الاسلام ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً فقد تعرف المسلمون الآن على مصادر الشبهات التي تحيكها اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية .

(٣)

ولم يتوقف الأمر عند حركة الزنج والقرامطة، بل تعددت الحركات كحركة المقنع الخراساني وحركة بابك الخرمي وحركة المازيار وحركة الافشين وحركة الراوندية وكلها مؤامرات تحمل نفس الولاء الباطني والاتجاه المجوسي الحاقد الذي يحاول هدم النظام الاسلامي وتدميره فقد كانت هذه الحركات السرية تتظاهر بالاسلام ومحبة آل البيت لتعمل على هدم السلطان العربي الاسلامي مقدمة لهدم الاسلام نفسه ، وأنها كانت تجمع الناس في مناطق فارس بالمؤامرة والاغراء والشهوات على أساس الحقد والكراهية والمطامع ، ولذلك فإنها ظلت بالرغم من صورتها المرعبة التي كانت تشير إلى القوة والسلطان . كانت هشة وأنها عندما ووجهت بقوة حقيقية سقطت كأنما كانت حصونها من الورق المقوى ، ولم تستطع مؤامرة الباطنية بتجميع ظلمات المجوسية والمزدكية والزرادشتية والمانوية أن تواجه ضوء الاسلام ولم يبق من بعد منها إلا هذا الركام الفاسد الذي بحث عنه المستشرقون والمبشرون وخصوم الاسلام في العصر الحديث لتجديده وبعثه ووضعه مرة أخرى في أيدي المسلمين ليفرقهم ويمزق وحدتهم وليصرفهم عن حقيقة الاسلام وليورث الخلافات مرة ثانية من العرب والفرس وبين الفرق المختلفة التي ماتت وانطوت .

(٤)

كان أقوى نفوذ الباطنية وأشد بأسهم حين ظهر (الحسن بن الصباح) وقد ادعى أنه ينتسب إلى ملوك حمير القدماء وقد ظفر بالحصن الجبلي المعروف بالموت ٨٤٣ قرب بحر الخزر ، وكان نظام الملك يخشى الحسن ويتوجس خيفة منه وقصته معه معروفة حين ألحقه ببلاط ملك شاه فقد بدأ الحسن يدرس على نظام الملك نفسه إلى أن دبر له نظام الملك تدبيراً ألجأه إلى الهرب .

ومن حصن ألموت قامت دولة الحشاشين إلى أن قضى عليها جنكيز خان في طريقه إلى بغداد . وكان الحشاسون قد اعتصموا بمجموعة من الجبال وكانوا يقطعون الطريق فلم تستطع قوى الدولة من الوصـــول إليهم أول الأمر فاستطاعوا إحداث الاضطراب بالتعاون مع الصليبيين واستغلال انشغال الدولة في مواجهة الحملة الصليبية ، ومع ذلك فان السلاجقة استطاعوا إسقاط أكبر حصونهم وكانت الضربة القاضية هي التي وجهها إليهم الظاهر بيبرس .

وقد كان الحشاسون يعمدون إلى الاغتيال كوسيلة لتحقيق أغراضهم ، كما كانوا يستعملون الحشيش لتخدير الأعضاء الجدد وحملهم إلى حدائقهم الجميلة لاقناعهم أنهم في الجنة ، وزادت قوة الحشاشين في جميع أنحاء الدولة في فارس والعراق .

ولكنهم ظلوا — رغم المدة التي قضوها — يعيشون على هامش المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية .

وقد استغلوا هذه المرحلة من ضعف الخلافة وتمزق الدولة وانسلاخ بعض الولايات وغلبه القوى العسكرية المختلفة على سلطان الدولة وقيادتها

وتمييز الأمراء الذين تولوا الإدارة والمـــال والجيش ولم يبق للخليفة إلا الإسم .

وكان ذلك كله مقدمة لسقوط بغداد ٦٥٦ هـ وزحف القوى الصليبية إلى القدس ولقد تكشفت حقائق كثيرة فى هذه الفترة ردت المخدوعين إلى فهم الأمور، فقد تبين أن كثيراً من هؤلاء الذين خدعوا الناس بالحيل والكرامات من أمثال ابن عربى والحلاج والسهروردى أنهم من تلاميذ الباطنية وأنهم يستترون تحت أسماء لامعة وكلمات براقة بينما هم على صلة بالمتآمرين سياسياً متفقون معهم على هدم الدولة وتقويض وجودها .

كما تبين أن الحركة الباطنية هى ثمانى فرق أو تسع من المتآمرين تنتظم مجموعة الأقطار العراقية والفارسية وتضم بقايا المجوسية والمزدكية والبابلية ولها شاراتها ورموزها وأسرارها التى تخفى وراءها مقاصدها وغاياتها وأن هذه الدعوات أصبحت ملجأ لكل ناقم وحاقد ولكل صاحب شهوة وهوى .

(٥)

ولقد تعددت فى العصر الحديث كتابات الشعوبيين والشيوعيين التى تحاول إحياء هذه النحل الباطلة مفسرة إياها فى ضوء التفسير المادى للتاريخ، أو فى ضوء المفاهيم العنصرية والقوميات الضيقة عندما يحاول البعض أن يدعى أنها كانت حركات إصلاحية ترمى إلى تحقيق العدل الاجتماعى أو أنها انتفاضات قومية ، ولقد إدعى أحد هؤلاء أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضة الشعب الارزبيجانى ضد الخلافة العباسية ، وفى هذا من المبالغة وانتقاص الحقائق التاريخية ما فيه . بينما لم تكن البابكية إلا واحدة من حركات هدم ما بناه الإسلام وتفتيت الصرح الذى أقامه الفكر القرآنى الربانى الأصيل،

ويشهد بذلك ما يقوله المؤرخ العباسى صاحب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق : بأنه « لم يكن فى الإسلام حادث أضر بالإسلام والمسلمين من ظهور بابك الخرمى بتلك المقالة التى تفرع عنها القرامطة والباطنية » .

ومما يردده دعاة التغريب سواء فى إطار الفكر الغربى أو الماركسية من أن الباطنية قد حاولت أن تعيد للمرأة حقوقها وحريتها ، وكذلك وصفت المشاعية والدعارة التى دعت إليها وأقرتها هذه الجماعات بأنها حركة تقدمية للمرأة .

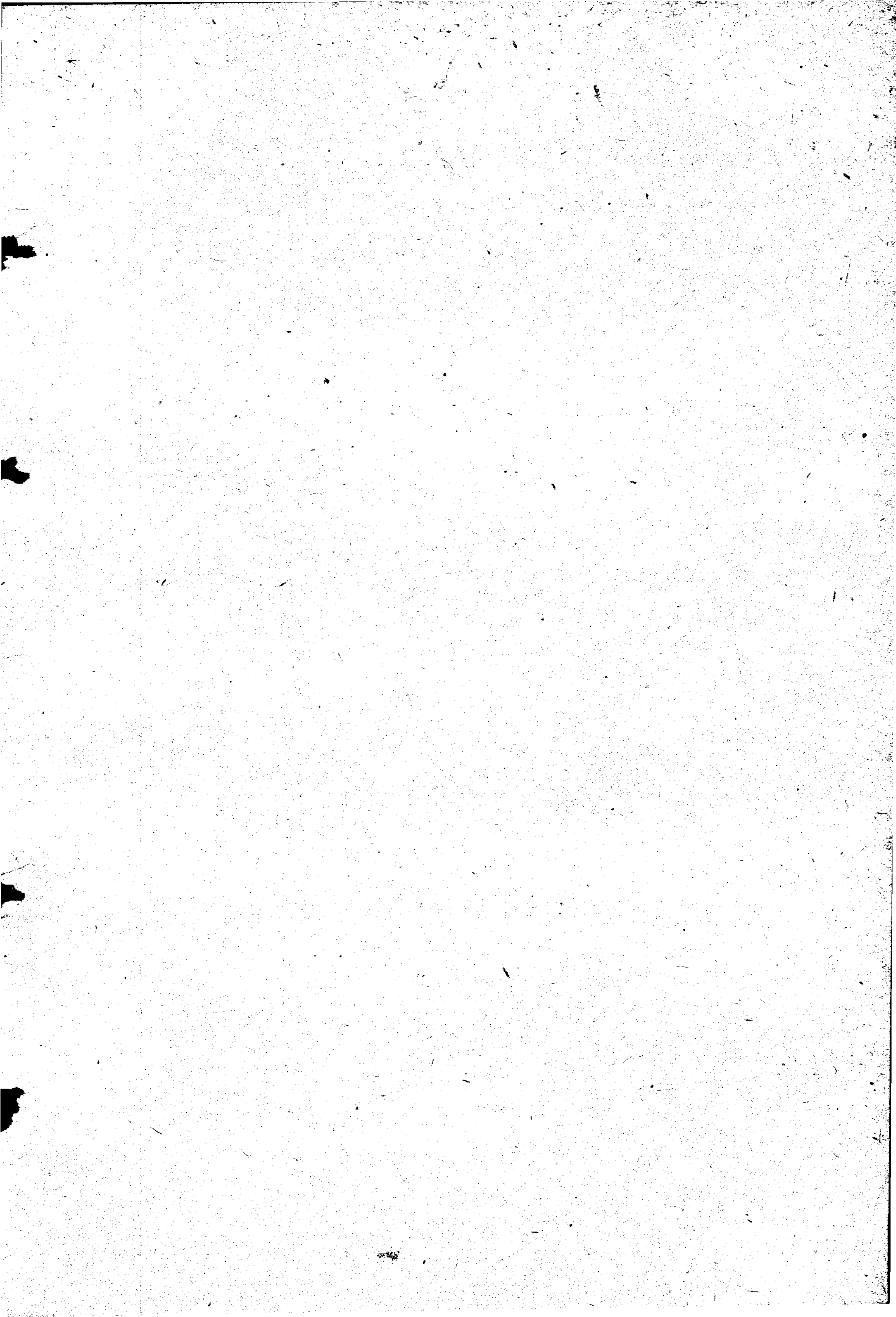
ولقد كانت حركة بابك واحدة من الحركات الباطنية وقد قامت على ما قامت به حركة القرامطة من ترك العبادات والتحلل من الالتزامات الأخلاقية وتؤكد وثائق التاريخ (المسعودى : مروج الذهب) وغيره أن بابك تحالف مع امبراطور الروم ثيوقيل ووقع اتفاقاً مكتوباً للقضاء على الجيوش العباسية وتحطيم السيادة العربية .

وتقول المصادر أن امبراطور الروم ثيوقبل قدم مساعدات ضخمة لبابك وللخرمية لمهاجمة المسلمين وأنه قبل الخرميين الفارين إلى الاراضى البيزنطية وأن فلول البابكيين انضمت بعد اندحارها إلى الإمبراطور البيزنطى . واعترف المازيار وهو أيضاً من المتآمرين تحت لواء الحركة الباطنية بعد أسره إعترف باتفاق المتآمرين على أخذ الامبراطورية من العرب وإعادتها لأكاسرة الفرس ، كما اتفق الأفشين والمازيار على أحياء مذاهب المثنوية والمجوس ، فكيف يمكن أن يجىء اليوم من يستخرج هذا الفكر ويقدمه مرة أخرى للمسلمين على أنه فكر تقدمى أو اشتراكى وكيف يمكن أن توصف مثل هذه الحركات المتآمرة التى انكشفت مؤامرتها بأنها حركات عدل اجتماعى كما صورها طه حسين وجماعة المستشرقين ودعاة التغريب .

ولقد حاولت الباطنية خداع الجماهير بالمغالطات المنطقية والإغراءات

الكاذبة عن الفردوس الموعـــود ثم تبين من بعد أن ذلك ليس إلا مثيلاً للخدعة الماركسية المصرية ولقد هزمت هذه الحركات وتحطم مضمونها الفكرى تحت سنابك الأصالة الإسلامية التى لم تلبث أن سيطرت وعلت وانتصرت على ركام الفكر البشرى المضلل .

كما تبين أن نشاط هذه الفرق الهدامة لم يهدد أبداً الحضارة الإسلامية ولم يهددها خاصة بالزوال كلياً فى أى منطقة إن لم يكن قد زادها قوة وكذبت ادعاءات المبطلين من المستشرقين .



الباب السادس

تجديد الفكر البشرى



تجديد الفكر البشرى

كان الفكر البشرى قد لقى مواجهة أصيلة صادقة ردته وصدته وكشفت زيفه وأدالت منه على النحو الذى قضى عليه وكشف عن جوهر مفهوم الأصالة الإسلامية الذى أطلق عليه مفهوم أهل السنة والجماعة غير أن النفوذ الأجنبى بأجهزته من الاستشراق والتبشير والغزو الفكرى والتغريب والشعوبية قد عمد إلى إحياء هذا الفكر الإسلامى لإثارة الشبهات وتمزيق وحدة الفكر الإسلامى من جديد ، وقد تحركت هذه المحاولة تحت اسم « تجديد الفكر العربى » بدعوى أن الفكر العربى المعاصر قائم بذاته ومنفصل عن الفكر الإسلامى وأنه يتشكل من جديد منقطعاً عن امتداده المتصل خلال أربعة عشر عاماً ومتصلا بالفكر الغربى على النحو الذى يدعو إليه رجال الإرساليات والمبشرين وذلك حتى يتشكل فكر جديد تحت اسم الفكر العربى، يكون محاصراً من الفكر الغربى ينظر إلى الإسلام وإلى عقيدته وتراثه نظرة منفصلة وتقوم النظرة على منهج النقد الغربى الوافد الذى ينظر إلى الأدب على أنه نتاج العصر والبيئة وحدهما بينما تقوم النظرة الإسلامية العربية على أن الأدب العربى يستمد جذوره وعوامل حياته من الأصل الأصيل القرآن ، وأن الأدب ليس الإقطاع من الفكر العربى الجامع المتكامل لا ينفك عنه ،ويقوم على أساس المسئولية الفردية والجزاء الأخروى وأخلاقية التعامل الاجتماعى .

وقد توزعت هذه المحاولة الخطيرة على دراسات الكلام بالدعوة إلى إحياء الاعتزال وتصوير الدعاة إلى تجديد الفكر الإسلامى بأنهم معتزلة ورجال كلام جدد ، وبالدعوة إلى تجديد الفكر الفلسفى فى الجوانب التى

هاجمها الغزالى وقضى عليها ابن تيمية وبالدعوة إلى إحياء التصوف الفلسفى القائم على الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وبالدعوة إلى إحيــاء الفكر الباطنى الشعوبى .

وقد سارت حركة تجديد الفكر البشرى فى هذه الميادين الأربعة ، تحت لواء ما أطلق عليه « الفكر الحر » .

وقد بدأ الاستشراق هذه الخطة : بإحياء هـذا الركام القديم وإعادة طبعه ونشره :

بدأت هذه المرحلة عام ١٩٠٩ بكتاب لويس ماسنيون حتى حمل لواءها طه حسين ١٩٢٦ بعد سقوط الخلافة ثم جددها عبد الرحمن بدوى ١٩٤٦ ثم جاء زكى نجيب محمود منذ عام ١٩٦٧ وفى ظل النكسة لإحياء هذا التراث على نحو جديد .

١ - نشر لويس ماسنيون كتابات الحلاج والسهروردى وفريد العطار وابن سبعين .

٢ - نشر جولد سيهر كتابات صالح بن عبد القدوس .

٣ - نشر كريمسكى عن إبان بن عبد الحميد اللاحق .

٤ - نشر فرنسسكو جبريلى وباول كراوس عن ابن المقفع .

٥ - نشر باول كراوس عن ابن الراوندى .

٦ - نشر فرنسسكو جبريلى عن بشار بن برد .

٧ - نشر باول كراوس عن محمد بن زكريا الرازى .

٨ - ما كتبه أسين بلاسيوس عن ابن عربى .

ثم جاء دور التغريبيون العرب فقاموا بدور كبير :

١ - كتب طه حسين عن الزنادقة : بشار بن برد وأبو نواس وحماد وإبان بن عبد الحميد وجدد طبع آثار ابن المقفع ورسائل إخوان الصفا .

٢ - كتب عبد الرحمن بدوى كتابيه : شخصيات قلقة و (من تاريخ الإلحاد فى الإسلام) تناول فيهما الحلاج والسهروردى وابن المقفع وابن الراوندى والرازى وقدم شطحات الصوفية عن أبوزيد البسطامى ورسائل ابن سبعين وترجم ما كتبه ابن بلاسيوس عن ابن عربى .

وبذلك أحيا قدراً كبيراً من ذلك التراث الغنوصى المجوسى القديم وإن كان قد قدمه كترجمات لآثار المستشرقين .

٣ - أما الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابيه (تجديد الفكر العربى) والمعقول واللامعقول فى التراث العربى فقد أعاد صياغة الفكر البشرى الوثنى الغنوصى صياغة جديدة .

وتتمثل حركة تجديد الفكر البشرى فى عدة ظواهر :

أولا : إعادة كتابة تارىخ القرامطة والزنج والباطنية على أنها حركات عدل وحرية أو ثورات إسلامية ومن ذلك ما كتبه محمود إسماعيـــل عن الحركات السرية فى الإسلام وحسين الوزير عن انتفاضة الشعب الأزربيجانى .

ثانياً : إعادة الدعوة للاعتزال والراوندية على النحو الذى حاوله الدكتور زكى نجيب محمود .

ثالثاً : إعادة طبع كتب وحدة الوجود والحلول والاتحاد كمحاولة طبع كتب ابن عربى والحلاج .

رابعاً : محاولة فرض منهج التفسير الماركسى للتاريخ كما فعل أحمد عباس صالح فيما أسماه اليمين واليسار فى الإسلام .

خامساً : محاولة لطفى السيد التى صورها فى ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو من أن فلسفة أرسطو هى مصدر النهضة العربية الحديثة . وترجمة تمام حسان لكتاب (مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب) تأليف أوليرى وكتاب الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام لإبراهيم بيومى مدكور وكلها تحاول أن تجعل من الهلينية سيادة على الفكر الإسلامى .

وهناك لعبد الرحمن بدوى فى هذا الركام : كتابه شطحات الصوفية لأبو زيد البسطامى والأفلاطونية المحدثة عن العرب والخوارج والشيعة ورسائل ابن سبعين .

وهكذا تتجمع الروافد كلها (فلسفية ، وصوفية ، وكلامية) لتشكل جبهة خطيرة قوامها مفاهيم الفكر البشرى فى متابعة للعمـــل الذى قام به ماسنيون وباول كراوس .

ولقد جدد عبد الرحمن بدوى أعمال الاستشراق ونقلها إلى العربية فى كتابه تاريخ الإلحاد فى الإسلام يتحدث عن الزنادقة ويترجم لهم بتوسع ويؤرخ لهم ويضع فكرهم مجدداً أمام المثقفين العرب ، يتحدث عن طالوت ونعمان وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم ابن أبى العوجاء وأبو عيسى الوراق وبشار وحماد وإبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية .

ونجد أمثال سيد حسين نصر فى إيران يؤلف عن ابن سينا والسهروردى وابن عربى كتاباً تحت اسم حكماء مسلمين مجدداً هـذه الدعوة رابطاً بينهم وبين زرادشت ومانى ومبتعثاً علم الحروف والجفر والرموز والأسرار فيغرب إغراباً شديداً ويبعد عن مفهوم الأصالة الإسلامية كثيراً .

وهكذا اتسع نطاق دائرة المؤامرة على الإسلام فى هذه الجولة وكانت التجربة الأولى واضحة أمام قادة المؤامرة (التغريب والشيوعية واليهودية العالمية) فقد رأى أصحاب المؤامرة كيف أغرق ركام الهلينية الفارسية الباطنية الوثنية الفكر الإسلامى فى دوامة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر فجددوا هذا العمل بهذه الأبحاث الواسعة المتعددة فى كل اتجاه التى تحمل الملامة والمؤاخذة للفكر الإسلامى لأنه قصر فى مجال الفلسفة وأقفل بابها وعارض الاعتزال وأن هذا كان من أسباب تأخر المسلمين . وكانت الحملة شديدة على الإمام الغزالى وكان الإغضاء والتجاهل لأصحاب حركة المقاومة والمواجهة أولئك الذين حملوا لواء الأصالة الإسلامية من أعلام مع إعلاء وإبراز وتلميع كل الأسماء التى حملت لواء الباطنية والفلسفة والزندقة قديماً مما يسمونه المشاءون أو الشراح فكتبت عشرات الأبحاث عنهم وجلهم لايسلم فى مقياس الأصالة الإسلامية للحكم عليه وأخطر من تصوب إليه أسهم الاتهام الفارابى وابن سينا .

وكان من أخطر دعوات المؤامرة فصل الفكر الإسلامى الحديث عن الفكر الإسلامى فى مراحله المتصلة منذ بزوغ الإسلام تحت اسم الفكر العربى وذلك لعزله وافتناصه واحتوائه ولكن حركة اليقظة الإسلاميـــة استطاعت أن تواجه هذه المؤامرة وتكشفها وظهرت أبحاث كثيرة وكتابات متعددة لكشف هذا الزيف ونسف هذه الشبهات وكتب عديد من مفكرى الإسلام عن هذه المخططات :

(٢)

الاسرائيليات الجديدة فى التاريخ والعقائد

لم تكن الإسرائيليات الجديدة إلا صورة مجددة من الإسرائيليات القديمة غير أنها وضعت فى صورة المناهج العلمية والتى عليها ظل من براعة التعبير وصنعت من نظريات مستحدثة ولقد كشف كثير من الباحثين الجذور التلمودية فى :

- مذهب التحليل النفسى لفرويد
- مذهب ليفى بريل عن القول بتطور الأخلاق .
- مذهب دوكايم عن القضاء على المسؤولية الفردية وتغليب المسؤولية الجماعية .
- مذهب ماركس فى إعلاء التفسير الاقتصادى للتاريخ .

وفى مجال هدم «إسلامية» الثقافة العربية والأمة العربية كانت المحاولات والمؤامرات تدور حول تزييف التاريخ وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على أنها حركات ثورية إصلاحية .

وقد ظهرت هذه الحركة فى أفق الفكر الإسلامى المعاصر بعد أن صدرت توصية مؤتمر بلتيمور الذى عقـــد فى عام ١٩٤٢ والذى دعا إلى الإهتمام بدراسة وابتعاث الحركات السرية فى الإسلام ومن ثم بدأت كتابات (عربية) كثيرة فى هذا المجال ، تحاول أن تصور حركات الانتقاض على الإسلام ودولته على ـــ أنها حركات إسلامية أصيلة .

وفى السنوات الأخيرة تركز الحديث حول القرامطة ووصفهم بأنهم حركة تقدمية وجاء الدعاة إلى الشرق ليصفوا القرامطة بأنهم دعاة العدل

فى الإسلام من أمثال جارودى وغيره ووصفهم الدكتور طه حسين كذلك عام ١٩٥٠ تقريبا فى بحثه فى مجلة الكاتب المصرى اليهودية المصدرة .

ولم تكن حركة القرامطة فى الحقيقة حركة إسلامية ولكنها كانت إحدى الحركات المتصلة بالمؤامرة التى دبرت ضد الإسلام ودولته ، هذه المؤامرة المتصلة التى اشترك فيها اليهود والمجوس والقوى الشعوبية لحساب الدولة الرومانية الشرقية .

ويمكن أن نصدر فى تقيمها التحفظات التالية :

أولا — لم تكن حركة القرامطة إنسانية الطابع أو تعمل على تحرير الإنسان أو تكريمه وقد استخدمت الإسلام ستاراً لها لتحقيق أغراض المؤامرة بل كانت حركة طائفية محضة .

ثانياً — ارتبطت حركة القرامطة بثورة الزنج ولم تكن ذات طابع إسلامى بل كانت بمثابة الأخذ بالثأر على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم » .

ثالثا — لم تكن هذه الحركة إسلامية لأنها لم تستطع أن تحقق نهج الإسلام فى الحكم ولو ليوم واحد وإنما حققت مناهج الشيوعية فى المال والعرض وقام مجتمعهم على المنافسة وكان التقدم فيه قائما على الثروة المالية فكان مجتمعها مجتمعاً طبقيا .

رابعاً — كذلك ينفى عنها طابع الحركة الإسلامية اعتداؤها على الأراضى المقدسة وتجريح الرسول وصحابته وقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحو ثلاثين ألفاً من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج .

خامساً — تؤكد النصوص التاريخية تلك الصلة الوثيقة بين حركة القرامطة وبين الحركة الباطنية الاسماعيلية فى دور الستر وان اختلفت معها فى دور الظهور .

سادساً — كان المجتمع القرمطى مجتمعاً طبقيا فيه طبقة السادة وفيه طبقة العبيد التى كانت تتكون من الأسرى ولم يكن لها أى حق فى أى حرية أو مساواة مع الآخرين ومعنى هذا إنقلاب الوضع فقد عمد العبيد إلى الاستيلاء على السلطة ووضعوا أصحاب البلاد فى موضع العبيد .

سابعاً — كشفت الوثائق أن هناك صلات ظاهرة وخفية كانت قائمة فى ذلك الوقت بين الباطنية والصليبيين .

ثامنا — يعد الحلاج من أمثلة هذه الروابط بين الحركة الباطنية وأعداء الدولة الإسلامية وقد كان الحلاج من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صلة بالقرامطة وقد روى عنه انه أقسم فى أحد أحاديثه القدسية التى كان يزعمها لنفسه[١] بعام ٢٩٢ ﻫ .

وهذا العام هو الذى شهد الثورة الكبرى للقرامطة وقد سجل هذا كله ماسنيون فى كتاباته عن الحلاج .

* * *

وهذه التحفظات تكشف عن زيف دعوى المدعين بأن حركة القرامطة ثورة إسلامية أو حركة إصلاح ، كذلك فان بعض كتاب العرب قد أولى اهتمامه للحلاج ووصف بأنه داعية تحرير الإنسان من الظلم والحقيقة ان الحلاج لا يستطيع الثبات فى مجال الزعامة الإسلامية لحظة واحدة .

---

(١) رجعنا فى هذا إلى بحث الدكتور محمود قاسم (الهلال يناير ١٩٧١م) .

فقد وصفته كتب التاريخ التي بين أيدينا بأنه « رجل مجوسي الأصل ، اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ، ثم تناهى إلى إدعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر العباسي لينفذ بهم إلى تحقيق غايته » فأدى ذلك إلى قتله .

وذكر إمام الحرمين في كتابه الشامل أنه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاقاً سريا على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقي لقتل الحلاج ، فالحلاج لم تقتله الكلمة مهما كانت مغرقة في الشك والوثنية وإنما قتل حين ثبتت عليه مراسلات إلى القرامطة وتبين أنه كان وكيلا لهم وكان القرامطة قد أزاحوا النظام الاسلامي وسفكوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصمة في هجر حملوا إليها الحجر الأسود فظل بها ثلاثين عاما .

ولقد قيل أن دعوى الحلاج في الحلول والاتحاد والاشراق ووحدة الوجود كانت منطلقة إلى تمزيق الفكر الاسلامي وإفساده وهـــدم تعاليم الاسلام تمهيداً لتحطيم سلطانه السياسية وهو نفس المنهج الذي سلكته الباطنية فقد رأى خصوم الاسلام إزاء عجزهم عن هدم الدولة ، أن يلجأوا إلى تقويض عقيدة التوحيد التي جمعت شمل المسلمين وتذرعوا إلى ذلك بنظريات التصوف الهندي والمجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية وكانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الاسلامية والترخص في الحدود وإباحة المحرمات وقد جرى الحلاج في ذلك شوطاً طويلا فادعى الألوهية واتهم بمعارضة القرآن وأنه يحيي الموتى وان الجن يخدمونه وانه يعمل من الخوارق ما يشبه المعجزات وانه كان يدعو إلى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام في مكة وله من أصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها إلا هو ومن أرسلها إليه .

وقد أشار الدكتور قاسم إلى أنه مما يثبت إدانة الحلاج بالعمل مع

القرامطة انه كان يصرف الناس عن الحج وكان يستعيض عنه بكعبة مصغرة فى بيته يطوف بها أتباعه طوافا يغنيهم من الذهاب إلى مكة .

ومن الظاهرات الجديدة فى أفق البحث ظاهرة (وحدة الوجود) وهى ذات مصدر دينى قديم لا يقول بالتوحيد ويتصل بالتعدد حتى ليمكن القول أنها إحدى ركائزه الأساسية وقد وجدنا من أمثال الدكتور حسين فوزى وغيره من يفخر بأنه يؤمن بها .

ومذهب وحدة الوجود دخيل على الفكر الاسلامى وهو من المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التى تحرر منها الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها .

وتعنى وحـــدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله جل جلاله .

وهى دعوى تتناقض مع جوهر العقيدة الاسلامية تناقضا مطلقاً بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين دين عقيدة التوحيد بأى وجه من الوجوه .

ومفهوم الاسلام فى مواجهة وحدة الوجود : هو أن الموجود اثنان : واجب الوجود ، وممكن الوجود .

اما واجب الوجود فهو صانعها الواحد الأحد الفرد الصمد .

وأما ممكن الوجود فهو هذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

كذلك أنكر الاسلام عقيدة الاتحاد ، أى حلول الخالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق .

والإسلام يميز طبيعة كل منهما ولا يقبل وحدة الوجود لأنها تتعارض مع (لا إله إلا الله) .

ومن هنا نرى كيف أن الاستشراق وهو مادة التغريب والتبشير جميعاً يركز على هذه القضايا :

١ – قضية التصوف الفلسفي وفكرة وحدة الوجود في مجال العقائد .

٢ – قضية الثورات المضادة للإسلام ويحاول أن يصفها بأنها ثورات إسلامية كالقرامطة والزنج وغيرها .

ولقد أغرى بعض الذين يكتبون بهذا منذ وقت بعيد ، وما تزال أجيال الشعوبيين تتوالى وتجدد دعواها (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

(٣)

كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية ؟

إن هذه الدعاوى التي ماتزال تتردد عن صلة الفكر الإسلامي بالإغريقية أو الهلينية في حاجة إلى أن تواجه دائماً بالحقيقة القاطعة التي تكشف موقف الإسلام من الإغريق وكيف حطم هذا القيد وحرر الفكر الإسلامي من آثاره وآثامه .

لقد وجه المستشرقون والمبشرون الغربيون همهم ، دون توقف ، ودون يأس حول هـــذا المدخل إلى الإسلام في محاولة تصوير الفكر الإسلامي وهو من صناعة الفكر اليوناني الإغريقي ، أو إلقاء ظل التبعية الكاملة عليه . كأنما لم يكن للمسلمين فكر قبل القرن الثالث الهجرى منذ نزل كتابهم وجاء

رسولهم وتشكلت أمتهم ودولتهم وتكون فكرهم خلال مائتى عام كاملة ، استوفى فيها الفكر الإسلامى كيانه ووجوده قبل أن يلتقى بالفكر اليونانى ، وفيه تشكلت كل الركائز العلمية من تحقيق السنة وإنشاء النحو وبناء الشريعة واللغة وكتابة التاريخ وانطلاق شرارات العلم والبحث وبناء المنهج الإسلامى للمعرفة المستمد من القرآن الكريم ؛ لقد تم كل ذلك قبل أن يلتقى المسلمون بالهلينية ، لقد تكونت ركائز الفكر الإسلامى وتشكلت وثبتت قبل هذا اللقاء . فلما جاء الفكر اليونانى المترجم نظر المسلمون فيه وأخذوا منه ورفضوا .

ولقد كان المسلمون فى تطلعهم إلى التراث اليونانى إنما يقصدون العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ، ولم يكونوا فى حاجة إلى الفكر اللاهوتى الذى يسمونه الفلسفة الإلهية فقد كانت هى مما استغنى عنه المسلمون بالإسلام ، ولكن موجة الترجمة ما لبثت أن خرجت عن قواعدها التى رسمت وسيطر عليها بعض النساطرة الذين تدافعوا إلى ترجمة هذه الآثار فأحدثوا ذلك الأثر الخطير من البلبلة والاضطراب الذى تدافع المفكرون المسلمون حوله ، فى محاولتين : الأولى الملاءمة بينه وبين التوحيد وهى محاولة فاشلة قام بها الكندى والفارابى وابن سينا ، لأنها لم تحقق شيئاً ولأنها حين قامت لم تكن النصوص التى فى أيدى أصحابها هى الأصول الحقيقية للفكر اليونانى . أما المحاولة الثانية : فهى محاولة رد هذا الفكر اليونانى فى مجال الإلهيات رداً كاملا ورفضه والتماس منطق الفكر الإسلامى من القرآن على النحو الذى استطاعه الإمام الجليل ابن تيمية .

ومن الحق أن يقال أن النساطرة والسريان كانوا مزيفين مضللين ، وأنهم لم يكونوا خالصى الوجهة للعلم فقد ثبت ، أن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة

دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ، ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئاً ، وأن هذه المترجمات « كانت تكسباً للمال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى استغلال الترجمة فى الدعوة إلى نحلتهم ونصرة مذاهبهم » .

ومن هنا وقع الخطر : خطر نسبة بعض الكتب إلى أرسطو وهى لغيره أو لأفلاطون وهى ليست له ، ومن هنا فقد فسدت الدراسات التى حاول بها أمثال الفارابى المواءمة بين فكر ليس هو فى الأصل لصاحبه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن النساطرة واليعاقبة كانوا يحرفون الأصول التى بين أيديهم ، فيما يرونه مخالفاً لدينهم ، وأن بعضهم الآخر كان يتصرف بالزيادة والنقص فى النصوص ، يبدلون فيها ميلاً مع أهوائهم أو نصرة لمذهبهم ، عرفنا إلى أى حد كانت قيمة ذلك التراث المترجم .

(٢)

ولقد كان أرسطو هو قمة هذا التراث وهو الذى أحيط بهالة ضخمة من الاهتمام ، هذا الاهتمام الذى جدده (الهلينيون الجدد) فى العصر الحديث .

ولقد كان هناك قول أصبح من المسلمات أن منطق أرسطو هو قمة ما أخذ الفكر الإسلامى من اليونان .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن منطق أرسطو مستمد من المجتمع اليونانى الذى يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع الإسلامى ، ولذلك كان منطقه لا يطابق مجتمع الإسلام بل يتعارض معه .

« إن منطق أرسطو يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليونانى العبودى

المنقسم إلى سادة يتأملون وعبيد يعملون : السادة هم الصورة والعبيد هم المادة، ولكن المجتمع الإسلامي كان يختلف عن المجتمع اليوناني إختلافاً كبيراً دولة تقوم على الأخوة والمساواة وينطلق من نقطة النظر فى السموات والأرض والعمل والتجريب ومن هنا اختلف منهج المجتمع الإسلامي عن مجتمع اليونان ، من جملة جوانب أهمها التوحيد ، وإلغاء العبودية ، والممارسة فى مجال العلم وبذلك بدا ذلك التعارض الواضح والتباين العميق بين مجتمع ومجتمع وفكر وفكر .

خرج الفكر الإسلامي عن النظرة الأرسطية التى ترى أن العلم لايكون إلا بالكلى أما العلم الجزئى فليس علماً ، فتقدم الفكر الإسلامي لحطم هذه القاعدة وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات . وبذلك خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطى للحد والتعريف واستطاع رجال الأصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الأرسطى إلى الحصول على نتائج عملية ، وأصبح طابع الفكر العلمى الإسلامي هو طابع التجريب . ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون أنه قياس ذهنى أما المسلمون فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان وخطوا أخطر خطوة فى تاريخ البشرية وهى بناء قاعدة العلم الحديث نفسه تلك هى التوحيد بين التأمل والممارسة العملية . وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلية بين الأشياء وعلى هذه الرابطة بين الأشياء قامت التجارب وعلى هـذه الرابطة العلية (البحث عن العلة) أقام البيرونى والرازى وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم العلمية وفى نفس الوقت قام المنهج العلمى فى الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية[١] .

---

(١) راجع : على سامى النشار ومحمود أمين العالم وعبد الرحمن مرحبا وتوفيق الطويل فى دراساتهم عن العلم عند المسلمين .

« وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان : اختلف الفكر الإسلامى العربى اختلافاً كبيراً عن الفكر اليونانى المترجم وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً ، وإنما كان نتيجة طبيعية لإختلاف التكوين الاجتماعى للدولة العربية وللحضارة اليونانية » .

وبذلك ظهر الفكر الإسلامى فى جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو وأطل على التجربة العلمية رابطاً بين التأمل النظرى والممارسة العملية وخرج بذلك على الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية : خرج بالعقل التجريبى والمنهج العلمى الأصيل[1] .

ولقد صور كثير من الباحثين أثر منهج أرسطو فوصفه الدكتور قاسم بأنه « كان منهجاً عقيما وأنه ضلل كثيراً من مفكرى العرب ثم وقف حائلا دون ازدهار الحضارة العربية ويرجع عقمه إلى أنه كان خلواً من الخيال وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا وتواضعها بتاريخ النهضة الأوروبية فإنها لم تتحرر من الجمود الذى فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت مناهج العرب فى العلم والفلسفة ولنا أن نستشهد برينان نفسه ، ذلك أنه يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيق الفكر الأوروبى فى القرن الثالث عشر ، ويجب أن تعلم كيف جاءته إمارة الفكر ، إذ ليس فى هذا المجال خلق من العدم ، ومن اليسير أن نكتشف سر أصالته ، إذا نحن بينا أنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطوطاليسى فى أوروبا ودعا إلى اصطناع نهج العرب فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعناتهم على

---

(١) انظر : معارك فكرية وعلى سامى النشار .

الرياضة مع أنه من الممكن أن يبرهن بالرياضية على كل ما هو ضرورى لفهم الطبيعة ، ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هـــذا العالم معرفة صحيحة ، تعود علينا بالنفع فى الأمور الإنسانية والأمور الدينية أيضاً ، كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا إلى القوانين الكلية » .

وهكذا انتصر المنهج الإسلامى على المنهج الأرسطى وحطمه فى عقر داره بعد أن حطمه فى مجال الفكر الإسلامى نفسه .

فضلا عن ذلك فإن هناك التناقض الواسع العميق بين الإسلام والفلسفة اليونانية، لقد احتقر اليونانى التجريب والتجربة وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان ، ولم يشتغل المسلمون بالجوهر والماهية والتصورات التي شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا « بالخواص » وإدراج الخواص فى نسق منهجى متكامل ومع ذلك فما زال هناك من أهل التبعية الفكرية الغربية من يقول أن الإغريق أول من أوجد التفكير العلمى . وهو كلام براق غير علمى .

ان الاسلام هو الذى وجه تيار الفكر نحو الخواص ، ونحو التجريب وعبارة رسول الله فى هذا الصدد بعيدة الأثر والمدى (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

ومع ذلك فان الاسلام هو الذى حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع فان النصرانية لما دخلت اليونان خافت على الدين فمنعت تدريس الفلسفة ودفنت كتبها فى دهاليز فى باطن الأرض حتى كشف عنها المسلمون .

ولقد صحح المسلمون أخطاء جالينوس فى الطب اليونانى وأخطاء

بطليموس وابقراط وأقليدس فى الرياضيات وعارضوا أخطاء أرسطو فى المنطق وبالرغم من أثر الاغريق فى النتاج الفلسفى إلا أنه لم يستطع أن يحدث تغيراً فى مفهوم الاسلام الإنسان ورفض المسلمون رأى أرسطو ومفهومه فى الألوهية وماوصل إليه من زيف واعتبر الكندى والفارابى وابن سينا — فى مجال الفلسفة — بالرغم من الجهد الكبير الذى بذلوه لاقرار مفهوم التوحيد والتنزيه وإقرار النبوة — اعتبروا بالرغم من ذلك كله مجرد إمتداد للروح الهلينية فى العالم الاسلامى .

واعتبر الباحثون أن الفلسفة الاسلامية قد نبعت من صميم البيئـــة الاسلامية ، وأنه بعد معاناة علوم القرآن والحديث نشأ علم إسلامى أصيل هو [علم أصول الفقه] الذى أقامه الامام الشافعى أول معارض لتيار الهلينية ، وأول من نبه إلى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس .

ولقد قدم الامام الشافعى « مباحث الأصول » لأول مرة : كعلم متسق الأجزاء له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التى يسلكها لاستنباط الأحكام .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الاسلامية : أن هذا الاتجاه من الشافعى هو إتجاه العقل العلمى الذى لا يعنى بالجزئيات والفروع بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيليـة بأصول تجمعها . لقد دعا كل ذلك إلى اعتبار (الشافعى) فى العالم الاسلامى وفى الدراسات الاسلامية مقابلا لأرسطو فى العالم الهلينى والدراسات اليونانية .

« كان الشافعى يعرف اليونانية وقد هاجم المنهج الأرسطى مهاجمة شديدة لا من الجانب السلبى فقط بل إيجابيا بوضع منهجه فى الأصول الذى كان أساساً للمنهج الاستقرائى والتجريبى ، الذى تميزت به الثقافة الاسلامية

وحضارتها والذى لولاه لسقط العلم فى العالم الإسلامى ، ولتأخرت نهضة أوروبا العلمية الجديدة » .

« كان الشافعى يرى « فكر الدين » فى اللغة العربية وفكر (الفلسفة) فى اللغة اليونانية ، كما يرى أن المنطق الأرسطى الذى يستند إلى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذى كشف عنه علم الأصول الذى يستند إلى اللغة العربية وخصائصها . ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدى إلى كثير من التناقض ، ولذلك هاجم المنطق الأرسطى الذى أخذ به بعض علماء المسلمين كالفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد إلى حد التحريم وتابعه فى ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على رأسهم ابن تيمية[١] .

ومن هنا فان المنهج الاستقرائى (العلمى والتجريبى) على حد قول الدكتور النشار — هو المعبر عن طبيعة الإسلام ، والإسلام فى آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل ، هذا المنهج بما فيه من روح الإسلام ونظرته قد أدخله العرب إلى العالم الأوروبى وبذلك فان المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبى » .

(٣)

جاء الإمام ابن تيمية خاتمة لهذا الخط الواضح القوى : الذى ظل المفكرون المسلمون يعملون له دون توقف فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينية ، لقد كان شغل المسلمين الشاغل هو الرفض بالسماح لشخصية الإسلام والحضارية أن تذوب أو تتلاشى فى شخصية حضارية أخرى ، وهو ما مكن المسلمين من الصمود فى وجه القوة الغازية .

---

(١) الدكتور النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام .

ولقد وصل ابن تيمية إلى قة من القمم فى هذا المجال فى كتابة الرد على المنطقيين ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناطقة اليونان أكثر ممثل لروح الإسلام تجاه الهلينية فنقد المنطق الأرسططاليسى ولم يقف عنـــد هذا بل استخلص للإسلام منطق يعبر عن خصائص العقلية ويحمل طابع حضارته .

ويعد الباحثون : «ابن تيمية» الرائد الأكبر لـكل الإتجاهات الحديثة والغربية فى نقد (منطق أرسطو) من ارجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد تتبع ابن تيمية المنهج الإسلامى الاستقرائى منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة . وكشف عن عقم عملية التلفيق التى قام بها الفارابى وابن سينا ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل ، وهاجم المتـكلمين واتهمهم بمخالفة الـكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع .

ووصل إلى نتيجة صريحة هى أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا وعنده أن فى ذلك خروج على أصل من أصول الإسلام ويؤمن بأن مهمة العقل هى تفسير الوحى والتعبير عنه .

(وبعـــد)

فإن الحقيقة الواضحة الصريحة أن الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تسيطر على المسيحية واليهودية ولـكنها عجزت عن أن تفعل ذلك بالنسبة للإسلام وأن منهج اليونان مخالف لمنهج المسلمين وإن اليونان اقتصرو على

التأمل . أما المسلمين فقد اقتحموا مجال التجربة وإن القرآن هو الذى هداهم إلى بناء المنهج العلمى التجريبى .

ومن هذا فقد كان على الأصوات التى تدعى أن للهلينية فى الفكر الإسلامى مكان أن تخرس وأن تتوقف بعد أن تكشفت الحقيقة على أيدى الباحثين فى الفلسفة أنفسهم ، إن خصومنا يحملون اسم الفلسفة على أنه معلم من معالم الحرية ولكنهم فى الحق إنما يريدون به تحطيم مفهوم الإسلام الصريح القائم على الفطرة والتوحيد والذى ليس فى حاجة إلى سلاح الفلسفة إلا على النحو الذى فهمه الإمام ابن تيمية .

(٤)

الفلسفة المكتوبة باللغة العربية

هل عرفت طريق الأصالة ؟

ما زال أرنست رينان يردد فى كتبه التى ما زالت تدرس فى بعض الجامعات العربية : إن الفلسفة العربية ما هى إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ومنذ أن وصل أول باحث مستشرق لتدريس مادة الفلسفة فى الجامعة المصرية القديمة: كونت دى جلارزا فقد فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين بأنه لا توجد فلسفة عربية وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

وقد أزعج هذا القول الكثير من الغيورين وحملوا على هذا القول وقالوا : بل هناك فلسفة عربية وأن دور الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم يكن مجرد النقل وإنما كان لهم دور بناء .

وقد سار فى هذا المنهج أحمد لطفى السيد حينما ترجم باسمه كتاب

علم الأخلاق لأرسطو طاليس ترجمة بارتلمى سنهيلر(١) الذى يقول فى المقدمة :

« مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصوراً على كتب أرسطو فان فلسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئاً غير فلسفة أرسطوطاليس طبعت بالطابع العربى وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوربية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين أى فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) على هذا المعنى فقال : إن ما قاله الأستاذ (يعنى لطفى السيد) يؤيده الكتاب الأوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية واستشهد بما لقولة الاسكيس وليم واسن . أن مايعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة فانه فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحور بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الإسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم وبقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم على أن أممهم أساءت بهم الظن واضطهدتهم ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سبباً فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو فقال : وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لاسيا أنها أشد المذاهب ائتلافا مع مألوفاتنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية » .

---

(١) ما يزال العاملون فى دار الكتب المصرية يذكرون كيف قامت هيئة الترجمة بالدار بترجمة هذا الكتاب يوم كان لطفي السيد متولياً منصب مديرها ١٩٢٥ .

وقال أن فلسفة المعلم الأول خالدة ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن فقد بنت عليها كل مدنية صروح مجدها العلمى حتى مدنيتنا الجديدة » .

هذا هو الإتجاه عام ١٩٢٥ فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية إلى جامعة رسمية وجيء بلطفى السيد فوصفه تلاميذه وأتباعه بأنه أستاذ الجيل. رئيساً للجامعة وجاء طه حسين وغيره يدعون إلى اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا « لطفى السيد » أستاذ الجيل صادقاً فيما قال وفيما دعا إليه العرب والمسلمين من إتخاذ أرسطو منطلقا إلى النهضة الجديدة وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعد دعوة ملحة إلى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة !

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقص أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه وإعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قروناً حتى جاء منهج التجريب الإسلامى الذى أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث ؟ ندع هذا للباحثين لقد كان علماء المسلمين إنطلاقاً من القرآن هم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت وجوستاف لوبون فى القديم وسارتون وهونكه وغيرهم فى العصر الحديث وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : (شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوربا ولدت فى آسيا) .

إذن لم يكن لطفى السيد صادقاً ولم يكن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أميناً حين نقلا إلينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدو أرسطو أولا ثم جاء الغربيون فنقدوه فى ضوء العرب ورفضوه والتمسوا منهج المسلمين الذى دفعهم إلى ذروه التكنولوجيا الآن .

إذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك

فانهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) .

ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المغلقة ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب الذى أنشأوه ونماه الغرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد طه حسين وجماعة من أتباعه يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ولما كان الفكر الغربى الحديث هو ثمرة فكر اليونان فان تبعية المسلمين والعرب له لا تعد شيئاً جديداً ولا غريباً لأنهم كانون تابعين لليونان فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفاد اليونان . لم يكن أستاذ الجيل صادقاً إذن ، ولم يكن الدكتور طه حسين صادقاً فى هذا ، فان المسلمين لم يقبلوا أرسطو ، ولم يعتنقوا فكر اليونان وإنما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن .

ولقد تصدى لهذا كثيرون من أبرزهم الغزالى وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف ما زال واسعاً حول ما كتبه الفارابى وابن سينا وهل هو فلسفة إسلامية أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين فان رجلا كريما ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب هو الشيخ مصطفى عبد الرازق قد فصل فى هذا الأمر على نحو صحيح ومن خلال دراسات الجامعة نفسها وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب ، حين قال : آن الفلسفة الإسلامية إنما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء وان الامام الشافعى واضع (أصول علم الفقه) هو أول الفلاسفة فى الإسلام وان مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسطو فى اليونانية .

وبذلك نشأت مدرسة الأصالة فى مجال الفلسفة وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها محمود الخضيرى ، ثم محمد عبد الهادى أبو ريده ، وعلى سامى النشار .

ومنذ ذلك الوقت وقد صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية) عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقـــرر قبل ذلك بوقت طويل فقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها وهو مايزال عسيراً فى مجال الأدب والنقد الأدبى فإن التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد مازال قوية .

ولقد أثبتت مدرسة الأصالة فى الفلسفة الإسلامية (عبد الرازق — أبوريدة ـ النشار) أن المنطق الأرسططاليسى: منهج الحضارة والفكر اليونانى- لم يقبل فى المدارس العقلية ، وأن المنهج التجريبى الإسلامى هو الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة مع مباينته الحضارة اليونانية وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الإسلامية فالحضارة الإسلامية حضارة عملية تجريبية تتجه إلى تحقيق الفعل الإنسانى فى ضوء نظرية حية ملموسة .

كذلك فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى وباعتراف الدكتور محمد عبدالرحمن مرحباً : «أن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانيـة والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئاً » .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن تمت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول ، ذلك أن الفكر الإسلامى قد تم تشكله قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ومن الربط بين الوحى والعقل ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها . خاصة وهى فلسفة

بمجتمع وثنى قام على العبودية وإعلاء العقل وعبادة الجسد فضلاً عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف نصوص وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة لإدخال الفلسفة اليونانية فى إطار الإسلام فإن المحاولة فشلت تماماً . وكانت وقفة الغزالى فى وجه الفلسفة الالهية اليونانية وقفة صارمة ردت السيف إلى صدور أصحابه فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية وبين الفلسفة الالهية ورفض الأخيرة لأنها متعارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى أما فى الالهيات فهو تخمين .

وفى الفلسفة الإلهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الإسلام : ما يقولون به من قدم العالم وأن الله (جل وعلا) لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكارهم البعث .

وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم قديم كالدهرية والزنادقة . والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الإمام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة أخرى، أشد خطورة حين عرفت صلاتهم بالدعوات الباطنية الهدامة وإخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الإسلامية من قرامطة وغيرهم .

ثم جاء ابن تيمية فاستحالت غرباً فقد كشف فى كتابه (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الإسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منهما هذا المنطق الجديد الذى سماه المنطق الإسلامى . وقال أن هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفي ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت في عقولهم

آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما . ومما قاله : أن ماعند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه من الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون إلى المنطقة الوضعية وقد عنى بنقد فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو وأشار إلى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عند (الفارابى وابن سينا) بين الإسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل .

ومما عرف فى هذا المجال وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠

وبعد فإن مدرسة الأصالة كان لابد أن تواجه المدرسة التى ماتزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتى تبلورت بعد فى مناقشة الدكتور النشار لآراء الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى كتابه (فى الفلسفة الإسلامية) وقد بدأ الدكتور مدكور وكأنه متابع لمنهج لطفى السيد وطه حسين ويرى مدكور أن أرجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية[1] يقول الدكتور النشار : أن المنطق الأرسطاليسى قد نقل إلى العالم الإسلامى وأثر فقط فى المدرسة المشائية الإسلامية وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة

---

(١) أثبت عكس هذا الرأى : الدكتور النشار فى كتابه (مناهج البحث عند مفكرى الاسلام) .

عن نظام إسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده وكانت قد وضعت منطقاً مختلفاً تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته ، الدكتور مدكور لاينكر وجود هذا المنطق الإسلامى ولكنه يرى أنه كان لمنطق أرسطو أثره الكبير فى العالم الإسلامى . ولست أرى هذا على الإطلاق .

أن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلم يونان ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء المتأخرين ولم يوافق متكلمى الأشاعرة من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب .

ويرى الدكتور مدكور أن محاولة الفارابى نجحت وأضفت على تاريخ الفلسفة أضواءاً جديدة ويقول الدكتور النشار أن هذه المحاولة كانت غريبة عن روح الإسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وأن فلسفة الإسلام إنما تنبثق من الإسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق وأن فلاسفة الإسلام المشائين قد ابتعدوا عن الإسلام روحاً ونصاً ، وعن المجتمع الإسلامى فكراً وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الإسلامى منذ عهد بعيد ولم تمت العقائد الكلامية حتى عهدنا هذا ولكن النشار ينصف مدكور فلا يجعله تابعاً لمدرسة لطفى السيد وطه حسين فيقول ليس الدكتور بيومى من مدرسة الفلسفة اليونانية التى رأت فى فلسفة اليونان (غاية الغايات) وأن إليها يعود كل فكر ، ولم ير الدكتور مدكور على الإطلاق أن فكرنا المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها (مدرسة طه حسين) على مسرح تفكيرنا ، أنه مادام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا إذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء ، ا . هـ

(٥)

تجديد التفسير الباطني للقرآن

وقد جرت محاولات القول فى تفسير عصرى بأن عذاب جهنم ليس على حقيقته المصورة فى نصوص القرآن انما هو ضرب من الاخافة والترهيب يقول الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا كلام هدام للاسلام يجب أن تحذره الأمة حفاظاً على كيان دينها وأصل وجودها فى وجه هذه الاتهامات الشداد المتدفقة عليها من كل بلد اندفاع السيل والمراد بهذه الدعوة الخاطئة والتفسير الآثم هو إشاعة الاباحية والجريمة فى الناس بانتزاع فكرة العذاب الآخروى فى نفوسهم الذى هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم ، والدعوة للاباحية المطلقة والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية أصبح هدفاً أيدلوجيا لبعض الفلسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها فالقائلون بعدم كون العذاب الآخروى حقيقة انما يعملون بدهائهم الخاص لتسرب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الأمة وإفساد معنوياتها النفسية والعقائدية والأمة أشد ما تكون حاجة وهى تصارع فى معاركها المعتدين إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقته المناضلة وحماية نفسه وهذا يجدد الدور التخريبى الذى كانت تقوم به الشعوبية لهدم الاسلام من باطنه بالعمليات الفكرية المضادة لمفاهيمه وأسسه فى صدر الدولة العباسية ، أن البوذية والبرهمية تذهبان للقول بعدم وجود عذاب أخروى وبعض الأديان الكتابية الأخرى تذهب إلى أن عذاب الآخرة معنوى لاحسى على عكس ما يرى المسلمون . هذه محاولة لاحتواء الاسلام وامتصاص خلته من نفوس المسلمين وحياتهم بتغيير مفاهيمه المجمع

عليها وتعطيل نصوصه من الدلالة على معانيها الموجودة بها وهم قد أبطلوا بمذهبهم هذا قضية الثواب والعقاب على الاطلاق وأبطلوا تبعاً لذلك مفعولية التكاليف الشرعية والتزام العمل بها لأنها مناط التكاليف الشرعية والتزام العمل بها فاذا بطلت حقيقة الخطاب بالثواب والعقاب على فعل التكاليف وتركها فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية نفسها وهل الاسلام إلا هذه التكاليف من الأمر والنهى ولوازمهما من الثواب والعقاب فاذا بطلت بطل الاسلام كله . أما بالنسبة للقرآن الكريم فبعد القطع بكونه تنزيلا من حكيم حميد يمتنع الاعتراض فى أحكامه وأخباره ويجب أن تتلقاه النفوس بالإذعان والقبول وإتمام التسليم له لأنه — لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — فهو حق وصدق وسلامة منطق وصحة أحكامه ، أما بالنسبة للمكلفين فان ضمان العمل بالشريعة الذى هو أصل تربية الأمة على الاصلاح وارتقائها على مدارج الفلاح وانما هو فى التحذير الحقيق للمخاطبين بالشريعة من مخالفة الأمر والنهى بنصب الوعيد لهم على المخالفة بعذاب الجحيم .

ويصور الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا العمل على أنه جزء من خطة احتواء الاسلام فيقول أن الاسلام يواجه صراعا تاريخيا حاداً وظالما من أمم فى الأرض جعلت نفسها بغـــير الحق فى جانب عدواته والكيد له . تستطيع أن تتصور الاسلام حصنا متينا شامخا وفى داخله أقوام من الناس يعيشون بعقائد خاصة وتقاليد وفيه وعادات وهذا التراث الدينى ـ لا القومى ـ هو حبل الله المتين الذى يربط بين هذه الجماعات الانسانية ويصنع منها وحدة صلبة تؤكد لأصحابها وحدة العمل والبناء وتمنحهم طاقات النضال وقد تمكن الذين اختاروا لأنفسهم عداوة الاسلام بغيا بغير الحق بصبرهم وذكائهم وشدة إخلاصهم لمعتقداتهم ثم بتفريط المسلمين وانقسامهم على أمتهم أن يكسروا حصن الاسلام الظاهرى باستعمار أكثر بلاد المسلمين ، المهم أنهم

وتمتعوا بمكان من سلطانهم بحيث لا يفلت من قبضتهم ان أرادوا شيء ولكن كسر قشرة حصن الاسلام الظاهرة — أعنى استعمار أمة واحتلال أراضيه لم يكن شأنه أن يؤدى للغاية الأصيلة منه وهى التخلص من سلطان الإسلام العالمى كفكر ودين وأيديولوجية ، وما دامت بطانة هذا الحصن من العقائد والأحكام باقية بين المسلمين فان (ديناميكية) هذه العقائد والأحكام كفيلة إذا تفاعلت فى نفوس المسلمين أن تعيد لهم مرة ثانية بناء الطبقة الظاهرة المكسورة من خصمهم العنيد .

إن مكمن القوة الفاعلة ومادة البناء الذى يراد به التطاول والشموخ تستقر فى قلب الإسلام باعتباره عقيدة وفكر ونظاماً اجتماعياً وما دام هذا الحصن المعنوى قائماً فى نفس الإنسان المسـلم فهو الحصن الأكبر الذى لا يأتى عليه الدهر ، فالمقصود للتخلص من وجود الإسلام هو إدخال التغيير والتحريف على معانى نصوص الإسلام وإدخال التغيير والتحريف على مفاهيم العقائد الإسلامية والأحكام الإسلامية بحيث يقع ذلك كله موقعاً قريباً من الأديان الأخرى التى يريد لها أصحابها الانفراد من دونه بفكر جميع البشر واعتقادهم ، وبحيث يؤدى هذا القرب إلى نسيان المسلمين وتجاهلهم بحقائق دينهم الأصيلة الصحيحة وانتقالهم عنها إلى هذه المفاهيم المتغيرة الجديدة التى تنقلهم بطبيعتها المنحرفة المتغيرة إلى الايناس والتذوق لحقائق ومفاهيم الأديان الأخرى التى شدوا إليها من أول الطور بتزييف حقائق الإسلام وتعتبر مفاهيمه فى العقائد والأحكام ، ثم إذا وصل المسلمون فى الشوط قبل الأخير من الايناس والتذوق لحقائق الأديان الأجنبية والمنابذة للاسلام والمصارعة له فى التاريخ المعاصر أمكن شدهم بعد ذلك بمنتهى السهولة واليسر إلى تمام مراحل العملية المنظمة بإخراجهم من دينهم وإدخالهم فى الدين الجديد المراد إدخالهم فيه من أول مراحل العملية . نعم إن هذه عملية طويلة وصعبة التناول والممارسة وتحتاج إلى زمان طويل ولكن تجارب التاريخ

مع خصوم الإسلام فى الكيد له تعلمنا أنه لا يوجد فى تخطيطاتهم عن الإسلام شىء يقال عنه أنه صعب ، لقد بدأ خصوم الاسلام الأذكياء ذوى الكفاية المذهبية الرائعة المنظمة أروع تنظيم إلى بدء هذا المخطط منذ زمن قديم جنباً إلى جنب مع مخطط ضرب الإسلام عسكرياً من أول يوم من أول ظهوره وفى كل مكان وصل إليه فى الأرض لكن تركيزهم على ماقبل الحرب العالمية الأولى كان منصباً على ضرب الاسلام عسكرياً بالدرجة الأولى . حتى إذا أسقطوا دولة الخلافة الاسلامية ووضعوا أيديهم على البلاد التى تعتبر قلب الإسلام وهى مصر وفلسطين ، انتقل تركيزهم بالدرجة الأولى إلى عملية الاحتواء الفكرى ، هذه يسخرون فيها أناساً من المسلمين أنفسهم إما بطريق الاستهواء والاقناع الفكرى لمن ضعف اعتقادهم وتثقيفهم الاسلامى وإما بالاغراء بالمنافع العاجلة واستثمار ضمائرهم وأقلامهم بالثمن الجزيل واستغلال حاجة بعض الناشئين الفقراء وضوع نفوسهم فى قالب التربية الخاصة تؤهلهم إذا كبروا وأصابوا مراكز مرموقة فى الدولة ممكنين لهم من الفعل والخدمة أن يقدموا لمربيهم هؤلاء فى مضادة الاسلام بهذا الدور الخطير .

(٦)

صاحب الزنج والحلاج

حاولت حركة المؤامرة على الاسلام إبتعاث مفاهيم زائفة فى محاولة لإحياء الشعوبية والفكر الباطنى على أن حركة الزنج والقرامطة حركات عدل اجتماعى .

وكان صاحب الزنج والحلاج فى مقدمة الشخصيات التى ركزت عليها وقد استطاعت حركة اليقظة الاسلامية والأصالة أن ترد هذه المفاهيم الزائفة

وتكشف وجه الحق فى دعوى أن الحلاج كان مصلحا اجتماعيا أو داعية إلى العدل الاجتماعى أو أنه قتل فى سبيل تحرير رقيق الأرض ولقد عنى لويس ماسنيون بأخبار الحلاج أربعين سنة يبحث عنها ويمليها ويعيد طبعها ويضع سمومها بين أيدى المثقفين فى هذا العصر ، حريصاً أشد الحرص على أن ينفى الصلة بينه وبين القرامطة وقد واجه الدكتور محمود قاسم هذه القضية وكشف وجه الحق فيها قال : بدأ ماسنيون شديد الحرص على نفى الصـــلة بين الحلاج والقرامطة وظل يؤكد أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسياً بل انتهى به الحب الالهى إلى التضحية بنفسه على مذبح الحب كذلك يؤكد لنا دون ملل أن الحلاج كان متصوفاً سنياً أراد تعميق الروح الدينية فى بيئة جفت عاطفتها الروحية وتمسكت بقشور الدين دون لبه وقد ظن ماسينون وبعض تلاميذه أن الحلاج الذى قال بحلول الله فيه يعد جسراً بين المسيحية والاسلام السنى ومع ذلك فإن هذا الحرص الشديد على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن على عكس ذلك بوجود هذه الصلة بينه وبينهم ، وقد اعترف ماسينون فى موطن ما من كتابه عن الحلاج بأن موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان سبباً فى إدانته ومصرعه وأنه جره مكة من أفضليتها وقداستها مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منه ثم إرساله إلى هجر حيث بقى هناك نحواً من اثنين وعشرين سنة فلم يعد إلى موضعه إلا بعد أن استقرت الدولة الفاطمية وبعد أن ثبت الحكم الفارسى فى بغداد بدلا من الحكم العربى .

عاصر الحلاج حركتين شعوبيتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة وربما تكشفت لنا خيوط تربط إحدى هاتين الثورتين بالأخرى وذلك أمر يتسق على طبيعة الأحداث التاريخية والاجتماعية . ويمكن القول بدءاً بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركات سياسية ترمى إلى تقويض الدولة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافة من الأمويين إلى آل البيت .

وكان من الطبيعى أن تصطبغ هذه الحركات بصبغة دينية جلباً للأنصار من الحانقين على الدولة العباسية وربما كانت هناك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحنق على أصحاب هذه الدولة ، ولكن سارت الثورات السياسية جنباً إلى جنب مع ظاهرة دينية إذ كان ادعاء النبوة أو الربوبية أمراً مألوفاً فى تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التى بدأت تنحل لكى تمهد لظهور عصر الدويلات الصغيرة منذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة .

إذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من ادعى الألوهية ولا آخرهم ، فقد سبقه كثيرون كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ونعني به أبا عمر الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى .

ساعد ضعف السلطة المركزية فى بغداد على تتابع الفتن فيها ثم على نجاح ثورة الزنج الذى بدأت فى ٢٥٥ واستمرت نحواً من خمسة عشر عاماً وقد بدأت هذه الحركة تحت لافتة دينية إذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة إلى آل البيت وهو محمد بن محمد على عبد الرحيم ولد فى الطالقان بخراسان وهى المنطقة التى كان يجوب فيها دعاة الإسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح والتى جال فيها الحلاج أيضاً — بدأت الحركة بمجىء صاحب الزنج من خراسان وقد ادعى هذا الرجل أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى من أبناء الحسين ، ونجح فى كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله ثم اتجه إلى البحرين التى ستكون من أهم المراكز القرمطية فيما بعد فاتبعه جماعة كبيرة من أهلها وغيرها ادعى لنفسه النبوة وزعم أن الوحى ينزل عليه . ثم انتقل إلى البصرة ومنها إلى بغداد فزعم أنه ظهر له آيات وتلك هى الكرامة التى نسبها الحلاج إلى نفسه أو نسبها إليه أصحابه فيما بعد وقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد

ثم انتقل هو وأتباعه إلى البصرة فى سنة ٢٥٥ أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزاً له بعد أن عزل واليها ثم أخـذ يستدرج العبيد وكون منهـم جماعات نصب على كل جماعة فيها رئيساً من بينهم وكان يعدهم الجنة فاجتمع لديه عدد كبير من غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليـه خلاصاً من الرق والتعب ولما قوى أمره سار إلى القادسية ونهبهـا هو وأصحابه ثم عاد بهـم وهاجم البصرة ووضع فى أهلها السيف بعد أن هزم جيشها فقتل من أهل البصرة خلقاً كثيراً وقد رسم المسعودى صوراً بشعة لـكارثة البصرة فيقول واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار فـكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الـكلاب فيذبحونها ويأكلونها والفيران والسنانير فافتنوها فـكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه . وهكذا لم تلبث حركة الزنج إن كشفت عن وجهها الحقيق فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيين فى أسواق الرقيق وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الأسرى فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها بدون قتال كما فعل أهل عبادان وقد دخل الأهواز وخربها ثم أحرقها ولم يكن يحترم وعداً أو عهداً مع أعدائه ، وذلك أنه لمـا دخل البصرة (أقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت ولما طلب أهل البصرة الأمان منهم فلما تجمعوا فى دار حددت لهم غدربهم وأمر أصحابه بقتلهم وأحرق البصرة فى عدة مواضع ، وهذا هو مافعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا إليها سنة ٢٦٤ هـ ، هزمهم أبوالعباس الموفق الهزيمة الأولى ٢٦٧ .

ثم كتب إلى صاحب الزنج كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة ولـكن الثائر لم يستجب لحاصر الموفق مدينته التى سماها (المختارة) وضيق عليها الحصار ولمباد التأثير النفسى فى أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون إلى المدينة المحاصرة ومن بينهم بعض القواد وكانوا يطلبون الأمان من الموفق فأمنهم وظل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها وأخيراً اقتحم الموفق المدينة

المحاصرة وأحرق قصورها وأنقذ النساء والأطفال واستطاع القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠

ثم مالبثت أن نشبت ثورة جديدة بعد وفاة الموفق ٢٧٨ ونعنى بها ثورة القرامطة التى امتدت قرناً من الزمان وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعاتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الألوهية إلى جانب المناداة بإبطال فرائض الإسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوحيد أيضاً وقد حاول ماسينيون جاهداً أن ينفى عنه التهمة السياسية وأن أقر بأن الحلاج نادى بإسقاط التكاليف وبأن الولى عنده أعلى مرتبة من النبى وله أن يفسخ الشريعة وأن يقرر عبارات جديدة وعلى الرغم من الفاصل الزمنى بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فإننا نجد أنفسنا فى الواقع أمام ثورة متصلة أجيد تخطيطها والإعداد لها بصورة متقاربة .

ومن المؤكد أنه كانت للقرامطة (أيديولوجية) دينية لاتتسق مع مايعرفه المسلمون عن دينهم سنية كانوا أم شيعة فقد ادعى القرمطى الأول أنه داعية المسيح وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل ويتم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقى للماسونية والقرمطية والباطنية بصفة عامة .

ويخبرنا ابن الأثير أن قرمطاً اتصل بصاحب ثورة الزنج قبـــل مقتله وأخبره أن معه مائة ألف ضارب بالسيف ولكن لم يتفق الرجلان لبعض الفروق المذهبية وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين إلى حد كبير من سبى النساء والجوارى وقتـــل الأسرى والسلب والنهب .

كان أسلوب القرامطة امتداداً لأسلوب صاحب الزنج .

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خراسان منذ سنة ٢٨٥ هجرية لفترة امتدت نحواً من خمس سنوات كان شديد اللهفة فى ظهور المهدى المنتظر

يقسم بسنة ٢٩٠ هجرية وهى السنة التى كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضاً وهذه السنة هى التى تلعب فيها ثورة القرامطة أوجها من العنف وقبض على الحلاج ٣٠١ ويقول ابن الأثير أنه كان مشعبذاً فى قول بعضهم ومعه صاحب له فقيل أنه يدعى الربوبية وفيما بعد قال الإمام الجوينى إمام الحرمين أن الحلاج كان من دعاة القرامطة وأنه اتفق هو الجنابى وابن المقنع على إفساد عقائد الناس وتفرقوا فى البلاد فكان الجنابى فى هجر والبحرين وابن المقنع ببلاد الترك ودخل الحلاج العراق وإن كان الحلاج لم يجتمع فى عصرهم غير أنهم لم يكن لمقتل أبى سعيد الجنابى ولأربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة فى سنة ٣٠١ تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والإحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين .

وأخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعد خروجهم من مكة .

والذى يعنينا هنا أن نفسر عنف القرامطة فى محاربة الحجاج والفتك بهم ، وسنرى كيف اضطر ماسينيون رغم محاولاته العديدة إنكار الصلة بين الحلاج والقرامطة أن يعترف بأن الحلاج كان يريد إبطال فريضة الحج ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفاً أساسياً من أهداف الدعوة الفاطمية . أن ظاهرتى إبطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الألوهية هى الظاهرتان الغالبتان وقد جمع الحلاج بين هذين الأمرين ثم اختلف الناس فى تفسير مقتله أكان بسبب محاولة إسقاط فريضة الحج أم كان بسبب ادعائه الألوهية ، لكن يبدو أنه كان يريد الأمرين معاً فإنه يصرح بأنه مدين بمذهب الحلول وهو عندما يجمع بين الأمرين لا يفعل سوى أن يسير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية وأنه استعان فى سيرته هذه بالسحر والتصوف فى الوقت نفسه .

* * *

ويتحدث الدكتور بديع شريع عن الحلاج فيقول : كتب عنه ماسينيون كتاباً كبيراً عالج فيه ناحية التصوف فقط ولم يتعرض للناحية السياسية كأن الحلاج لم تكن له صلة بالقرامطة وكأن الحلاج لم يكن له شأن فى أمور السياسة وقد عده المعرى فى رسالة الغفران من الزنادقة وقال عنه أنه مشعوذ وقال ابن النديم أنه سياسى يروم قلب الدول وقال البيرونى عنه أنه كان رجلا مشعبذاً ومتصنعاً ومازجاً نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه العبارات من الهو هو الأزلى الأولى النور الساطع اللامع والأصل الأصلى وحجة الحجج ورب الأرباب ومنشىء السحاب ومشكاة النور ورب الطور المتصور فى كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بعبارة : سبحانك ياذات الذات الخ وقد فتن الناس به وارتبكت أمور الدولة فقبض عليه وحوكم علانية أمام جمع غفير وسئل فقهاء الشرع فى أمره فأفتوا بالإجماع بقتله وكان يمكن للمقتدر أن يتركه حراً يعبث لصوفية ويثرثر بهذه الألفاظ التى لا تنفثها عادة إلا أفواه المعتوهين والمأفوقين لولا أنه اكتشف سراً خطيراً وبان له أن الجبة التى قال عنها الحلاج كلمته المشهورة (مافى الجبة إلا الله) كانت ستاراً يغطى اتفاقاً سرياً بين الحلاج وبين رئيس القرامطة لقلب الدولة وتقويض أركان الإسلام ، وقضى المنصور على ابن المقفع وقتل المهدى بشار بن برد وفتك الرشيد بالبرامكة بعد ما كشف سر مايبطنون له وقضى المعتصم على الأفشين وأفتى علماء المقتدر بقتل الحلاج فأهلكته » .

فانظر كيف يجدد الشعوبيون ودعاة التغريب لنا ذلك كله اليوم تحت ستار الأدب .

(٧)

الشعوبيون

ابن المقفع — أبو عبيدة — علان — أبو نواس — أبو العتاهية

وقد كشف الدكتور بديع شريف عن جذور المؤامرة وحاول وضع النقط على كثير من الحروف وخاصة ما أورده المستشرقون : يقول أن المستشرق الإيطالى جويدى نشر مخطوطاً لمؤلفه ابراهيم بن القاسم واسم الكتاب [الرد على الدين : عبدالله بن المقفع] كشف به القناع عن زندقة ابن المقفع ، اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد بدأ عبد الله قرآنه بطراز جديد من البسملة باسم النور الرحمن الرحيم ثم شرع بمدح النور وأنه منبع الخير والمعرفة ويهاجم الإسلام من حيث أنه دين والقرآن من حيث أنه منزل على محمـــد خاصة صورة الجن وإحراقهم بالشهب ثم يستهزىء بالله حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ويظهر جور الله وظلمه ومن ذلك قتل أنبيائه ورسله وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ويشعر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام ثم يتهكم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

والقاسم لم يذكر جميع رسالة ابن المقفع بل اقتطف منها جملا معدودة ولكنها تعطينا صورة للجدل الذى كان يثار فى ذلك الزمن والكفاح المستمر بين الملحدين والمسلمين وبتعبير أجلى للصراع بين الميدانين وأسس الحضارتين ، كان عمل ابن المقفع عملا فردياً ولكنه عمل جبار فى الصراع بين هاتين الحضارتين ومع أن الدور الذى لعبه ابن المقفع له خطره ولكن أقل شأنا من الدور الذى لعبته أسرة البرامكة فى هذا الصراع .

٢ — وقد طرد البرامكة الأصمعى من بلاط الخليفة وأحلوا محله أبو عبيدة . وأبو عبيدة مثقف جمع إلى الثقافة العربية : الثقافة اليهودية والمجوسية فقد كان أبوه يدين بالتوراة وجده يعتقد بالمجوسية وكان شعوبيا متعصباً ألف كتب المثالب والطعن على العرب منها كتاب المثالب فى قبيلة باهلة وآخر فى المثالب على وجه العموم ، يقول جولد سيهر أن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ووضع الأحاديث التى تظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجيها وشتائمها بقبيح الكلام ومقذع الهجا » .

وكتاب المثالب يذكر فيه أبو عبيدة أنساب العرب ويرميهم بما ليس من السياسة ذكره ولا يحسن وضعه وكان إذا رأى أمراً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال أن العرب خلدوا بها الفرس وقد بالغ حتى جعل كثيراً من أخلاق بنى عدنان وقحطان وحياتهم راجعة إلى بنى ساسان : يقول جولد زيهر وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل زهرة ناظرة فى أكليل الفخر العربى .

وقد انتشرت روايات أبو عبيدة فى كتب التاريخ وأصبح معتمداً لكثيرين من المؤرخين والمتفقهين فى اللغة فكان الطبرى يروى عنه أخبار القبائل العربية ونجد أمثلة كثيرة واضحة من اختراعه على العرب فى مثالبهم فى كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى .

٣ — وعلان أو غيلان كان شعوبيا عارفاً بأنساب العرب منعطفاً إلى البرامكة نسخ للرشيد والمأمون فى بيت الحكمة وألف كتاب المثالب الذى هتك به العرب وأظهر مثالبها : يقول الألوسى كان غيلان زنديقاً ثنويا فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجا عن الإسلام بدأ فيه بمثالب قريش ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان .

أما ابان بن عبد الحميد اللاحقى فقد كان موضع ثقة البرامكة ترجم لهم

كتاب مزدك ونظم لهم كليلة ودمنة شعراً فوهب له جعفر البرمكى مائة ألف درهم .

أما أبو نواس وأبو العتاهية فقد هاجما السنة وبثا المبادىء الهدامة ومهد لهم الطريق بشار بن برد وقد نجح البرامكة فى تهيئة المكان الأول لأبى نواس فى مجلس الرشيد وهو شاعر لبق حاذق يخلط الجد بالهزل ويبث مبادئه فى ثنايا هزله . كان يعد من كبار الثنوية زنديقا يهزأ بالدين ويراه قيداً من قيود وأن الآخرة والبعث خيال ويثير الشك فى العقيدة ويطلب الإبتعاد عن الدين كما هى وسيلة المانوية فى محاربة الأديان والذين لا يعرفونه يقولون : إن أبا نواس رجل شغل نفسه بالخمرة والغزل الخارج على المألوف ولكنهم لا يدرون أنه مدفوع بتعاليم البرامكة لنشر هذا الطراز من الشعر بين الناس فكان يعتمد على البرامكة والبرامكة يعتمدون عليه .

يقول المستشرق كريمر : ناشر ديوان أبى نواس : إن أبا نواس كان يهزأ بالعقيدة المحمدية علانيـــة دون وجل أو خجل وكان ينشر مبادىء الضلال والزندقة ولا يحجم عن الكلام عن كل ما يعتقد به وكان يؤثر فى الرشيد تأثيراً مطلقا فكلما غضب الرشيد على البرامكة كسر أبو نواس سورة غضبه فى بيتين من الشعر وكان كلما اتهم بالزندقة شفعوا له عند الرشيد ، ولما قتل البرامكة حبسه الأمين فى حبس الزنادقة .

أما أبو العتاهية : فقد لاحظ المستشرق فايدا : أثر الثنوية فى أرجوزته المشهورة وقد وجدت أيضاً فى ثنايا شعره ، وقد أخذ ناحية من تعاليم المانوية هى ناحية الزهد فى الحياة مع أن الزهد ليس من طبيعة أبى العتاهية، لم يتكلم إلا عن الموت ولم يذكر البعث .

ترى هذا الشاعر يتحدث عن الزهد فى الحياة والانضواء بين القبور وخفاء الطموح والإستكانة إلى الذلة والمسكنة والإستسلام لانقراض

البشرية التى كانت المانوية تدعو إليه ، كان هذا التنفيذ الذى قام به البرامكة وأتباعهم فى عنفوان الحضارة الجديدة والدين الجديد مثل القنبلة انفجرت فى البناء الشامخ فصدعت جوانبه وتفتحت منها الثغرات بما نشأ بعد ذلك من البـدع والضلالات التى كانت تتمثل تارة بأشخاص وتظهر تارة على يد جماعات فكانت الخرمية التى حاصل مبدئها رفع التكليف وتسليط الناس على إتباع الشهوات ، والقرامطة الذين عاثوا فى الأرض فساداً بتعاليمهم الباطنية وكانوا يستندون فى هذه التعاليم على تأويل القرآن تأويلا يتفق مع آرائهم وكانوا يرمون فى أعمالهم إلى إنتقال دين الإسلام إلى عقيدة المجوسية .

(٨)

الوحى والنبوة

تتردد هذه الأيام كتابات جديدة عن الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة العربية بأقلام كانت فى الفترة الماضية من دعاة الوجودية أو المادية أو الوضعية المنطقية ، وليس هذا مستغرباً فإن عدداً من كتاب العصر الحديث أمثال الدكتور هيكل والعقاد وزكى مبارك ومنصور فهمى واسماعيل مظهر قد غيروا جلدهم فى فترة الأربعينات واتخذوا مواقف جديدة مغايرة لمواقفهم فى الثلاثينات وقد جرى تحليل لهذا التحول وكشفت الأيام خلفياته وأهدافه وحقائقه ، بل أن هناك من تحول من الشعر الجاهلى إلى هامش السيرة .

فليس غريبا أن نجد عدداً من الذين عرفوا منذ مطالع حياتهم بالتبعية الفكر الغربى وقد تجددت أهدافهم أو أجروا محاولات جديدة إلى كسب جولات جديدة فى محيط القراء والفكر .

فليس غريباً أن تهتدى النفس البشرية إلى طريق وطريق ، وأن تجد أنها كانت قد غفلت عن نهج ، أو عجزت عن ارتياد أفق ، ثم أتيحت لها الفرصة لإرتياده ، أو جاءت مناسبة ما لزيارة بلد عربى أو إسلامى تحت أى ظرف ما ، ثم كان لهذا الجو النفسى والإجتماعى أثره الفكرى وقديماً غير زكى مبارك آراءه بزيارة الجزائر أو المغرب ، وغير محمود عزمى آراءه بزيارة فلسطين وغير هيكل باشا آراءه بزيارة دمشق ، وتحـــول دعاة المصرية والفرعونية والإقليمية إلى دعاة العروبة أو ما كانوا يسمونه (الأقطار الشرقية الشقيقة) فليس عجيباً إذن أن يزور زائر مكة المكرمة أو ينتدب جامعى فى بلد عربى له طابعه الإسلامى ثم يكون من وراء ذلك رؤية جديدة للتراث أو فكرة جديدة عن التوحيد .

ولكن الملاحظ دائماً أن العقل الذى تكون من خلال ثقافة الغرب أولا يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون قادراً على إستيعاب الفكر الإسلامى أو فهم الإسلام فهما صحيحا محرراً من آثار المفهوم الغربى للعقائد ، وقد وجهت النقدات إلى كتابات الدكتور هيكل فى حياة محمد وكتابات العقاد فى العبقريات وكتابات طه حسين عن هامش السيرة وعثمان وعلى ، حول منهج الكتابة ومنطلقها وقد اعتمدت كتاباتهم جميعاً على مناهج الغرب فى تحليل الشخصيات وفى مفهوم البطولة بما يختلف بل بمـا يتعارض مع مفهوم الإسلام .

وكذلك نجد هذا المنهج وقد أخذ طريقه إلى كتابات الأجيال الجديدة، حيث يوصف الرسول بأنه بطل ومصلح ورسول الحرية وداعية الثورة وإلى غير ذلك من صفات تختلف تماماً مع حقيقة الرسول النبى محمد بن عبد الله نبى الإسلام المؤيد بالوحى .

كذلك رأينا هؤلاء الكتاب الذين يقتحمون مجال الدراسات الإسلامية

وهم يلتمسون فى الفكر الاسلامى مفهوماً مختلفاً عن مفهوم المسلمين أنفسهم، حيث يقف بعضهم عند التفكير الصوفى أو تفكير المعتزلة أو فكر الباطنية ثم يتمثل للناس إنه إنما يعبر عن مفهوم الاسلام .

والواقع أن هناك قضية أساسية فى هذا المجال هى أن الفكر الاسلامى نما وتطور من خلال اقتحامه آفاق مختلفة منها الاعتزال والتصوف والفلسفة ولكنه انتهى إلى أن شكل نفسه تشكيلا واضحاً استقلالياً جامعا استقطب عصارة ما فى هذه المذاهب من قيم واستوعبها فى إطار مفهومه الأصيل القائم على التوحيد والايمان بالله .

فاذا جاء واحد من هؤلاء الباحثين فقصر نفسه على قطاع معين من هذا الفكر أو على مرحلة معينة من تطور هذا الفكر قبل اكتماله فى صورته النهائية بوصفه « السنة الجامعة » فإنه يخطىء خطأ كبيراً ، حينما يرى أنه على الطريق الصحيح ، والواقع أن الفكر الاسلامى قد صفى منذ وقت طويل خلافات الأحزاب السياسية التى تمثلت وراء هذه المذاهب الفكرية وامتص عصارتها وحررها من أطرها المرتبطة بعصر معين أو جيل معين واستصفاها فكراً إسلامياً خالصاً يستوعب قضايا المجتمعات والعصور دون أن يكون موضع احتواء الفلسفات اليونانية والفارسية أو الهندية التى وفدت مذاهبها إلى أفق التصوف والكلام والعقائد .

ومن هنا فان الداخلين الجدد فى مجال الفكر الاسلامى بدعوى الاعتزال والقول بأنه يمثل الفكر الاسلامى ضالون ومضللون ، فالاعتزال وفكره مرحلة سياسية وفكرية ، قد انقضت وانطوت وجاء بعد جزرها مد المفهوم الاسلامى كما كشف عنه الأشعرى ثم ابن تيمية وهكذا وليس الاسلام إذن دعوة عقلانية كما خيل لمجدد الفكر العربى ، كما أنه ليس مفهوماً باطنياً أو صوفيا كما خيل لمجدد تفسير القرآن ، وإنما الاسلام فكراً ربانياً

فى طابعه ، إنسانياً فى منطلقه يجمع بين العقل والقلب ويحرر نفسه بالتوحيد من كل سلطان غير سلطان الواحد الأحد ، ولقد ينخدع بعض القراء حينما يرون باحثاً اشتهر بالمادية أو بالوضعية قد أخذ يرد موارد الاسلام ولكنهم يجب أن يحذروا كل الحذر من أى فكر متلبس بالاسلام دون أن يكون على شروطه وأصوله . وبيننا وبينهم : النبوة والوحى .

ذلك أن الجولة الجديدة للاستشراق إنما تتميز بطابعها الصهيونى التلمودى وهو طابع يختلف عن الاستشراق الغربى ســـواء منه الكنسى الطابع أو الاستعمارى الاتجاه .

هذا الاستشراق يتكلم كثيراً عن التوحيد وعن دور الأديان ومهمتها وعن الدور الذى مضى وانقضى حين قام الإسلام برسالته فى مرحلة سابقة فأدى للبشرية خدمة كبرى — كأنما كان الإسلام مرحلة انقضت ، وكأنما ليس هو الرسالة الخالدة الباقية إلى يوم الدين .

وأبرز مظاهر هذا الطابع الحديث من الاستشراق : التشكيك فى الوحى والنبوة ومحاولة تصوير الأنبياء والرسل على أنهـــم أبطال ومصلحون استوعبوا فكر أمتهم ، واستطاعوا صياغة التراث القديم فى صور جديدة إلى غير هذا من دعوة مبطلة مضللة .

ولا ريب أن أصحاب مثل هذه الدعوى ممن يجب أن يوضع فكرهم فى دائرة التغريب والتبشير والغزو الثقافى ويعاملون معاملة المبشرين والمستشرقين .

وأخطر مايقول هؤلاء ، أن القرآن انطباع فى نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التى عاش فيها أو ان القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحياً آلهيا اعتماداً على القول بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه .

ولاريب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين

وبين القرآن ، فإنه إن كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الأسمى وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه .

ونحن نعرف أن هناك فرقا واضحا بين كلام محمد وكلام القرآن فى النسق والنظم ولقد كان محمداً — صلى الله عليه وسلم — أميا لا يقرأ ولا يكتب وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف مافى الكتب السابقة ، ولقد كان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره فمن الذى اطلعه على قصص الأولين .

ولا ريب أن الوحى ليس ظاهرة نفسية داخلية نبعت من كيانه ﷺ وإنما هى حقيقة مستقلة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحى » .

ولما كان الوحى هو حجر الرحى فى النبوة وفى الدين كله فقد ركز عليه دعاة التغريب وأثاروا حوله الشبهات . وزعموا أنه نوع من الالهام الخفى وزعم آخرون أنه كان إشراقا روحيا ووصفه آخرون بأنه نوع من الصراع .

ونحن المسلمون نؤمن بالوحى إيمانا كاملا كجزء من إيماننا بالغيب وبالنبوة ونرى أن معارضيه أو المشككين فيه ليسوا من جماعة المسلمين ، وأن زيفهم مهما وضع فى قوالب براقة فانه لا يخدع النفس المسلمة .

وقضية الوحى والنبوة هى كبرى الركائز فى بناء المجتمعات والحضارات والتماس منهج القرآن وشريعة الاسلام ، والتشكيك فيهما محاولة لقطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن الذى هو الأثر الوحيد الباقى على الأرض من رسالة السماء وهو الهدى الممتد بالضوء إلى النفس البشرية والأمم والمجتمعات إلى يوم الدين .

ولا ريب أن محاولة النظريات المادية المستحدثة فى معارضة الوحى والنبوة والغيب كله هى معارضة حققت أسباب فشلها فى واقـــع الامم والمجتمعات التى اعتنقت هذه النظريات .

فقد تأكد بالبحث أن العقل غير كاف وحده فى فهم كل شىء وأن العلم قد عجز عن أن يقـــدم إجابات عن الأشياء وإنما يقف عند حدود ظواهر الأشياء، وأن المجتمعات التى صنعت شرائعها وقوانينها وأيدلوجياتها قد فشلت وعجزت عن أن تحقق المجتمع الصحيح أو أن ترد للنفس الانسانية سكينتها وطمأنينتها ومن هنا كانت البشرية دوما فى حاجة إلى نبى وإلى وحى، هذا النبى وهذا الوحى لا يعارضان العقل بل يلتقيان معه فى طريق الفطرة الانسانية .

ومن ثم يؤكد العقل دليل الوحى ، فالنبى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد والآخرة والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التى لا تدرك بالعقل ، حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحى للبشرية .

ولقد ثبت زيف دعوى العلوم الاجتماعيـة والأخلاقية والنفسية فى دعوتها الباطلة بوصاية الأديان على الانسان بعد أن بلغت البشرية رشدها ذلك أن البشرية لم تبلغ رشدها بعد وهى تقف على أهبة الصراع الذرى وهوله يهزها من الأعماق ، فليس هناك سبيل إزاء التقدم المادى إلا الدين والوحى هاديا ومرشدا ومن الحق أن يقال أن البشرية على الرغم من هـذا الزمن الطويل الذى يقدر بملايين السنين ما زالت عاجزة على حد تعبير الأستاذ محمد المجذوب - عن حماية نفسها من المطامع والحروب والمذابح ولن يحميها من ذلك إلا الوحى والنبوة .

وجملة القول أن بيننا وبين الداخلين إلى ساحة الاسلام : الوحى والنبوة.

(٩)
المؤامرة اليهودية
للقضاء على أصالة الاسلام

أشار العقد الفريد إلى قول الشعبي لمالك بن معاوية حين قال :

« أحذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة فانهم يهـــود هذه الأمة يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، لم يدخلوا الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الاسلام وبغيا عليهم ، وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وكذلك قالت اليهود من قبل .

ويقول صاحب العقد الفريد : كان لليهود أثر غير قليل فى بعض المذاهب الاسلامية ولا ريب أن ملامح المؤامرة اليهودية واضحة فى تاريخ الاسلام وضوحا تاما .

• أبو لؤلؤة الفارسى ومقتل عمر بن الخطاب « المؤامرة اليهودية المجوسية » .

• عبد الله بن سبأ وفكرة الحق الالهى فى الدولة وأبطال الشورى .

• حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية :

• التأويل فى نصوص الكتاب والسنة والقول بالظواهر والبواطن .

• صناعة البدع والمحدثات وإشاعة الخرافات الغامضة .

• فلسفة الاشراق ومسائل الاتحاد والحلول .

والمعروف أن مختلف الفرق الباطنية والمضلة تقوم على التأويل : والتأويل [illegible] التفسير ويقصد به باطن المعنى أو رموزه وإشارته أو الجوهر الخفى وراء الكلمـ[illegible] [illegible] التى لا تدل عليه .

كما تقوم هذه الفرق على إسقاط التكليف وحط أعباء الشرع عن المتعبدين وتسليط الناس على إتباع اللذات وطلب الشهوات وقضاء الوطر فى غير المباحات وفى المحرمات .

إن هدف المؤامرة اليهودية منذ قديم هو هدم الاسلام من الباطن : هدمه فكريا وعقائديا ولذلك ، فقد أشاعت بين جماهير المسلمين مجموعة من الأفكار التى تنطوى على الخرافة والتخذيل النفسى وتقديم تفسيرات مضللة عن الاسلام وكانت من أكبر الأسباب التى حولت المسلمين عن تكوينهم النفسى ونظامهم الاجتماعى .

وقد جمعت هذه الأيدلوجية اليهودية بين طرفين بالفصل بينهما من حيث يجمع بينهما الاسلام : طرف عقلانى صرف يغلو فى مفهوم العقل والحس .

وطرف حدسى خالص يغلو فى مفهوم الروح والوجدان .

ولقد جرى بعض ذوى الأهواء من المسلمين وراء هذا المفهوم الزائف لأنه يرضى الرغبات المذلة ويحرر النفس من الضوابط والقيود ، ويحول دون إقامة الحدود - حدود الله التى لا يجوز يعتدي عليها .

وخلفوا وراءهم مفهوم الاسلام الجامع المتكامل :

وإذا نظرنا اليوم وجدنا الصورة تتكرر حيث يؤمن المسلمون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فهم إما عقلانيون أو حدسيون ، وهم قد يحققون فى حياتهم مفهوم العبادة ولكنهم يغضون - جهلا أو قصداً - عن مفهوم ارتباط الاسلام بالمجتمع وتطبيق الشريعة .

ونرى فى كثير من الكتابات المعاصرة ، هذا الطابع الباطنى المسرف [illegible] الاعتماد على كتب معينة سواء من كتب المعتزلة أو البا[illegible]

[illegible] [illegible]نية أو الصوفية

والفلاسفة ظناً منهم أن أى نوع من هذه الأنواع هو مفهوم الأسلام ؛ أو أنه يمكن أن يصبحوا به وقد وقعوا على مفهوم الاسلام الصحيح وعيب هؤلاء أنهم لا ينظرون نظرة كلية إلى حركة التطور التى صاحبت الفكر الاسلامى فى القرون الأربعة الأولى من حيث ارتباطه بالفرق والأحزاب السياسية ومن حيث طبيعة شكله بعد أن اتصل بالفلسفات المختلفة .

ولا ريب أن الاعتزال والكلام والتشيع والتصوف كلها مراحل فى فكر واحد وحلقات متصلة استعملت بنفسها ثم غلب عليها مفهوم الاسلام الجامع الذى تشكل جامعا لخير ما تناولته هذه الفرق والدعوات بعد أن صفاها من أسباب الصراع والخلاف السياسى والفردى واستوعب عصارتها فى أعماقه .

فالاسلام نظر عقلى وأشواق روحية وحب لأهل البيت ودعوة للحوار مع غير المسلمين ولكنه ليس عقلا خالصاً كما يظن من يقرؤون فكر المعتزلة ويظنون أنه هو الاسلام وحده ، أو من يرون أن الاسلام حين تجاوز الاعتزال فقد ميزته فى النمو والحركة ، كل هذا لا يصدر إلا من أصحاب النظرة الجزئية التى تسيطر على الفكر البشرى عامة والفكر الغربى فى العصر الحديث .

ويردد كثير من الباحثين الذين يتبعون مدارس الاستشراق والتغريب عبارة « هزيمة المعتزلة » ويريدون بها القول بأن هذه الهزيمة إنما كانت عاملا من عوامل التأخر والتخلف والقائلون على هذا النحو لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهما صحيحا وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربى .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة كانت نتيجة طبيعية القاصرة التى تختلف مع جوهر الاسلام ومع طبيعة الفكر الاسلامى ومنهج المعرفة الإسلامى هذا المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان .

لقد كان الاعتزال أساسا محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التى كانت تحتمى وراءها الأديان المعارضة للاسلام وقد أدى دوره فى هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام فى الأديان والفلسفات الأخرى فى قوة وأدال منهم وحقق كثيراً من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين فى الاسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو فى تأكيد موقفهم وفكرتهم ، حين أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغا خطيراً ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ويؤمنون بالوحى والعقل ويتكامل إيمانهم هذا ويتشكل فى وحدة واحدة ، فان إعلاء شأن العقل وحده كان خروجا على مفهوم الاسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للإنهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح ومن هنا جاءت التعديلات والتصحيحات التى قام بها الامام أحمد بن حنبل إذ كان لا بد أن يعود الاسلام إلى أصوله وأن يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من الانحراف .

وبذلك كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الاسلام وتعديلا لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعا إلى أن الاعتزال كان وليد الفكر اليونانى وتابعا له وإنهم كانوا يتمنون له نجاحا مضطرداً يخرج الاسلام من مقوماته كما أخرج المنطق اليونانى الأديان السابقة ولكن أصالة الإسلام كانت أكبر من هذه الفلسفة اليونانية .

ولذلك فان الدعوة التى تتردد اليوم حول [تجديد الفكر العربى] مستخدمة فكر المعتزلة هى دعوى باطلة لأنها لا تفهم الاسلام ، ودعوى زائفة لأن الاعتزال ليس هو الفكر الاسلامى ولكنه مرحلة من مراحل تطوره وتشكله انصهرت بعد ما فيه انصهاراً كاملا .

* * *

كذلك تجىء الدعوى الأخرى إلى تفسير القرآن تفسيراً باطنيا ، وهى

لا تعدو أن تكون حلقة من الدراسات الشعوبية الحديثة التي تستمد مصادرها من الفكر اليهودى ، القائم على الإسرائيليات والذى يتصل بالباطنية واخوان الصفا والسبأية والقرامطة .

ولا ريب أن محاولات تفسير الجزاء بأنه روحى والجنة والنار بأنه شعور نفسى والتى تحاول أن تبيح ما حرم الله من حدود اللباس ، والزى والزينة كل هذا زيف مردود وقديم من المجوسية التلمودية يتجدد على أيدى دعاة ربما لا يعرفون مدى خطر الكلمة التى يقولونها .

ويرجع هذا إلى أن قراءات أصحاب هذا الفكر تنصب على كتب التصوف الفلسفى ورسائل اخوان الصفا وكتابات ابن المقفع وابن الراوندى وغيرهم ممن ينكرهم الفكر الإسلامى تماماً ويشجب صلتهم به .

ويعود بنا هذا مرة أخرى إلى قانون المفاصلة القرآنى الذى تجرى محاولات كثيرة لتزييفه اليوم تحت أسماء [الثقافة العالمية ، التبادل الثقافى ، التقاء الثقافات ، وحدة الفكر البشرى] الخ .

إنما تريد كل هذه الدعوات دمج الأقل فى الكثير والضعيف فى القوى والفكر الإسلامى الآن وأمته فى موقف الحرج ، وفى أفواه الأزمة الكبرى ، وفى موقف التحدى إزاء الغزو الثقافى والسياسى والإجتماعى والعسكرى لا يستطيع أن يستعلن وجود ثقافته المتميزة ولا يستطيع أن يفرض طابعه .

ولذلك فهى فى موقف الاحتواء ، من الثقافات العالمية التى تتقارب الآن سواء أكانت رأسمالية أم ماركسية أم صهيونية ، بينما يقف الإسلام وحده ثابتاً شامخاً كالطود لا يمكن أن ينصهر أو يحتوى أو يغرق فى أتون هذه الثقافات لهو وحده الدين الخالص والفكر الربانى ذو الطابع الانسانى .

وتلك هى دعوة القرآن إلى المسلمين منذ أربعة عشر قرناً فى المفاصلة والمواجهة والوقوف على معالم واضحة ، وقول معروف فاصل ، دون أن ينطوى أو تقبل التبعية .

وذلك هو « الخطر » القائم أمام الغزو العالمى التلمودى الذى يستهدف السيطرة على العالم كله وإذلاله للإيدلوجية اليهودية التى رسمتها بروتوكولات صهيون .

وقد فاتت مرحلة استطاعت فيها الصهيونية أن تحتوى الفكر الغربى كله وأن تحركه من داخل دائرتها فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والنفس والأخلاق والتربية .

واليوم يواجه المسلمون المعركة : من خلال صلتهم بالفكر الغربى الذى وقع تحت الاحتواء التلمودى والذى يحمل الآن جذور المؤامرة اليهودية الكبرى .

إن قانون المفاصلة القرآنى يقول :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

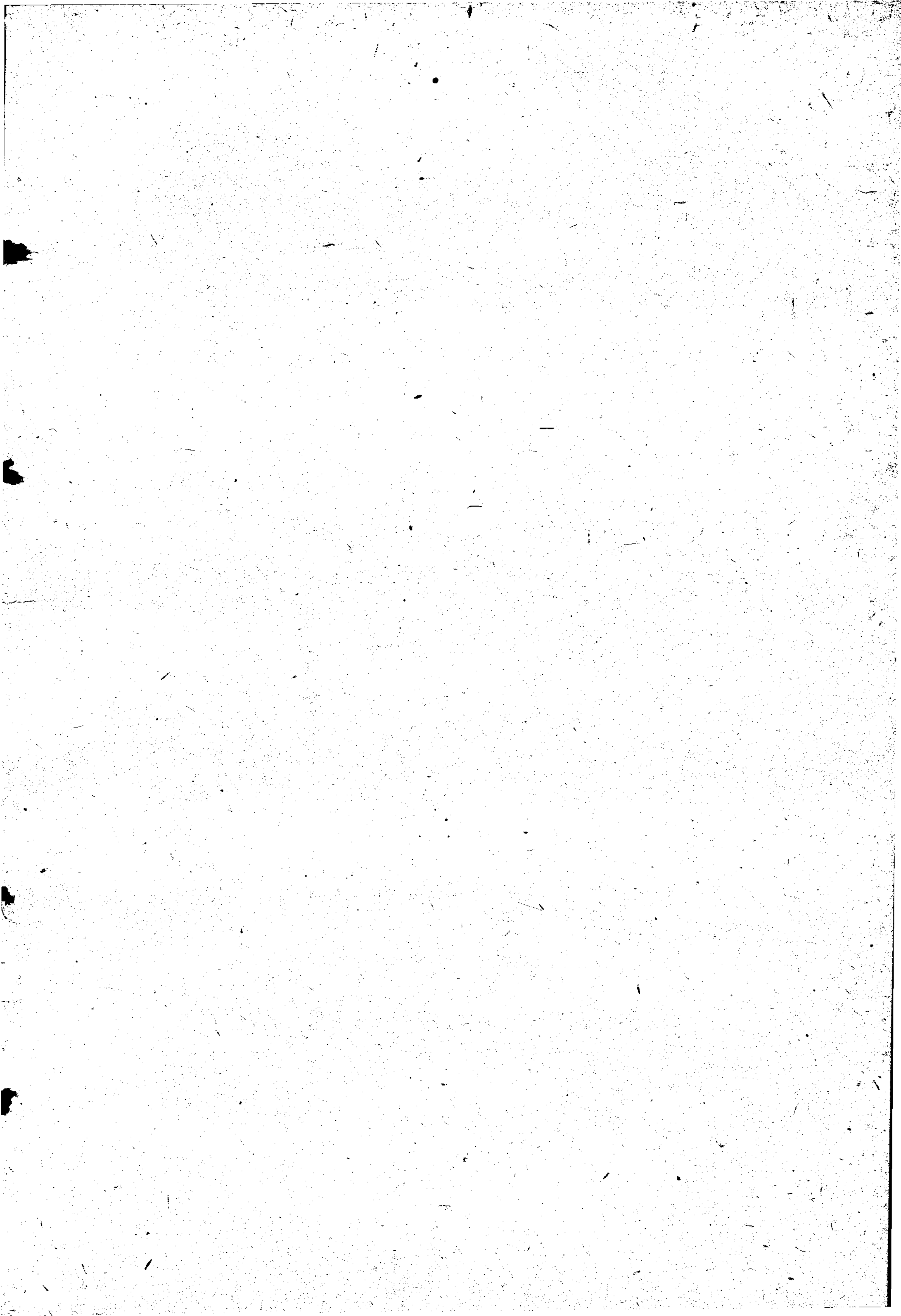
« انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم » .

« أن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

وصدق الله العظيم .

الباب السابع

الفرق الضالة



(١)

ظهرت فى العصر الحديث فرق كثيرة ضـــالة منها ما هو منفصل عن الإسلام يحاول السيطرة على فكره ومنها ما هو منتسب إلى الإسلام ويتسمى باسمه كالأحمدية والقاديانية .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على أرضية خلقها كتاب التغريب ودعاة الغزو الثقافى بالحديث عما أسموه (الفكر الحر) فى محاولة لفتح باب الحوار مع هذه الفرق الضالة والدعوات الهدامة . يقول محمد عبد الله عنان : يرى بعض الباحثين فى تاريخ الخلفاء والحركات الهدامة أن حركة التفكير الحر فى الإسلام ترجع فى الأصل إلى نشاط الدعوة اليهودية التى قصد بها الدعاة اليهود أن يثأروا لدينهم ولأنفسهم بهدم النصرانية والإسلام وأن حركة الهدم والإلحاد التى وثبت بادىء ذى بدأ فى فارس وكان قوامها ابن ديصان وولده عبد الله دبرها دعاة (الكابالا اليهودية) التعاليم العبرية السرية ثم تعهدوها بالنصح والمال » .

وفى هذا العصر نجد القاديانية والبهائية والروحية الحديثة وقد ألقت بثقلها فى المجتمع الإسلامى كله ووجدت من الفرص الذهبية ما مكن لهـا وحال وقتاً طويلا دون كشف زيفها حتى أن بعض كتاب العرب تابع المستشرقين وأعلن أن القاديانية والبهائية هما دعويان تجديديتان فى الإسلام وقد جاء ذلك نتيجة العجز عن دراسة الخلفيات التى دفعت هذه الدعوات وهى الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية ، فالواضح أن هـذه الطوائف الدخيلة تلقى المعونة والتوجيه من المستعمرين والمبشرين واليهود ، وهم يعدونها لما أسموه « ضرب الإسلام بالإسلام » هذه الطوائف تقدس زعمائها

وترفعهم فوق مرتبة البشر وتشرع لاتباعها من الدين مالم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام .

والمعروف أن النفوذ الاستعماري قد اعتمد كثيراً على القاديانية والبهائية في فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمدتا أساساً على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام وهو الجهاد دعماً لبقاء الاستعمار والتعاون معه وقبول سيطرته وحكمه وسلطانه .

وقد أتاح النفوذ الاستعماري للحركة البهائية حرية الحركة في العالم الإسلامي ، وفي مصر اهتمت صحف التبشير والاستعمار بالحركة وأولتها قدراً أكبر من العناية ، ومن العجب أنه عندما نضحت مخططات التبشير ٣٢ - ١٩٢٣ في مصر وخفت صوت التبشير ، لم يلبث صوت الحركة البهائية أن علا ونشطت إلى العمل وكانت لها مراكز في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والاسماعيلية والسويس ولها نشرات متنوعة وكتب يعلن عنها مؤلفوها ، إن بهاء الله مؤسس البهائية ، هو رسول الله الأعظم وسفيره الذي جاء بما يحقق أسمى رغبات الإنسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية ، وأن الإسلام كان لعصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهي دين العصر الجديد ، ولاريب للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين ، ولهم في الإباحية الأخلاقية منطلق عجيب إلى جمع السذج والأغرار ، إذ تهدف البهائية إلى إخراج المسلم من عقيدته الاسلامية ، وجعله يتشكك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه خاتم المرسلين وإن الاسلام هو خاتم الشرائع السماوية .

وتنكر البهائية الدعائم الأربعة الأساسية الاسلام : فهي تنكر عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم ، وتنكر عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنكر عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الاسلامية وحمايتها

من الذوبان ، وتنكر عقيدة الحج التى تعمل على تثبيت الوحدة ودعم الجماعة .

وقد ارتبطت البهائية باليهودية العالمية ، كما ارتبطت القاديانية بالاستعمار واستهدفت الأولى تمييع الفواصل الأساسية بين الاسلام وبين تفسيرات الأديان واستهدفت القاديانية إلغاء أعظم قوائم الاسلام وأكبر عقائده ، وهى الجهاد .

يبدأ هؤلاء وهؤلاء من الاسـلام ، ويتمسحون به فيحملون كلمات المهدى والنبوة والاصلاح والاستخلاف . وقد أسقط رؤساء البهائية فرائض الصلاة والصيام والحج والجهاد والحدود والقصاص وسائر ما جاء فى الكتاب والسنة من تعاليم .

والبهائيون لا يؤمنون باليوم الآخر أو الجنة والنار والجزاء ، وقد أخذوا بتفسير الباطنية لها : وقالوا : إن القيامة هى قيام الروح الالهية فى مظهر بشرى جديد ، وقالوا عن الجنة إنها فرح روحى ، وعن النار إنها حرمان من معرفة الله .

وهم يزيفون ما يسمونه دعوة التقريب بين الأديان ، أو بين الشرق والغرب ، وهم يستهدفون من هذه الوحدة إلغاء الاسلام وحده ، ويمجد البهائيون الصهيونية والاستعمار ، وقد كشف كثير من الباحثين ، ورؤساء الكنائس حقيقة البهائية وسيطرة النفوذ الأجنبى عليها ، قال رئيس كنيسة (دستي تمبل) إنها فى روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التى تسمعونها كل أسبوع ، ولقد تصافح الليلة الشرق والغرب .

وكان البهاء يزعم أن دين التوحيد الذى جاء به رسل الله وخاتمهم محمد قد أفسد الشرق والغرب ، وكان يؤمن بأن المسيح هو الله (تعالى الله عما

يقولون علواً كبيرا) والحق يشهد أن الدين الذى أرسل به عيسى يختلف عن التفسيرات التى عرفها الغرب ، وإن عيسى بن مريم رسول الله وعبده وأنه بشر .

وقد لخص الباحثون فساد هذه الفرقة الضالة فى محاولاتها الخطيرة إلى :

أولا : محاربة اللغة العربية ، وذلك بتبديل اللغة الفصحى بما يسمونه اللغة النوراء ، ومحاربة لغة الاسلام العالمية ، وهى لغة القرآن العربية واستنكار عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة : لغة الصلاة والعلوم الاسلامية لتمزيق الصلة بين حاضر المسلمين وتاريخهم وتراثهم .

ثانياً : ادعاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للاسلام والأديان جميعاً ودعوة إلى وحدة الأديان واتحاد العالم .

ثالثاً : الخروج من الأديان جميعاً والدخول فى دين جديد ، ومتابعة الماسونية فى ترك الأديان والاجتماع على دين واحد هو دين الحب ، وهم بذلك أضافوا اختلافاً جديداً .

رابعاً : دعوة السلام العام وهى دعوة إسرائيل التى ترمى إلى خدعه البشرية تحت اسم زوال الحروب ، وحلول السلام والاتحاد ، وقد كانت دعوة العالمية والسلام العام هى دعوة الصهيونية والماسونية والشيوعية .

خامساً : مساواة النساء بالرجال وإبطال شريعة الاسلام وأحكامها فى شأن المرأة ، والبهائية تدعو إلى الاختلاط الفاجر بين النساء والرجال طريقاً إلى الاباحية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجل كيفما شاء ومتى شاء وإعلانه فلسفة اللذة ومشاركة المرأة الرجل فى صالات الرقص والنوادى الليلية ، والحرية الجنسية المطلقة ومن نتائج هذا الهدف تدمير الأسرة وانحلالها وانتشار القلق الاجتماعى .

(٢)

وقد تبين من التحقيقات الرسمية التى أجريت للبهائية عام ١٩٧٢ قول أحدهم أنه لو أجبر على حمل السلاح فى مواجهة إسرائيل لأطلقه فى الفضاء وإن ذلك هو شعار البهائية ، وادعى زعيم البهائية أن بهاء الله هو المسيح ، وأن الباب هو المهدى المنتظر ، وأن القرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً لا يعلمه إلا الله . وقال إن البهائية يزيدون على ٦٠ مليوناً فى العالم ، وقال إنه بظهور البهاء انتهى التشريع الاسلامى وانتهت أمة المسلمين وإن رسالة البهاء ستستمر ألف عام ، وزعم أن العذراء مريم تزوجت بعد مولد المسيح من يوسف النجار وأنجبت .

ولا ريب أن هذه المفاهيم تكشف عن روح اليهودية العالمية والتلمودية الواضح الصريح فى ثنايا هذه العقيدة .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفى مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدى الذى قال : أن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم ، هو مما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم ، فأين هى من الاسلام الذى بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون منهم برنارد شو أن مبادىء الاسلام توشك أن تعم العالم أجمع على أصلين ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين ، أحدهما عتيق غامض قام به أفراد من محبى المسيح فى الخيالات فهى تصور ذات الله بصور المخلوقين وثانيهما : وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها ، وفيه مجال فسيح

للظنون والأوهام والحظ ، وتدعى البهائية أنها أتت العالم بجديد فى الأصول ولم يدر فى خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الاسلام وأسسه على أقوى الأصول وحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضا ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم ، ان البشرية ليست فى حاجة إلى دين جديد بعد الاسلام فانه استكمل جميع شرائط الدين العام » .

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن أو يزيد فما نرى أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها فى إتحاد المشرق والمغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب وكل ماكشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحة والإلحاد التى حملت كل سخائم الباطنية القديمة وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وقد كشفت البهائية عن صلتها الجذرية باليهودية العالمية عند ما عقد فى إسرائيل المؤتمر العالمى للبهائية وتبين انها استخدمت البهائية منذ وقت طويل منذ ما كان يقيم عباس البهاء فى حيفا .

أما القاديانية التى تحولت من بعد إلى فرقتين إحداهما الأحمدية فانها كانت فى أساسها نتاجاً استعمارياً استهدف ضرب مفهوم الإسلام الصحيح وتنحية مفهوم الجهاد وخلق جماعات تحت اسم الإسلام تتقبل النفـوذ الاستعمارى وتعاونه وتخضع له .

فالقاديانية مؤامرة حقيقية على الإسلام ترمى إلى إضعاف القيم الإسلامية وتمجيد القيم الدخيلة للفكر الأجنبى ، أما إضعاف القيم الإسلامية فان ذلك

يجرى عن طريق شرح بعض تعاليم الإسلام بما يضعف الإسلام فى نفس المسلم ، أو خلق فكر آخر على أساس تفسير خاص لا أصل من أصول الاسلام سيصبح فيما بعد مذهباً من المذاهب الاسلامية ، على حد تعبير الدكتور محمد البهى يقول : يتمثل ذلك فى خلق مذهب الأحمدية فى أواخر القرن ١٩ بفعل مؤسسة ميرزا غلام أحمد القادياني بعد أن تهيأ الجو الفكرى والثقافى والروحى لنشأة مثل هذا المذهب عن طريق السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكره وصاحب التفسير القرآنى المشهور والداعى للولاء والتعاون مع السيادة الانجليزية فى الهند طوال القرن ١٩

هذا المذهب يشرح فكرة الجهاد فى الاسلام على أنها كانت فكرة مؤقتة حتى يستقر الاسلام نفسه كدين وحتى يستقر أمر الجماعة الاسلامية، لذلك فانه لا يجب تنفيذه بالسيف أو بالقوة وإنما يجب سلوك الطرق السليمة فى الدعوة إلى الاسلام ويتحقق بهذا هدف الولاء للحكومة الانجليزية وبهذا التفسير يبطل العمل بمبـــدأ الجهاد على نحو ما عرف فى صدر الاسلام، والمعروف أن مبدأ الجهاد فى الاسلام قصد به عدم انهيار الجماعة الاسلامية وإنصهارها فى جماعة أخرى .

ولا ريب إن هذه الدعوات تسعى إلى إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد وتغيير مفهومهم الأصيل والجامع للتوحيد والجهاد والعدل .

وقد انتقلت دعوة القاديانية من نبى فى القاديانية إلى مصلح فى الأحمدية يحاول أن يستعيد لها بعض الثقة فى النفوس التى رفضتها .

ولا ريب أن هذه الدعوة وغيرها يستهدف طمس منابع الاسلام والحيلولة دون وحدة المسلمين والعمل على إعلاء العنصرية التى تقوم على الأجناس على وحدة الفكر التى جاء بها القرآن .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على سلاح [التأويل] الذى هو منهج اليهود القائم على مبدأ أذبح الناس بيد بعضهم ، وقد أولت القاديانية والأحمدية آيات الجهاد تأويلا أبعدها عن مقاصدها ، وقال القادياني صراحة : لقد أسقط الله عنكم فريضة الجهاد وهو ما وصف بأنه «ضرب ركن الجهاد بسيف التأويل» وفى هذا متابعة لإخوان الصفا الذين قالوا : أن التأويل للحكماء والتنزيل للدهماء .

وتخالف الأحمدية الإسلام فى ثلاث نقاط : طبيعة المسيح ، دعوة المهدى ، فريضة الجهاد ، وتقول الأحمدية أن المسيح لم يصلب ولكنه مات فى الظاهر فقط وخرج وهاجر إلى الهند وتقول الأحمدية أن وظيفة المهدى هو الدعوة إلى السلام وأن الجهاد يجب ألا يقوم على امتشاق الحسام بل يجب أن يقوم على وسائل سلبية وهم يظهرون فى كل الظروف ولائهم الخالص للحكومة البريطانية ويعتقدون أن المهدى يتجسد فى المسيح والنبى فى وقت واحد .

يقول الشيخ عبد الرشيد إبراهيم : أما ماترجمه رجال من القاديانية فلا تحسن الظن بهم لأنهم جماعات من محدثات سياسة الإنجليز لتشتيت جميع المسلمين ونعلم قطعاً احتياج الانكليز إلى زعماء من المسلمين لاضطهاد الإسلام فظهر بسبب ذلك البابية والبهائية والقادنية » .

ولقد حققت دعوة القاديانية نتائج خطيرة منها إثارة الجدل بين العلماء وشغل المسلمين فضلا عما أثارت من شبهات عن تقديس قاديان كمكة لوجوب الحج إليها وتحويل المسلمين من مكة وإثارة العنصرية بشأن رسول عربى ونبى هندى واعتبروا هذا انتصاراً وطنياً . ووقف نهرو يؤيد القاديانية ورد عليه الدكتور إقبال رداً عنيفاً ودعا الموردى إلى أن تعتبر القاديانية طائفة غير إسلامية كالبهائيين وقد أعلن عن تنفيذ ذلك فى السنوات الأخيرة .

(٣)

يقول الأستاذ محمد تقي الدين : أن الهدف من القاديانية هو إعادة عهد الوثنية الأولى لتعيد ذكرى رهما وبودا ولكن بصورة أخرى يقطعون بها على صغار العقول طريق الفطرة الإسلامية .

أولئك القوم هم جماعة القاديانية الهنود الذين أخذوا اسم الإسلام وأطلقوه على عقائد مختلفة . ساقهم ميراث الوثنية الرجوع إلى العقيدة الأولى التي كانت تنفس عنهم هذه الآلام ، فدعوا إلى المنقذ وأخذوا يفكرون أيكون وريث براهما في الإلهية أم وريث بوذا في النبوة ولم يكن يمكن نجاح دعوتهم إذا نجحت إلى الميراث البرهمي في دعوى الألوهية لأن عقلية مسلمي الهند استنارت بنور الإسلام وترفعت عن هذا الإسفاف ، فحاولوا أن يتخذوا منزلة هذا المنقذ منزلة النبوة ولكن بصورة أخرى تكون قريبة من إدراك الجاهلية فاتخذوا من غلام قاديان نبياً يبعثون فيه عقيدة المنقذ ورأوا أنه لابد له من مبادىء ينشرها ويدعى أنه أوحى إليه بها فلم يجدوا مبدأ أصلح ولا شريعة أسمح من شريعة الإسلام فرأوا اتخاذها شريعة لهذا النبي الكذاب وعبثوا ببعض مسائلها ونظروا في بعض عقائدها فخالفوا ما فيه من الخلاف ظاهراً واتخذوا من تحريف أقوال الشريعة أدلة على صدق نبوة غلام قاديان .

وقد كشف غلام أحمد القادياني هويته وانتمائه فقال : لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها فقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الانجليز من الكتب والإعلانات والنشرات مالو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا وكان هدفي دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين للانجليز ، لقد ظللت منذ حداثة سني وقد ناهزت اليوم على الستين أجاهد

بلسانى وقلبى لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها والعطف عليها وإلغاء فكرة الجهاد التى يدين بها بعض جهالهم والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة .

وكان من نتيجة ذلك أن أقلعت ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التى كانت من وحى العلماء الجامدين وهذه مأثرة أتباهى بها يعجز المسلمون فى الهند أن يتنافسونى فيها » (ص ١٠ من الطبعة السادسة من ملحق كتابه شهادة القرآن) .

وتكشف الوثائق والدراسات عن الصلة الواضحة والجذرية بين القاديانية والبهائية ، فالقاديانية فى الهند والبهائية فى فارس ألغت الجهاد إلغاء كاملا فى وقت كان فيه المسلمون فى أشد الحاجة إلى طرد الغاصبين ، يقول مؤسس البهائية ، أن البشارة الأولى لجميع أهل العالم محو حكم الجهاد من الكتاب (أى القرآن) (نبذة من إشراقات بهاء الله ص ١٠٩) .

وأشار مؤلف كتاب حقيقة البهائية والبابيـة أن البهائية حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا غلام أحمد القاديانى من لاهور من بلاد الهند وهو تلميذ للبوشتى الداعية الباطنى المشبوه بعد استعمار روسيا القيصرية لمملكة القوقاز بحضر روسى ليزود الباب بالأسلحة والخـبرة العسكرية كما يدعى الأرمنى الرومى (متوجهدخان) الإسلام ليخدم الشاه ويحمى الباب فى قصره من بطش المسلمين ثم يحاول إدخال الشاه فى البابية .

وقد دخل يهود إيران فى حركة البابية بشكل جماعى فى أربع مدن وفى مدة قصيرة دخل منهم ٣٨٥ يهودياً ومن الماسونيين جولدزيهر المستشرق روج لهذه الحركة ومن المبشرين فى الغرب اهتم بها لورد كرزون ، استلين كاربنتر، براون ، فامبرى ، الكونت جونيبو ، البروفسور جيمس وارمستر، اقولاس ، الليدى شول ، الدكتور جيل » .

هذه الطائفة انقسمت بعد ذلك إلى فرقتين فرقة قالت بنبوة غلام وفرقة قالت بولايته : قاديانية وأحمدية وللفرقتين مآرب سياسية خطيرة وليست من فرق المسلمين وإن صامت وصلت .

وقد أعلن غلام أحمد القادياني صراحة مخالفته للاسلام (٣٠ يوليو ١٩٣١ جريدة الفضل) قال : إننا نخالف المسلمين فى كل شىء فى الله وفى الرسول وفى القرآن وفى الصلاة وفى الصوم وفى الحج وفى الزكاة وبيننا وبينهم خلاف جوهرى فى كل ذلك » .

وهكذا نجد أن المؤامرة تتجدد فى العصر الحديث ليس بانبعاث الفكر الوثنى والمجوسى والباطنى وحده فى مجال التراث والتاريخ والأدب ، ولكنها تتجدد أيضاً فى صـــورة دعوات وحركات تحمل لواء هذا الفكر وتعيد صياغته لتحدث فى مجتمعنا ماأحدثته الدعوات الهدامة فى القرن الرابع والخامس الهجرى فإن التجربة تتكرر مرة أخرى ولكنها اليوم أشد عنفاً فإن إرادة المسلمين الآن ليست مطلقة فى دفع أعاصير التغريب والغزو الثقافى والشعوبية التى تؤيدها وتؤازرها قوى الاستعمار والصهيونيـة والشيوعيـة وتحاول أن تفرضها فى مجال التعليم والثقافة .

ولقد حاول الاستشراق أن يخدع المسلمين بهـذه الدعوات ومحاولة وصفها بأنها دعوات تجديد فى الإسلام كما قال لورنس براون فى كتابه طوالع الإسلام الذى لخصه وقدمه عباس العقاد فى مجلة الرسالة ١٩٤٥ وتحدث فيه عن البهائية والقاديانية بوصفها دعوات إصلاح وتجديد ولو درى لعرف أن القاديانية كانت البديل المحرف عن دعوة الجهاد الإسلامية التى اهتز لها الاستعمار وقضى على دعاتها فهى رد فعل لموقف زعماء المسلمين فى الهند من الاستعمار الانجليزى حينما انهزم البطل الشهيد تيبو سلطان فى فى معركة ميسور فى جنوب الهند ١٧٩٩ وأصبح للانجليز نفوذاً قائماً وفقد

المسلمون امبراطورية ظلت أكثر من ستة قرون . ومن الناحية الاقتصادية كان المسلمون هم الغالبين عليها وأصحاب المهارة فى الصناعة والزراعة ، فأغلق الانجليز المدارس وقطعوا أيدى الصناع وحرموا عليهم الوظائف الرسمية وشغل الهندوكيون الموالون للانجليز وظائفهم ، لذلك فكر صفوة من العلماء وعلى رأسهم عبد العزيز الدهلوى ابن الشاه ولى الله صاحب حجة الله البالغة فأفتى عبد العزيز بأن الهند أصبحت دار الحرب فوجب على المسلمين أن يحاربوا الاستعمار فقام الفقهاء والعلماء والمحدثون والمتصوفون يجاهدون فى سبيل إجلاء الانجليز وكونوا جيشاً كبيراً قادة الشهيد إسماعيل ووقعت حرب دامية بين الاستعمار وخلفائه وفتحوا مدناً كثيرة ورفعوا فيها راية الاسلام وحدث ١٨٣١ بمقاطعة باراكوب فى بنجاب أن انهزم المسلمون على أيدى الخونة من المسلمين أنفسهم ، وقبض الاستعمار على العلماء الذين اشتركوا فى الجهاد وألقاهم فى السجن وألغيت جميع المدارس وأندية الثقافة ليتفشى فيهم الجهل والفقر وسوء الخلق . وهب تلاميذ الشاه عبد العزيز مرة أخرى لمقاومة الاستعمار وجاءت ثورة ١٨٥٧ التى هزت الاستعمار والتى لم تنجح وأوقع الاستعمار العلماء فى محنة شديدة فقتل الكثيرون ونفى الكثيرون إلى جزيرة أندومان والبحر الأسود وأنشأ الاستعمار من ١٨٥٨ إلى ١٨٨٧. خمس جامعات فى مدن الهند الكبرى (كلكتا - بمباى - مدارس ، لاهور - إله أباد) وبدأت تدرس المواد الحديثة باللغة الابجدية وكان تلاميذ هذه هذه الجامعات هم الهندوس وأراد الاستعمار بهذه الجامعات القضاء على المدارس الدينية والنشاط الاسلامى فى الهند فامتنع المسلمون عن دخـــول تلك الجامعات . ثم بدأ المسلمون ينشئون مدرسة دار العلوم بديوبند للمحافظة على تراث المسلمين وتخريج الدعاة لكى يقودوا المسلمين ضد الاستعمار فظهر محمد قاسم النانتوى ورشيد أحمد الكنكوهى وحاجى إمداد الله وتخرج على أيديهم صفوة من العلماء .

ولما رأى الهايدون والمسالمون أن المسلمين لم يدخلوا هذه الجامعات ويدخلها الهندوس وحدهم ، أنشأ أحمد خان (كلية محمدية) ١٨٧٧ لكى يدرس فيها المسلمون وقد تعلم فيها محمد على ومحمد إقبال والزعماء المسلمين الكبار الذين قادوا الأمة الإسلامية فى الهند فى منتصف القرن العشرين .

ويفرق بعض الباحثين بين دعوة أحمد خان وبين دعوة غلام أحمد القاديانى ، ويرى البعض الآخر أن دعوة أحمد خان هى مقدمة للقاديانية ، ويرى الأولون أن أحمد خان شأنه فى الهند شأن محمد عبده فى مصر ، أراد أن لا تفوت المسلمين الفرصة وأن يأخذوا طريقاً وسطاً حتى لا يحرمون من التعليم الحديث وذلك بمسالمة الاستعمار .

(٤)

ولم يلبث الإنجليز أن عمدوا إلى إبراز « القاديانية » لتحريف مفهوم الإسلام الأصيل ، وظاهرت حكومة الهند هذه النحلة ونقلت دعاتها إلى بريطانيا وأوجدت جريدة باسمهم (إسلاميك رفيو) تنشر عقائدهم ودعايتهم وتبنى دعوتهم جماعة من الإنجليز وابتنوا جامعاً فى حى ووكنج بلندن وقد عرفوا بجماعة الأحمدية ، وقد ترجموا القرآن إلى اللغتين الانجليزية والاردية .

وجرت محاولات للتفرقة بين الأحمدية والقاديانية : فقال عبد الحميد السيد : أن غلام أحمد زعم أنه مخلص ومجدد فى أول أمره ، ثم ترقى به الحال إلى أن ادعى أنه المسيح المولود والمهدى المعهود لهذه الأمة ، ثم تجرأ فأعلن أنه نبى ورسول من الله لكافة البشر ، وفى كل دور ألف كتباً تناسب ادعاءه فيه ، وفى الدور الأخير من حياته بنحو سبع سنوات ألف وكتب مدعيا النبوة والرسالة بنصوص قطعية .

أما أحمديو لاهور فهم ينكرون نبـــوته التى مات وهو يدعو إليها ويقصرون دعوتهم على أنه المسيح الموعود والمهدى المسعود والمصلح المجدد والهدف هو محاولة إضلال المسلمين فى شأن هذا الرجل ، فيحسن ظنهم به توطئة لأتباعه والدخول فى زمرة شياطينه ، وبعد أن هلك غلام أحمد ١٩٠٨ اجتمع حواريوه لانتخاب خليفة له ، فاختاروا حكيم نور الدين نحو ست سنوات ، ثم خوجه كمال الدين ومحمد على اللاهورى ، وقد خرج محمد على اللاهورى من قاديان مغلوباً على أمره فتوجه إلى لاهور ، وهناك ألف هو ومن معه جماعة عرفت بالأحمدية اللاهورية .

ورأت هذه الجماعة أن دعوى النبوة والرسالة بعد خاتم الرسل مما لا يستسيغه منطق المسلمين ، ولا ينخدع به مسلم أبدا ، فاتفقوا بعد زمن يسير على أن يقولوا أنه لم يدع النبوة ، مع أن كتبه التى يدعى فيها النبوة مطبوعة وادعاء النبوة صريح ، وهى مـــلوءة بشتم الأنبياء والصحابة وآل البيت وسلف المسلمين ، وأعادوا طبع كتبه التى ألفها فى الدور الأول وليس فيها ادعاء للنبوة ، بل فيها إنكار لها ، وتركوا الكتب التى ألفها أخيراً وقبل مماته .

وقد قاوم مسلمو الهند هذه الدعوة القديانية والأحمدية مقاومة شديدة وحاصروا غلام وأتباعه فى بلدتهم الصغيرة قاديان ، وبعد هلاك هذا الكاذب أشكل على أتباعه وأسقط فى أيديهم ، ولما رأى القاديانيون ذلك لجأوا إلى ظل الحكومة البريطانية ، وتعهدوا بالدعاية لها والدفاع عنها ، وانتهزت الحكومة الفرصة لتفريق كلمة المسلمين عن طريق تشجيعهم ، فمهدت الطرق للتبشير بالقاديانية على أساليب المبشرين فى الدعـــوة إلى الكنيسة . وساعدتهم على الدعوة لإلغاء الجهاد الإسلامى والادعاء بأن الإسلام لم يعد دين جهاد بل صار الآن دين السلام أى دين الاستسلام للمستعمرين .

وكان محمد على اللاهورى زعيم الفرقة الأحمدية من كبار أصحاب غلام أحمد القاديانى ، وكان من أبرزهم فى الخطابة وأبرعهم فى الكتابة ، فهو الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية وفسره وحرفه وغير معانيه فى مواضع شتى وفق تفسير متبوعه القاديانى ، ومنه ادعاءه بنزول الوحى على غير الأنبياء عليهم السلام ، ويؤمن الأحمدية اللاهوريون بأن المسيح الموعود والمهدى المعهود المرزا غلام أحمد القاديانى هو منجى العالم والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وغلام أحمد معا .

وقد وجد الباحثون والمؤرخون وجوه لقاء واسعة ومتعددة بين البهائية والقاديانية ، فقد ظهرت الدعويان فى قرن واحد ، أما البهائى فقد عرف نفسه بأنه الممثل الحقيق للأنبياء السابقين ، وأنه تجتمع فيه كل الرسالات الإلهية ، وتلتقى فيه الديانات جميعاً وهو لا يعتبر الرسالة المحمدية آخر الرسالات ويعتقد بالحلول ، ويقول إن اليوم الآخر والجنة والنار ليست إلا رموزاً للحياة الروحية .

وقد تبين أن البهائية هى ربيبة الصهيونية ، وهى التى احتضنتها وأقامت مراكز لها فى جبل الكرمل فى حيفا فى فلسطين ، وفى إسرائيل (٥ أغسطس ١٩٦٨) عقد المؤتمر البهائى العالمى ، حضره ٢٢٥ شخص أختيروا من ٨١ جمعية وطنية تابعة للعقيدة البهائية فى القارات الخمس ، وأعلن المؤتمرون أنهم يدعون إلى وحدة الجنس البشرى وإلى السلام العالمى .

ويلتقى ما تروج له البهائية مع ما تروج له المنظمات الماسونية ، فهم جميعاً يستهدفون تقويض « الدين من فى نفوس الناس ، ومحو أثاره فى المجتمع البشرى كله » .

وتعلن البهائية ما تعلنه الماسونية من الحديث عن سحق العدو الأزلى

« الدين » مع إزالة رجاله ، وعدم التردد فى شن الحرب على كافة الأديان لأنها فى دعواهم العدو الحقيقى للبشرية ، ولأنها سبب التطاحن بين الأفراد والأمم عبر التاريخ ، ويزيد البهائيون على الماسون فى أنهم أنشأوا ديناً جديداً يبشرون به وهو مزيج عجيب من العقائد السماوية والفكر البشرى كحل وسط للصراع بين أهل الأديان ، ففى البهائية آيات من القرآن ونصوص من التوراة ، وفقرات من الإنجيل ، واقتباسات من البوذية والكنفوشيوسية .

وقد تبين أن اليهودية العالمية وراء هذه الدعوى الزائفة .

(٥)
الروحية الحديثة

ومن الدعوات الجديدة التى جددت الفكر الباطنى والوثنى القديم دعوة الروحية الحديثة التى تتمثل فى ذلك التيار الذى يغمر عالم الإسلام بالجمعيات الروحية ، وما يتبع ذلك من مؤلفات وكتابات تحاول إقرار هذا المعنى فى النفوس .

ولقد بدأت دراسات الروحية فى الغرب على يد جماعات ظنت أنها تستطيع أن تعارض المذهب المادى وتكشف مفاسده ، ولكن قوى الصهيونية العالمية استطاعت أن تسيطر على هذه الجماعات وتوجهها وجهة أخرى ، أرادت بها هدم المجتمعات وتصويرها على أنها دين جديد ينشر الفوضى والتشكيك فى كل المقررات الدينية والخلقية ، وبذلك تصبح شعبة من الدعوات المريبة التى تأخذ الناس من كل جانب والتى تلبس مختلف الأثواب وتخفى حقيقتها تحت شتى الأسماء ، وأبرز ما يكشف فساد مذهب الروحية الحديثة إنها تقيم تعاليمها على مفاهيم وحدة الوجود وتناسخ الأرواح وخلود الحياة فلا فناء للدنيا ، وإنه ليس هناك يوم للبعث

والحساب العام والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك إنكار حق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم وإنكار نهاية الخليقة وهي بذلك شبيهة بالبهائية الحديثة والدهرية القديمة ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإنكار الجزاء هي نفس مبادىء الماسونية مصوغة في أسلوب جديد ، وتقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان وخاصة الإسلام ، وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية ، ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة كمدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها ، ويركزون على السخرية منهم واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه فضلا عن إنكار علماء الدين لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي وهم في نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ويعلون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولمحافلهم — وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية مثل روح (رع آمون رع) و (هيمبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

كذلك فإن الروحية الحديثة تركز على هدم الأخلاق ونفي الاختيار والقول بالجبر ، وهم في دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذته الدراسات النفسية في تبرير الجريمة والاعتذار عن المجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية .

ومن أخطر دعواتهم وأكذبها قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وإن الناس على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطباعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفس حياتهم على الأرض ، وإن فرص التكفير عن الذنوب لا ينقطع بموتهم وهم بذلك يهدمون أكبر رادع

للناس عن الظلم والفساد وهم يدعون أن القيامة هى قيامة آدم الجديد الذى يقوم على وجه الأرض فى عالم لا يحكمه إلا السلام وتسوده الروحية .

وهكذا نجد الروحية الحديثة صورة أخرى من الماسونية والبهائية والقاديانية فهى تقوم على رموز وأسرار ولها درجات ولم تنشأ للنصاية . ولكن أنشئت لأهداف خاصة . ويقول علماء الروحية أن الإنسان خالد على الأرض وإن الوحى لم ينقطع بوفاة محمد وإن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء وإن العالم يتهيأ الآن للقرآن الجديد الذى تأتى به الأرواح لتنقذ العالم من حماة الصراع والشرور .

وهم يمهدون لنبى جديد يطلقون عليه اسم (سلفر برش) وهو الأسماء اليهودية ولا ريب أن الدعوة إلى أن الروحية وحدها هى قوام الفكر والحياة ليست إلا دعوة مماثلة للمادية التى ترى أنها وحدها قوام الفكر والحياة والروحية بذلك إنما تمثل معارضة للإسلام دين الحق الجامع المتكامل بين الروح والمادة ، وهكذا نجد أن اليهودية العالمية تسيطر اليوم على الدعوتين المادية والروحية وكلاهما دعوة باطلة ويبقى الإسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله وبجميع ما تنشده الروحية من مقاومة الإلحاد والمادية .

ومن أكبر أخطاء الروحية الحديثة قولها أن العلم الروحى قد أصبح علماً تجريبياً لا لبس فيه ولا غموض وإن التواصل بين الأحياء والموتى لا شك فيه ، ولا ريب أن الروح بعد الموت تدخل فى عالم آخر ومن الزيف أن يقال إنها مما يمكن الاتصال به أو الحديث إليه .

وتلتقى الروحية الحديثة مع البهائية فى دعواها بالنبوة الجديدة والآفاق الجديدة ولا ريب أن اليهودية العالمية تمهد بذلك لمخططها الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون وتتخذ من هذه الدعوات منافذ وثغرات إلى هذا المخطط .

ويشير الأستاذ عبده الراجحى فى كتابه الشخصية الإسرائيلية إلى هذا المعنى فيقول إن الجمعيات الروحية ذات صلة بالتخطيط اليهودى أكثر من صلتها بتحضير الأرواح وإن هذه الجماعات المنتشرة فى مصر وغيرها إنما تغوص فى أعماقها التلمودية الخطيرة وإن هذه الجمعيات لم تنشأ للتسلية ولكنها أنشئت لأهداف خاصة ولها نشراتها وكتبها ومجالاتها .

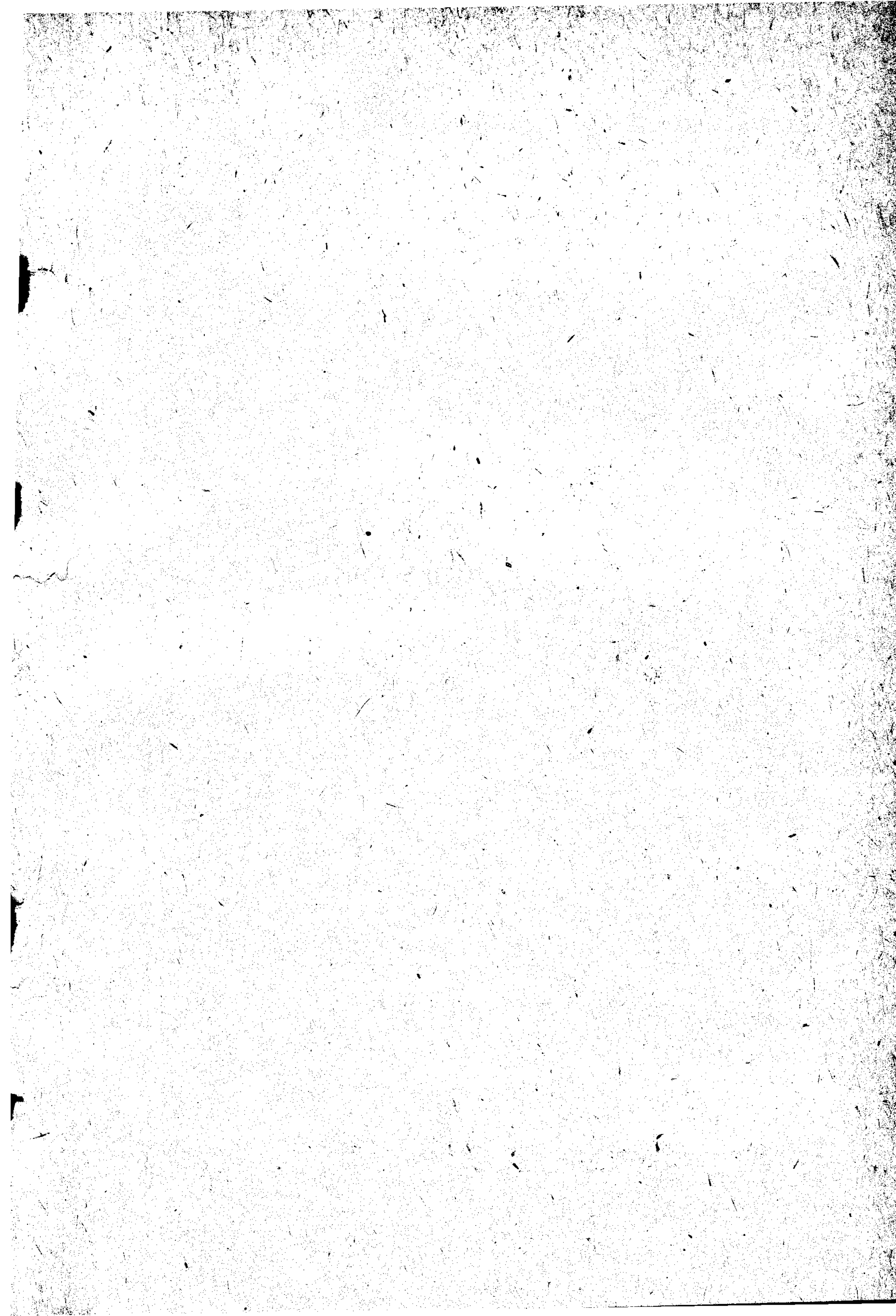
ويقول : إن الروحية الحديثة مخطط إسرائيلى واضح الهدف والأسلوب والهدف مثل الماسونية تماماً ، وهى انتزاع الشخص من دينه ومن قوميته وصبه فى قالب جديد من العالمية أو الكونية ، وهى تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين فى هدم الدين ، ويقول علماء الروحية : إن الإنسان خالد على الأرض ، وإن الوحى لم ينقطع بوفاة محمد وإن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء ، وإن العالم ينتظر اليوم القرآن الجديد الذى تأتى به الأرواح وللروحيين الآن قائد هو شخص هندى ذو ضفائر تجد له رسوماً فى قاعاتهم ، واسمه سلفر بيرش ، وهو عندهم آدم الجديد الذى سيكون خليفة الله فى الأرض ، وهم يقولون الآيات القرآنيـــة تأويلا عجيباً توصلا إلى منهجهم ، وهم ينكرون القيامة على ما يفهمها الفقهاء لأنهم يعتقدون أن الأرض خالدة ، وإن الإنسان خالد فيها ، وتتفق هذه المفاهيم مع التلمودية التى تقوم عليها الصهيونية ، ولقد كان من أخطر الدعاة إلى ذلك ، فهمى أبو الخير وعبـــد الجليل راضى ، ومن قبل مجلة المقتطف ، ولقد أغرت المسائل الروحية بعض الكتاب المسلمين ، فظنوا أنها قوة جديدة فى مواجهة الفكر المادى ، ولكن تبين من بعد أن اليهودية العالمية قد احتوت هذه الدعوة وحولتها إلى غايتها هى ، ولنفس الغاية التى عملت لها الماسونية لتحطيم الدين جرياً وراء محاولتهم التى تقول إنه لا بد أن يتحطم الدين بيد

أتباعه فذلك هو السبيل أمام الصهيونية لكي تركب أكتاف العالم من جديد وهكذا نجد أن المؤامرة على الإسلام تتجدد فى المجالين : مجال الفكر ومجال الحركة ، ونجد أن الفكر البشرى اليوم كله حافل بمطامع الصهيونية والماركسية وإنه يستهدف احتواء الفكر الإسلامى ، وإن هناك محاولة جديدة تعمل على تجديد المؤامرة القديمة التى واجهها المسلمون فى صدر الإسلام وحطموها تماماً بإعلان مفهومهم الأصيل ، واليوم تواجه حركة اليقظة الإسلامية المحاولة الجديدة وتكشف زيفها وتفسد أهواءها وتزيف شبهاتها وصولا إلى القضاء عليها .

الباب الثامن

الأصالة الإسلامية

فى مواجهة المؤامرة على الإسلام



اولا : من الفرق إلى السنة الجامعة

(١)

منذ اليوم الأول لظهور حركة (المؤامرة على الإسلام) فى القرن الثانى للهجرة فقد قامت المواجهة الصادقة والمعارضة الصريحة ، على يد السنة والجماعة فردت فسادها وكشفت زيفها ونقضت شبهاتها وأبانت بالدليل أنها حركة معادية للاسلام ناشئة من دين أجنبي وأنها حركة خارجية أصلا تلتمس فى محيط المجتمع الإسلامى خيوطاً لتدمير القيم الإسلامية كمقدمة لتدمير النظام الإسلامى نفسه وبينت أنها وثيقة الصلة بأعداء الإسلام وقد تبين أن هناك معاهدات وعقود بين دولة الروم وهذه القوى فضلاً عن تآمر القوى المجوسية الفارسية القديمة وأكد الباحثون المسلمون أن الذين وضعوا أساس الشعوبية والباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم متطلعين إلى هدم الإسلام عن طريق فكره بعد أن عجزوا عن هدمه عن طريق دولته .

أولا : أنكرت السنة : التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعطلين ملحدين وتعقبت فى نفس الوقت الملحدين والوثنيين وكشفت عنهم .

ثانيا : عارضت السنة إخضاع الإسلام للجدل العقلى ودعت إلى التماس المعين الأول والمنبع الأصيل (القرآن والسنة) .

ثالثا : كشفت السنة عن فساد إلهيات أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها معارضة أشد المعارضة لمفهوم التوحيد الخالص وأبانت أن العقائد مرجعها إلى الكتاب والسنة .

رابعا : استوعبت السنة كل المطامح والآمال التى كانت الفرق المختلفة تنادى بها فجعلت محبة أهــــل البيت جزءاً من عقيدتها وجعلت العقلانية التى رفعت لواءها المعتزلة شطر المعرفة وجعلت الوجدانية التى حمل لواءها التصوف شطر المعرفة الآخرى وجعلت اختيار الحاكم على أساس الشورى وليس على أساس النسب أساسا من أسس مفهومها .

خامسا : قاومت السنة الإتجاه الزائف نحو القول بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد كما قاومت انحرافات المعتزلة والفلاسفة والصوفية فالتقت كل هذه القطاعات فى أصل جامع .

سادسا : كشفت السنة عن أن النظر الفلسفى لا يمكن أن يكون أساسا للفكر الإسلامى ذلك أن هناك مجموعة من الحقائق الأولية لا يمكن الوصول إليها ولا عن طريق الوحى والنبوة ، وبينت أن الفلسفة ليست قرينة الوحى ولا مناظرة له فهى لا تزيد عن كونها استخداما للعقل وتفكيراً منظما يمكن أن يستخدمه الناس فى الدين أو فى أى موضوع آخر ، وهى فى أحسن صورها تعمل على أن تعصم الذهن من الخطأ فى الاستنباط والبرهان .

سابعا : رأت السنة أن القرآن كلام الله القديم ولكن التعبير عنه بالكلمات والحروف قد خلق ووجد فى حدود الزمان ولكنه من عند الله وأن فى لغة القرآن العربية أحد الأدلة على أصله السماوى .

ثامنا : أصبحت السنة هى البوتقة التى انصهرت فيها كل الثقافات فهى بمثابة النهر الكبير والمذاهب والفرق روافد ، وخير ما هذه الروافد فقد إنصهر فى مفهوم جامع الأصالة الإسلامية وصب فى النهر الكبير وكان أبلغ ما وصلت إليه هذه الغاية هو قول الإمام الغزالى أن أساليب القرآن أرجح فى سلامة العقيدة

والتزام صفاء الفطرة من جملة أساليب اليونان والمتكلمين ، ومن ثم صهرت السنة المعتزلة والفلاسفة والمتكلمين والشيعة والصوفية فى بوتقتها فأصبح العقل فى خدمة الوحى يسير فى ضوئه ، وأباح فقهاء المسلمين قدراً كبيراً من التأويل والإختلاف فى الفروع دون أن يتجاوزوا مبدأ الولاء للجماعة ودافعوا عن الوحدة الجامعة والنظرة المتكاملة فى وجه الانحرافات الهدامة ودعموا هذه الأسس بمبدأ ينص على أنه إذا اجتمع الفقهاء المجتهدون على مسألة كبرى من مسائل العقيدة والفقه فإن اجتماعهم حاسم قاطع أما المسائل الصغرى فلا مانع من الاختلاف حولها وتميزت السنة بأنها توجهت منذ البداية إلى إبراز العناصر الجامعة لا إلى إبراز دور الفرد ، حتى الأفراد الذين قاموا بدور بارز كانوا بمثابة ممثلين للنظرة الجامعة لا مفكرين مبتدعين .

تاسعا : استطاعت السنة أن تتمثل فى أعمال ثلاث رجال كبار : الشافعى والأشعرى وابن حنبل فقد قاوم هؤلاء أخطار المؤامرة على الإسلام ممثلة فى الهلينية الزاحفة وعمل فى هذا المحيط كثيرون من العلماء الأبرار على نحو مكن من استئصال الباطنية من حيث أنها قوة معنوية ، وعنـــدما تحطمت مفاهيم الباطنية تحت سنابك السنة سقطت كقوة سياسية .

عاشراً : كان لإحياء السنة وبناء معاهدها ومدارسها وتجديد فكرها فى مواجهة الفكر الشعوبى والباطنى وقيام جماعات التسلح الخلق وإيقاظ روح الجهاد عاملا هاما فى القضاء على القوى الخارجية كالحملات الصليبية والقوى الداخلية كالباطنية والحشاشين . وقد استطاع الامام الغزالى أن يزيل الحواجز بين الفقه ومفهوم التربية الاسلامية والأخلاق (التصوف والزهد) وذلك بالكشف عن أن الاسلام : عقيدة وشريعة وأخلاقا وبذلك سقط ذلك الخلاف المصطنع بين الفقهاء والصوفية والذى أغرت به مفاهيم الهلينية .

حادى عشر : استطاع مفهوم السنة : وهو مفهوم الأصالة الإسلامية الجامع أن يقضى على الغلو فى كل تلك الفرق وبذلك تعين أن السنة ليست مذهبا معينا بين المذاهب « وليس طرفا من الأطراف : يقول ابن القيم الجوزيه : وأهل السنة لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه وهم مع هؤلاء مع ما أصابوا فيه فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فمذهبهم حق جميع الطوائف بعضه إلى بعض ، القول به ونصره وموالاة أهله فى ذلك الوجه ونفى باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه فهم حكام بين الطوائف لا يعاملون بدعة ببدعة ولا يرون باطلا بباطل ولا يحملهم شنئان قوم ألا يعدلوا فيهم بل يقولون فيهم الحق ويحكمون فى مقالاتهم بالعدل »

ومن هنا تسقط تلك الدعاوى الباطلة التى يدعيها أمثال زكى نجيب محمود وغيره من أن السنة فرقة أو طائفة بينما السنة هى مدرسة الأصالة الإسلامية التى تجمع خير ما فى الفرق وتحكم بينها وترتفع عن الخلاف حول الأفراد والأشخاص وتقرر أن هذا الخلاف هو الذى أفسد المفاهيم الاسلامية .

ثانى عشر : تبين بما لايدع مجالا للشك أن الاجتهاد بالرأى كان بداية النظر العقلى فى الفكر الإسلامى وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن ونشأت عنه المذاهب الفقهية وأينع فى جنباته علم أصول الفقه ونبت فى تربيته التصوف وذلك قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فيما وجهت به المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات ، وبذلك لم يكن هناك أى تأثير اجنبى فى تكوين الفقه الذى هو وليد القرآن وآثار الصحابة والجيلين الأولين من التابعين وكان المنطلق لذلك كله هو أن الرسول اذن لولاته فى الأمصار أن يجتهدوا برأيهم حين لا يجدون نصا ولذلك فقد كان طبيعيا أن يقاوم أهل السنة بالذات إلهيات أرسطو لأنها فى مقدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الإسلام .

وقد التمس القـــرآن إلى الإقناع أساليب مختلفة منها الأسلوب العقلى وأسلوب الوجدان وأسلوب العبرة التاريخية فلم يؤلف براهينه فى مقدمات وقضايا ونتائج كالفلسفة ومن هنا فان الرأى والقياس أمور عرفها المسلمون منذ عهد النبي وقبل الإتصال بالفلسفة اليونانية .

ثالث عشر : أن السلف هم أول من رد على الجهمية ومذهبهم فى التعطيل وإنكار الصفات وفى القول بخلق القرآن فقد تصدى لذلك مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم وبينوا فساد ذلك كله وإنحرافه عن مفهوم الكتاب والسنة وكانت مقالة الجهمية هى أول فتنة التأويل التى أدت إلى تعطيل النصوص والتجاوز بها عن معانيها التى وضعت لها لغة وشرعا إلى معانى وآراء مدخولة تحملها الباطنية والغنوصية وغيرها من النحل التى كانت ترمى إلى هدم الشريعة وإضلال معتقديها وبلبلة ما استقر فى قلوبهم وامتزج بنفوسهم من عقائد واضحة لا لبس فيها ولا شائبة من غموض .

وكان أبلغ من رد على هذه الفرق الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وناصر الملة . رد على الجهمية والزنادقة الذين يشككون الناس فى القرآن ويأخذون آيات معينة مقطوعة عن سياقها وعن جملة القرآن ويدعون أنها متناقضة مع آيات أخرى ، والذين أخذوا بعض المتشابه من القرآن وضلوا به وأضلوا .

وقد اعتمد أحمد بن حنبل فى (تفسير القرآن بالقرآن) على أصول اللغة العربية ومواضعاتها وعلى لسان العرب وقانونه فى مخاطبتهم ومحاورتهم ، تلك اللغة التى لم يكن هؤلاء الزنادقة على معرفة بها ولا على اطلاع على أسرارها اطلاع ابن حنبل عليها وعلى كل ما يتصل بها من مواصفات الشرع وألفاظه واستعمالاتها وأعلن ابن حنبل أن القرآن ليس قديما ولا حادثا وأنه كلام الله لا أقول مخلوقا أو غير مخلوق .

رابع عشر : هاجم الإمام بن حنبل فتنة تعطيـل الصفات وتعطيل التكليف والشرع إزاء مؤامرة الجهمية فى القول بأن الإنسان ليس له اختيار أو إرادة أو كسب وقد جعلوا الإنسان بمثابة حال أو شجرة .

خامس عشر : قرر ابن تيمية انه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا وإعتقاداً وإستدلالا إلا من القرآن والسنة المبينة له والسير فى مسارهما فما يقرره القرآن وتشرحه السنة مقبول لا يصح رده ورده خلع للشريعة فليس للعقل سلطان فى تأويل القرآن وتفسيره وتخريجه إلا بالقدر الذى تؤدى إليه العبارات وإذا كان العقل بعد ذلك سلطان فهو فى التصديق والإذعان وبيان تقريب المعقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما، فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ويكون مقررا مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً ، ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة والعقل وراء النقل (أى الوحى) يعززه ويقويه ولا يستقل بالاستدلال بل يقوم على تقريب معانى النصوص .

سادس عشر : يقرر ابن تيمية أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء وأنه لا شىء فى الكون بغير إرادته وانه لا ينازعه أحد من خلقه وأن الله فاعل حقيقة وله مشيئة وإرادة كاملة تجعله قادراً عما يفعل وأن الله تعالى ييسر فعل الخير ويرضاه ويحبه ولا ييسر فعل الشر ولا يحبه وأن العبد يفعل ما يشاء بقدرته وإرادته (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله) .

سابع عشر : يقرر الشافعى : أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره وإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها .

وأكدت الأدلة على كذب الادعاء بأن البلاغة العربية تأثرت بخطابة أرسطو وشعره فى نشأتها وتطورها ذلك أن العرب عرفوا البلاغة وفنونها

قبل أن يترجم كتاب أرسطو وليس فى كتب البلاغة العربية مايدل دلالة واضحة على هذا التأثر أو النقل الصريح والدليل على ذلك فشل منهج قدامه فى نقد الشعر الذى اعتمد فيه على منهج أرسطو فقد أضفى عليه جفافاً لا يقبله الذوق العربى السليم ووضع حدوداً ورسوماً لا تلائم الشعر العربى .

ثامن عشر : كشف رجال الأصالة الإسلامية (السنة) أن النزعة العقلية التى دافع عنها المعتزلة كادت تخنق العقيدة وأنها حولتها من يسرها وبساطتها إلى مذهب فلسفى معقد بعيد عن روح الإسلام وكانت أخطاء المعتزلة : إخضاع العقل للوحى ، وإعلاء العقل على الوحى .

وكانت حجة أهل السنة أن العقل واحداً فى الناس وأن أهل الكلام ليسوا على رأى واحد فى المسائل التى يبحثونها وعدم اتفاق المتكلمين دليل على عجز العقل وقصوره . والعقل ليس حكما فيما وراء الطبيعة ولا على ماجاء فى الشرع ذلك أن العقل عاجز عن إدراك ماوراء الحس وصاحب الشريعة الحق تبارك وتعالى أدرى بمصالح الناس من أنفسهم .

ويقول ابن تيمية : إذا كان للعقل سلطان فى التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكما ويكون مقرراً مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً .

تاسع عشر : وصل كثير من مفكرى الإسلام إلى نفس النتيجة التى وصل إليها الغزالى : حتى قال الرازى فى آخر أيامه : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله تبارك وتعالى ويمنع من التعمق عن إبراز المعارضات والمناقضات وماذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

عشرون : قرار ابن تيمية أن العقائد لاتؤخذ إلا من النصوص وأن السلفيون يؤمنون بالنص لأنه موحى إلى النبي وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة فى الإسلام ولم تكن معروفة قطعاً عن الصحابة والتابعين فإذا قلنا أنها ضرورية لفهم العقائد فؤدى ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها وأن الطريق الصحيح أن تؤخذ العقيدة من القرآن وفق مفهومهما فى عهد الصحابة والتابعين وأن يتقيد الناس بأدلة القرآن .

* * *

ولقد كان لهذا الفهم أثره الواضح فى استئصال الباطنية والشعوبية وتحطيم مفاهيمها والقضاء على المؤامرة وكان ذلك منطلقاً إلى ظهور حركة الجهاد الضخمة الواسعة التى حررت العالم الإسلامى من التتار والصليبيين وحطمت بقايا القلاع الباطنية وجيوب الحشاشين .

ولن تستطيع أن تفعل اليوم فى مواجهة المؤامرة المتجددة (الصهيونية الشيوعية الاستعمارية) إلا مافعله المسلمون على النحو الذى قرره ابن تيمية والشافعى والأشعرى والغزالى فى إسقاط الهلينية والباطنية والشعوبية .

ثانيا . من التبعية إلى الأصالة

من سنن الفكر الإسلامى وقانونه القائم الذى لا يتحول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف وانبعاث حركة اليقظة من داخله دون عامل خارجى ، وتوهج ضوء الأصالة فيه فيقضى على كل محاولات التزييف ففى حالة الأزمة التى تفرض فيها القوى الغازية « التبعية » لها بما يمكن الفكر الإسلامى من كسر هذا القيد والانطلاق بقوته الذاتية نحو المنابع خارجاً من دائرة الأممية والاحتواء التى تفرض عليه .

وقد كان هذا جلياً فى أزمات الاعتزال والفلسفة والتصوف الفلسفى وفى العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماماً .

نجد المدرسة الحديثة التى حملت لواء الدعوة إلى الفكر البشرى ممثلا فى الفكر الغربى تنهزم حثيثاً وتنسحب من مواقعها فى فرض التبعية إلى معادلة جديدة بعد أن اكتشفت عجزها عن إخضاع الفكر الإسلامى لمؤامرة التغريب والغزو الثقافى وتعلن أنها كانت لاترى أبعاد الأمور ، أو أنه قد غرر بها فى كلمات غربية براقة كالحرية والإخاء والمساواة ، ولم تلبث الأيام أن أثبتت فساد ذلك وزيفه ، ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفكر الغربى وإلى الفرعونية ، والباطنية والشعوبية والإقليمية (هيكل ومنصور فهمى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وإسماعيل مظهر) يؤبون مرة أخرى إلى التراث الإسلامى يستلهمونه ويرون أنه وحده القادر على العطاء ، والمصدر الأصيل لمد الجسور بين القديم والجديد .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربى وهى مناهج لاتصلح للتطبيق على الفكر الإسلامى والتراث الإسلامى ، وأصح منها تلك المناهج التى طبقها مصطفى صادق الرافعى وجاد المولى وحسن البنا والمودودى

والحسن الندوى إلا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذى يحمى جوهر الفكر الإسلامى من أى إضافات غير أصيلة إليه مهما بلغ من عنف التحدى ومهما حاول الاستعمار والتغريب (إغراق) الفكر الإسلامى فى دوامة عاصفة من هذه المذاهب والدعوات والنظريات فإن الفكر الاسلامى يأخذ دائماً حاجته ومايراه صالحاً لتصحيح مساره ثم يرفض الباق ويتخلص منه .

وقد فشلت التجربة إزاء الفكر الغربى الليبرالى وتجاه الفكر الماركسى فبعد أكثر من عشرين عاماً من تجربة الاحتواء الماركسى ، وارتفاع مده حتى ظُن أنه قد أغرق الفكر الاسلامى، نجد لفيفاً من هؤلاء الذين كانوا يتصدرون الدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ ونظريات الماركسية يعودون ليصححوا موقفهم ويلتمسوا مفهوم الاسلام .

وفى كلا المرحلتين نجد أن الفكر الإسلامى هو الحاكم المسيطر والمصدر الأصيل الذى لاتجد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلا غيره وقد مروا بالتجربة من ديموقراطية الغرب إلى ماركسية الشرق وتبين فشل التجربتين بحيث لم يعد أمام العرب والمسلمين إلا منهجاً واحـــداً هو منهجهم الأصيـل .

كذلك نجد أن المحاولات الجديدة التى قام بها طه حسين وأحمد أمين وعبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود وغيرهم فى نطاق المؤامرة على الاسلام بإحياء الفكر الوثنى والفلسفى والمعتزلى من ركام الفكر البشرى القديم هى محاولات فاشلة لن تحقق شيئاً وأن مفهوم الأصالة الاسلامية قادر على تحطيمها وكشف زيفها وكانت الانجازات التى حققها العاملون فى حقل التراث الاسلامى والتى حمل لواءها مصطفى عبد الرازق وسار بها قدماً النشار وزيان والبهى وغيرهما قد حطمت تلك المحاولة التى أرادت إعادة فرض مفهوم الفلسفة الالهية والكلام على الفكر الاسلامي الحديث ، وكشفت عن أن الفكر

اليونانى لم يكن سليم المصادر وأن اليونان احتقرت التجريب وأن المسلمون هم الذين قدموا المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة وأن المسلمون رفضوا منطق أرسطو منذ اليوم الأول وأن مفهوم العقلانيـــة الذى قدمه المعتزلة لم يكن سليما ولم يجد تقبلا من المسلمين لأنه يتعارض مع مفهوم الاسلام الذى قدمه القرآن الكريم والجامع للقلب وللعقل وعبرة التاريخ كأسلوب للمعرفة .

كما تبين أن الإسلام فصل تماماً بين مفهومه الأصيل القائم على التوحيد وبين ركام الفكر البشرى القديم الذى يقوم على الوثنية والتعدد والمادية والإباحية .

ولم يعد فى الإمكان إعادة الربط بين هـذا الركام القديم وبين المفهوم الأصيل، كذلك فقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية عن محاذير الإسرائيليات القـــديمة والجديدة التى تسربت إلى التفسير وإلى التاريخ عن طريق بعض الأساطير والخرافات ، والمسلمون الذين يملكون النص الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه ، يجدون المنطلق الصحيح لفكرهم ، فإنهم يعودون إليه يلتمسون الطريق المستقيم وكلما أزمتهم الأزمات أو أحاطت بهم المؤامرات .

كذلك كشفت حركة اليقظة الإسلامية فساد الفكر الغنوصى والهلينى على السواء ، وما دسته حركة التغريب على تاريخ العرب والإسلام من سموم ، يراد بها إعادة إثارة الخلافات القـديمة التى انتهت من قديم ولم يعد لها مكان .

وتبين أن محاولة الحديث عن المعتزلة وفكرهم أو الفلاسـفة ودعواهم أو التصوف الفلسفى وقضاياه منفصلا عن سياقه التاريخى هو من المؤامرات

التي يراد بها رسم صورة زائفة لمنطلق الفكر الإسلامي ، ذلك أن هذه الفرق قد ظهرت إبان المحاولة التي عرضتها حركة الترجمة . وإن كل هذه الفرق قد انصهرت في مفهوم الإسلام الجامع ، فقد استصفاها الفكر الإسلامي وقبل عناصر القوة والحيوية منها فيما يتفق مع مفهوم التوحيد ورفض الباقي وكشف زيفه .

وقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية اليوم زيف كل محاولات فرض الأساطير أو الوثنيات أو ما يتصل بما يسمونه أحكام النجوم الذى كان يعزى إلى اليونان والبابليين وأبانوا رأى الإسلام الذى أبطل صناعة التنجيم وكشف فسادها .

وزيف المفكرون المسلمون الدعوة إلى إحياء وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الوثنيات القديمة مجددة في ابن عربي وابن الفارض والحلاج ، وكشفوا فساد وجهة هذه الشخصيات ومخالفتها مع خصوم الإسلام لهدم الدعوة والأصالة .

وقد تبين من وراء المؤامرة على الإسلام ممثلة في إحياء الفكر الباطني والصهيوني الفلسفي والفلسفي والمعتزلي محاولة جديدة لإذابة الإسلام في الأديان والقضاء على ذاتية الإسلام ونفوذه وطابعه الخاص الذى تميز به بوصفه آخر رسالات السماء وما تحقق له من امتلاك كتابه الموثق وسننه الصحيحة مما لا يملكه غيره .

كذلك فقد كان الدفاع عن الفكر الباطني هو محاولة لإسقاط الحدود الاسلامية والالتزام الأخلاقي وما يتصل بها من المسئولية الفردية والجزاء الأخروي لفتح الطريق أمام الأجيال للأهواء والشهوات .

وما تزال المعركة بين الذين يفرضون المؤامرة على الإسلام ، وبين

حركة اليقظة قائمة وممتدة ، ذلك لأن أهل الباطل لا يستسلمون من قريب ، وعلى المثقفين المسلمين أن يكونوا على يقظة دائمة إزاء هذه المؤامرة المستمرة ، وليس هناك من سبيل إلى المقاومة إلا بالتماس مفهوم القرآن والتمسك به والكشف عن صفاء التعاليم الإسلامية في بساطتها ويسرها وقرآنيتها الأصيلة بعيدة عن الشروح والخلافات المذهبية التي تفسدها ، فعلى الجماعة الإسلامية أن تعود إلى وحدة الفكر الذي يحققها لها القرآن الكريم ولا ريب أن فكرة التماس المنابع الأصيلة هو من الأهداف التي تعمل حركة التغريب والغزو الثقافي لصرف المسلمين عنها إلى تلك الخلافات والمشابهات وقد دعانا القرآن إلى التمسك بالآيات المحكمات .

المؤامرة على الاسلام

ان من أخطر التحديات التى تواجه الاسلام فى العصر الحديث : ابتعاث الفكر الوثنى والغنوصى القديم الذى كان معروفا قبل ظهور الاسلام فى البيئات الشرقية والغربية على السواء والذى تشكل فى احياء الفكر المعتزلى والفكر الصوفى الفلسفى والفكر الفاسفى المادى والفكر الشعوبى والباطنى .

تجددت هذه الأفكار مرة أخرى فى عصرنا الحديث ووضعت فى صور براقة لتخدع شباب الاسلام وتفتح لهم طريقا الى التحلل والفساد والاباحية ولتحطم مقومات الأخلاق وضوابط القيم وحدود الله وقد ظهرت فى ظل هذه الأفكار الوثنية الفاسدة القديمة المتجددة مؤامرات القاديانية والبهائية ومحاولة اعادة كتابة تاريخ الاسلام وأحياء دعوات الزنج والقرامطة وأخوان الصفا ودعوات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والاشراق كل ذلك تحت اسم تجديد الفكر العربى ومن هنا فقد كان من الضرورى مواجهة (المؤامرة على الاسلام) وكشف هذه السموم ودحض هذه الشبهات الزائفة وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم الاسلامية انتقالا من الفرق الى السنة الجامعة وتحولا من التبعية الوافدة الى الاصالة الاسلامية .

دار العلوم للطباعة ت ٣١٧٤٨
رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٧ / ٣٣٢٥

الثمن بسعر التكلفة
٦٠ قرشا